دراســـة فى الأســـاليب النبـــوية

رســـالة مقدمة لنيـــل درجـــة ماجســـتير الآداب

فى اللغـــة العربيـــــة

إعداد : عمـــر محمـــد أحمـــد الأمـــين

إشـــراف الدكتـــور :-

الحـــبر يوســـف نـور الدائـــم

أبريـــل ١٩٨٤م

الفهرســــــت

الموضـــــوع	رقم الصفحـــة

الإهـداء

إلى كل المهتمين بسنة المصطفى
صلى الله عليه وسلم .

شكر وعرفان

أحمد الله حمدا كثيرا وأثني عليه ثناء عاطرا ، ثم أتقدم بخالص شكري وتقديري لأستاذي الجليل الدكتور/ الحبر يوسف نور الدائم ، الذي أشرف على كتابة هذا البحث بحسن رعايته وتوجيهه ، والذي لم يبخل بوقت أو جهد بل ظل لعدة عامين كاملين يرعى هذا البحث ويشجع ويدفع اليه ويمدني بالمراجع من مكتبته الخاصة ويزودني بآرائه القيمة النيّرة ، فكانت ثمرة جهده أن خرج البحث بهذه الصورة التي بين أيدينا . فجزاه الله عنا خير الجزاء وأجزل له الأجر والثواب .

كما أشكر لأسرة كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم أيضا صبرها وتمويلها للبحث واتاحتها فرصة السفر للقاهرة للوقوف على بعض المصادر الهامة والمخطوطات النادرة .

والشكر موصول لأسرة مكتبة جامعة الخرطوم ، لمدنا بالمصادر والمراجع ، وأخص بالشكر الأخ / محمد الزاكي أمين مكتبة كلية الآداب .

وعاطر شكري للأخوات فتحية وانعام واحسان لقيامهن بطباعة هذا البحث .

والتحية للأخت هيفاء النعيم التي كان لتشجيعها وسعيها لتوفير بعض المراجع أثر بليغ في اعداد هذه الرسالة .

المقـــــــدمة

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح الخلق وأعربهم بيانا وعلى آله وصحبه وأكرم بهم أنصارا وأعوانا

أمّا بعد فإن الدّاعي الأول الذي دعاني لاختيار هذا البحث هو قلة اهتمام الباحثين في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بالدّراسات الأدبية الفنية، إذ أن جلهم انصرف إلى المسائل الفقهية والتشريعية والتاريخية والاجتماعية والعقائدية. لذلك جاءت رغبتي الأكيدة في إضافة شيء يسير لخدمة السنة النبوية التي هي الأصل الثاني للأمة الاسلامية بعد القرآن الكريم فإن وفقت فذلك الفضل من الله، وإن قصرت فأسأله عز وجل العفو. وحسبي أن أنبه المهتمين إلى ضرورة دراسة البيان النبوي والوقوف على خصائصه ومميزاته.

عرض كثير من المشتغلين بعلوم الأدب واللغة والبلاغة إلى تعريف الفصاحة والبيان، فمنهم من خصّها بالألفاظ دون المعاني ومنهم من جمع بينهما ومنهم من ردّها إلى الأسلوب ومنهم من فرّق بينهما.

جاء في اللسان: الفصاحة واللّسن وكلام بيّن: فصيح، والبيان الافصاح مع ذكاء. والبيّن من الرّجال: السّمح اللسان، الفصيح الظريف، العالي الكلام، القليل الرّتج، وفلان أبين من فلان أي أفصح منه لسانا وأوضح كلاما، ورجل بيّن فصيح :- قال الشاعر

قد ينطق الشعر الفصيح ويلتبس على البين الشفاف وهو خطيب[١]

وفي القرآن الكريم ، ورد لفظ بيان ومشتقاته بهذا المعنى . قال تعالى (الرحمن علّم القرآن ، خلق الانسان علّمه البيان)[٢] وقال تعالى (هذا بيان للناس)[٣] وقال جل شأنه (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)[٤]

وفي الحديث الشريف ما رواه ابن عباس عن النبي صلى الله علية وسلم "إنّ من البيان لسحرا ، وإنّ من الشعر لحكمة) ومعناه أن الرّجل يكون عليه الحق وهو أقوم بحجته من خصمه فيقلب الحقّ ببيانه إلى نفسه لأنّ معنى السّحر قلب الشيء في عين الانسان وليس بقلب الاعيان ، ألا ترى أنّ البليغ يمدح انسانا حتى يصرف قلوب السّامعين إلى حبّه ثم يذمّه حتّى يصرفها إلى بغضه .

وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يعرّف البيان قائلاً :-

" البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقته ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ، ذلك البيان

١- لسان العرب - ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ مادة "بين"
٢- الرحمن = ١- ٤
٣- آل عمران ١٣٨
٤- النحل ٨٩
٥- النساء ١٩

ومن أيّ جنس كان ذلك الدّليل لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجرى القائل والسّامع إنما هو الفهم والافهام فبأي شيء بلغت الافهام واوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع ."(١)

أما ابن رشيق فيسوق له تعريفًا بقوله " هو الكشف عن المعنى حين تدركه النفس من غير غفلة وإنما قيل ذلك لأنّه قد يأتي التعقيد في الكلام الذى يدلّ ولا يستحق اسم البيان "(٢)

والجرجاني جعل الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان تدل على معنى واحد أو متقارب وهو التعبير عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا أو تكلّموا أو أخبروا السّامعين عن مقاصدهم وأغراضهم وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم "(٣)

وابن الاثير(٤) رأى في البيان معنى واسعًا يدلّ مع البلاغة كلها ــ فصاحة وبلاغة ــ فقال موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة وصاحبة يسأل عن أحوالها اللفظية والمعنوية وهووالنحوى يشتركان في ان النحوى ينظر في دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى وتلك دلالة عامة وصاحب البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة

١ــ البيان والتبين ــ الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون
مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٨ الطبعة الاولى ــ جـ١/٦
٢ــ العمدة ابن رشيق ١/٢٥٤
٣ــ دلائل الاعجاز للجرجاني عبدالقاهر صحح أصله محمد عبده ومحمد محمود التركزى مطبعة الموسوعات مصر ص٣٥
٤ــ المثل السائر ابن الاثير ضياء الدين تحقيق احمد الحوفي وبدون طبانة مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦ جـ/ ٣٩ ــ ٤٠

خاصة والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك وراء النحو والاعراب .

وأبو هلال العسكرى (١) يجعل بين الفصاحة والبلاغة فرقاً وفى الاولى يقول : فأما الفصاحة فقد قال قوم إنها من قولهم أفصح فلان عمّا فى نفسه إذا أظهره وأفصح الصبح إذا أضاء وأفصح اللبن إذا تجلت رغوته فظهر وأفصح الأعجمى إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين وفصح اللسان إذا عبر عما فى نفسه على جهة الصّواب دون الخطأ "

وجاء فى المزهر(٢) قال الرّاغب فى مفرداته : الفصح خلوص الشىء مما يشوبه ،وأصله فى اللّبن يقال فصح اللبن وأفصح فهو فصيح ومفصح إذا تعرى من الرّغوة قال الشاعر :-

وتحت الرغوة اللبن الفصيح

ومنه استعير فصح الرّجل : وأفصح تكلم بالعربية وقيل بالعكس والأول أصح"

فالبيان فى معناه اللغوى لا يخرج عن الكشف والايضاح وعلو الكلام وإظهار المقصود بأبلغ وجه ،وكذلك الفصاحة . والبيان هو الوسيلة النبوية التى اعتمد عليها رسولنا صلى الله عليه وسلم فى توصيل رسالة ربه

١- الصناعتين - ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ط مطبعة محمود بك سنة ١٣٢٠ هـ ص ٦٠ - ٨٠ .

٢- المزهر ،السيوطى تحقيق محمد أحمد جاد المولى محمد ابو الفضل على محمد البجاوى الطبعة الرابعة مصر ١٩٥٨ - ١ / ١٨٤

إلى الناس. اشتهر العرب قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده بعلو الكعب فى ألوان البيان والفصاحة حتى كان البيان والفروسية من أبرز معالمهم فى الجاهلية وقد ذكر الله عز وجل لنبيّه صلّى اللّه عليه وسلّم حالهم فى بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام وصحّة العقول وما بلغته لغتهم فى الجاهلية من مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان وذكر العرب وما فيها من الذكاء والنكراء والمكر ومن بلاغة الالسنة واللدد عند الخصومة فقال تعالى :-

(فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد)[١] وقال تعالى :- (ما ضربوه لك إلاّ جدلاً بل هم قوم خصمون)[٢] وقال تعالى :- (وتنذر به قوما لدّا)[٣] وقال تعالى :- (وليشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام)[٤]

ومن أكبر الدلائل على ما حذقوه من حسن بيان، أن كانت معجزة الرّسول الكريم وحجّته القاطعة الدامغة لهم أن دعا أقصاهم إلى معارضة القرآن فى بلاغته الباهرة وهى دعوة تدلّ على ما اوتوه من اللسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام كما تدلّ على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعانى وتبيّن ما يجرى فيها من جودة الافهام وبلاغة التعبير .

ومحمّد صلّى اللّه عليه وسلّم، القرشى الناشئ فى بنى سعد المتكلم

١- الاحزاب ١٩
٢- الزخرف ٥٨
٣- مريم ٩٧
٤- البقرة ٢٠٤

على القرآن الكريم المتأثر بمنهجه والقائم على نسقه والمترسم لخطاه وهـو المعد إعداداً إلهياً خاصاً كان أفصح العرب على الاطلاق .

لقد نشأ الرسول صلى الله عليه وسلم وتنقل بين أفصح القبائل وأصفاها بياناً وأسلسها منطقا إذ ولد في بني هاشم ورضع في بني سعد ونشأ في قريش وتزوج من بني أسد وهاجر إلى بني عمرو - وهم الاوس والخزرج - فجمع ميزاتهم اللغوية في قاموسه وضم كل فصاحاتهم إلى لسانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أفصح العرب - رواه أصحاب الغريب ورووه أيضا بلفظ أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش .

فاللغة القريشية باعتراف من جميع القبائل كانت أغزر لهجات العرب مادة وأرقها أسلوبا وأغناها ثروة وأقدرها على التعبير الجميل الدقيق الأنيق في أفانين القول المختلفة فاصطنعت وحدها في الكتابة والتأليف حتى كان الشاعر يتحاشى خصائص لهجته ويتجنب صفاتها الخاصة في بناء الكلمة وتركيب الجملة بالأحرف ليتحدث إلى الناس بلغة ألفوها وتواضعوا عليها بعد أن أسهمت عوامل كثيرة من صقلها وتهذيبها .

وكان لقريش في شعر العرب الحكم الذي لا يرد . يقول حماد الراوية : إن العرب كانت تعرض شعرها على قريش فما قبلوه كان مقبولاً وما ردوه كان مردوداً فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها :-

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ

فقالوا هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم :-

أحابك قلبٌ في الحسان طروبُ

بُعيدَ الشباب عصرَ حان مشيبُ

فقالوا هاتان سمطا الدهر :

وفي فصاحة بني أسد قال أبو يقظان قال عمر بن عبد العزيز ما كلمني رجل من بني أسد الا تمنيت أن يمدّ في حجّته حتى يكثر كلامه فأسمعه (١)

ومن أسباب فصاحته صلى الله عليه وسلم تلمذته على القرآن البليغ الفصيح الذي تحدّى معارضيه أن يأتوا بمثله أولاً ثم تنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن الصّادق الذي لا يخالف الواقع في شيء إلى التحدى بعشر سور مثله ولو كانت مفتريات لا أصل لها ولا سند، فلما عجزوا عن السّور العشر المفتريات يتنازل إلى تحديهم بسورة من مثله حتى إذا عجزوا عن معارضته بسورة من سوره وهم أمة الفصاحة والبلاغة، جلجل صوته في الآفاق وتحدى أمم العالم قائلاً في ثقة ويقين (قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢)

١- البيان والتبيين ١/١٧٤

٢- سورة الاسراء اية ٨٨

كما أن الله سبحانه وتعالى أعدّ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إعدادًا خاصا تمهيدًا لبعثه إلى أئمة البيان وزعماء الكلمة حتى تكون له الزعامة بدون منافس وتخلص له القيادة بدون منازع ولا يجرؤ أحد أن يقف في وجهه واذا وقف لم يصمد ما دام على غير طريقهم الذى عهدوه من التنافس والتصارع والتسابق لأنه نال من ربه .أما هم فيقصرون تارة ويتفوقون أخرى لانهم يخضعون لظروف البيئة المتباينة المطالب فما تتطلبه البادية ترفضه المدينة وما يفخر به العربى القحّ ينفر منه الهجين لذا قال صلى الله عليه وسلم أنا افصح العرب.وهو قول أرسله فى العرب جميعا والفصاحة أكبر أمورهم والكلام سيد عملهم فما دخلتهم له حمية ولا تعاظمهم ولاردوه ولا غضوا منه ولا وجدوا الى ذلك سبيلا . ولو كان فيهم أفصح منه لعارضوه به ولا قاموه فى وزنه ثم لجعلوا من ذلك سببا لنقض دعوته والانكار عليه غير أنهم عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوهها وأشرف مذاهبها .

وهذه العوامل مجتمعة كانت وراء تكوينه البيانى وتفوقه اللغوى وتميزه على سائر العرب ووقوفه على مختلف لهجاتهم وشتى لغاتهم وتمكنه من الحديث لكل بما يتلاءم معه .

وفصاحته قد صرح بها صلى الله عليه وسلم.روى البيهقى فى شعب الايمان عن محمد بن إبراهيم الحارث أن رجلاً قال يا رسول الله ما أفصحك فما رأيت الذى هو أعرب منك قال : حق لى فإنما أنزل القرآن علىّ بلسان عربى

مبين(١) فشهد له من بعد تصريحه أصحابه رضوان الله عليهم . وكذلك يروى عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه قال له يارسول الله ما بالك أفصحنا قال لأن كلام اسماعيل عليه السلام كان درساً أتى به جبريل فعلّمنيه وقال على بن ابى طالب كرّم الله وجهه ما سمعت كلمة عربية من العرب إلاّ وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسمعته يقول (مات حتف انفه) وما سمعتها من عربي قبله .

وكذلك شهد له بالفصاحة الدّارسون لأساليبه وأحاديثه :ـ

فالزمخشرى يقول (٢) ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزّت قدرته محضه وألقى زبدته على لسان محمد عليه وآله أفضل صلاة وأوفر سلام فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفككا الرجل وما من مصقع يناهزه الا رجع فارغ السجل وما قرن منطقه بمنطق إلاّ كان كالبرذون مع الحصان المطهم ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس الا أشبه الوضح في نقبة الادهم . قال عليه السلام اوتيت جوامع الكلم وقال أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد "

والجاحظ يصف كلامه قائلا :ـ(٣)

" هذا الكلام الذى قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن

١ـ المزهر ـ السيوطى ١ / ٢٠٩

٢ـ الفائق فى غريب الحديث جـ ١ / ٢

٣ـ البيان والتبين للجاحظ ٢ / ١٧

الصنعة ونزه عن التكلف استعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر وهجر الغريب الحوشى ورغب عن الهجين السوقى فلم ينطق الا عن ميراث كلمة ولم يتكلم الا بكلام قد حُفّ بالعصمة وشدّ بالتأييد ويسر بالتوفيق وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلّة عدد الكلام وهو مع استغنائه عن إعادته وقلّة السامع الى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلّت له قدم ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطّوال بالكلام القصير ولا يلتمس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم ولا يحتج بالخلابة ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطىء ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أجمل مذهبا ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقفاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح من معناه ولا أبين من فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم .

وقال الخطابى (١) " اعلم ان الله لمّا وضع رسوله موضع البلاغة من وحيه ونصّبه منصب البيان لدينه اختار له من اللّغات أعربها من الألسن أفصحها وأبينها ثم أمدّه بجوامع الكلم . قال " ومن فصاحته أنه تكلّم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله ولم توجد من متقدم كلامها كقوله مات حتف أنفه وحمى الوطيس ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . فى ألفاظ عديدة تجرى الأمثال وقد يدخل فى هذا احداثه الاسماء الشرعية - أ.هـ .

١- المزهر للسيوطى ١/٢٠٩

البـــــاب الأول

هديه صلى الله عليه وســـــلم في الكلام

الفصـــل الأول
اختيـــار الألفــــاظ

ذكرنا سابقا أنه لمّا كانت الفصاحة والبيان وصفاً حسناً فلا يجوز أن يكون اللفظ قبيحاً ولا مستهجناً لذا كان النبى صلى الله عليه وسلّــم وهو أفصح العرب ،يتخيّر خطابه و يختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملهـــا وألطفها وأبعدها عن ألفاظ الجفاء والغلظة والفحش فلم يكن فاحشـــا ولا متفاحشـــا ولا صخّـابا ولا فظّاً (١)

وهو الذى حدّد أن الكامل الاسلام والجامع لخصاله من لم يؤذ مسلماً بقولٍ أو فعلٍ فيقول صلّى الله عليه وسلم "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده "(٢) فعبّر باللّسان دون القول ليدخل فيه من أخرج لسانه استهزاءً بصاحبه وقدّمه على اليد لأن إيذاءه أكثر وقوعًا وأشدّ نكايةً ولذا كان النبى صلى الله يقول لحسّان أهج قريشـاً فانه أشـدّ عليهم من رشق النّبال وقال الشـاعر :ـ

جراحات السّـــنان لها التئـــام
ولا يلتأم ما جرح اللّســــان(٣)

وتروى لنا السيدة عائشــة رضى الله عنها ،قوله صلى الله عليه وســـلّم (إن شـرّ النّاس منزلة يوم القيامة من ودعه أو تركه النّاس اتقاء فحشه "(٤)

١ــ زاد المعاد ، ابن القيم ط ٣ مصر ١٩٧٣ جـ٢/٩
٢ــ زاد المسلم ٣/٣٩٤
٣ــ المرجع السـابق نفسـه
٤ــ زاد المسلم ٤/٢٣٢

وسبب هذا الحديث أن رجلا استأذن على النبى صلى اللـه عليه وسلم فقال ائذنوا له فلبئس ابن العشيرة أو بئس الرجل فلما دخل عليه ألان له القول ، فقالت عائشة فقلت له يا رسول الله ؛ قلت له الذى قلت ثم ألنت له القول . قال : يا عائشة : إنّ شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه ".

وكما كان يكره الفحش والبذاءة ، كان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون من حق من ليس كذلك وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه فى حق من ليس من أهله . (١)

فقال صلى الله عليه وسلم " لا يقل احدكم ربى وليقل سيدى ومولاى ولايقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى ". (٢)

وسبب النهى عن ذلك أن حقيقة الربوبية إنّما هى لله تعالى لأنّ الربّ هو المالك القائم بالشىء فلا يليق مشاركة غيره له فيها . " قال القرطبى وغيره: إنّما فرّق بين الرّب والسّيد لأنّ الرّبّ من أسماء اللّه تعالى فالفرق واضح إذ لا التباس وإن قلنا إنه من أسمائه تعالى فليس فى الشهرة والاستعمال كلفظ الربّ ويحصل الفرق بذلك أيضاً (٣)

وعند مالك تخصيص الكراهية بالنداء فيكره أن يقول يا سيدى ولا يكره فى غير النداء وقال العينى : وقد قيل لمالك هل كره أحد بالمدينة قوله

١- زاد المعاد ٢/ ٩
٢- زاد المسلم ٥/ ٢٩٦
٣- المرجع السابق نفسه

لسيده يا سيدى قال : لا ، واحتج بهذه الاية " وألفيا سيدها لدى الباب "(١) وقوله تعالى " وسيدا حصورا "(٢)

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لقوم من الانصار " قوموا إلى سيدكم "(٣) والسيد سعد بن معاذ رئيس الأوس رضى الله عنه وأمرهم عليه الصلاة والسلام بالقيام له حال قدومه عليهم لفضيلته وعلوّ مكانته وكيف لا وقد اهتز العرش لموته كما فى الخبر . وسيدكم هنا تعنى رئيسكم وزعيمكم .

وجاء فى سنن ابى (٤) داود قوله صلى الله عليه وسلم :..

" لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولا يقولن المملوكون ربى وربتى وليقل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدى وسيدتى فإنكم المملوكون والرب الله عز وجل .

وجاء فى صحيح البخارى (٥) لا يقل أحدكم اطعم ربك وضىء ربك اسق ربك وليقل سيدى ومولاى ولا يقل أحدكم عبدى أمتى ولكن فتاى وفتاتى وغلامى .

فهو صلى الله عليه وسلم ينهى عن التطاول فى اللفظ كما ينهى عن التطاول فى الفعل وقوله صلى الله عليه وسلم فتاى .... الخ

١ــ سورة يوسف (٢٥)
٢ــ سورة آل عمران ٣٩
٣ــ صحيح البخارى كتاب الاستئذان باب قول النبى (ص) قوموا الى سيدكم
٤ــ سنن ابى داود ٣١١/٢
٥ــ صحيح البخارى كتاب العتق باب كراهة التطاول

فالالفاظ التي اخترنا ليست دالة على الملك كدلالة عبدى وأمتى فقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى ما يؤدى إلى المعنى مع السلامة من التعاظم مع أنهما تطلق على الحر والمملوك لكن اضافته تدل على الاختصاص ومن ذلك قوله تعالى :-

(وإذ قال موسى لفتاه) (١)

ومن ذلك الباب أيضا أنه صلى الله عليه وسلم منع أن تسمى شجرة العنب كرمًا بقوله (لا يقولنّ أحدكم الكرم فإن الكرم الرجل المسلم ولكن قولوا حدائق الأعناب)

وفي رواية أخرى لا تسمّوا العنب الكرم إنما الكرم قلب المؤمن(٢) فهو ينهى عن تسمية العنب بالكرم وعلّة النهي كونه يتخذ منه الخمر . وقد قيل أنهم سموا العنب كرما لان المتخذ منه يحث على السخاء ويأمر بالكرم فلذا نهى عنه لأنّ غير المتاثمين إذا سموه ربما هاجت نفوسهم إليها فواقعوها أو قاربوا . والمراد من النهي تأكيد تحريم الخمر بمحو اسمها وتقرير أن المستحق لهذا الاسم المشتق من الكرم هو قلب المرء من الذى يتقى شربها . ويرى الكرم كل الكرم من تركها . فهو أحق بهذا الاسم الكريم لكونه المغرس لشجرة الايمان والمأوى لكمال التقوى فكره عليه الصلاة والسلام تسميته لأن فيها تقريرًا لما كانوا

١- سنن ابى داود ٢/ ٣١١

٢- رواه ابو هريرة وذكره البخاري في كتاب الأدب باب قول النبي إنما الكرم قلب المرء من .

يتوهمونه من تكريم شاربها قال لقيط بن زرارة (١)

شربت الخمر حتى خلت أنى أبو قابوس أو عبد المدان

أمشى فى بنى عدس بن زيد رخى البال منطلق اللسان

وقال الآخر (٢)

إذا صدمتنى الكأس أبدت محاسنى ولم يخش ندمانى أذاتى ولا بخلى

ولست بفحاش عليه وإن أساء وما شكل من آذى نداماه من شكلى

وقال حسان :- (٣)

ونشربها فتتركنا ملوكاً

وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

وقال آخر يرثى بعضهم

لا تنفرى يا ناق منه فانه شريب خمر مسعر لحروب

ويروى أبو داود فى كتاب الأدب أنه لما وفد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة منهم، يكنون أحدهم بأبى الحكم فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ الله هو الحكم فلم تكنى بأبى الحكم ؟ فقال: إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم، فرضى كل الفريقين . فقال صلى الله عليه وسلم: ما أحسن هذا فما لك من الولد؟ فقال لى شريح ومسلم وعبد الله قال : فمن أكبرهم؟ قلت شريح قال فأنت أبو شريح (٤) وبما

١ــ الكامل ١/٧٢
٢ــ المرجع السابق نفسه
٣ــ
٤ــ الأدب المفرد ٢/٢٨٣

أه ولولده .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن العقيقة فقال: لا يحب الله العقوق. (١)

وهو القائل صلى الله عليه وسلم " لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي (٢) " فكرة لفظ الخبث لبشاعته وأختار اللفظ السالم لانه كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الاسم الحسن ويتفاءل به ويكره الاسم القبيح ويغيّره وهكذا كانت سنته. كما يروى عنه أنه قال من يسوق إبلنا هذه أو قال من يبلغ إبلنا هذه؟ فقال رجل: أنا فقال " ما اسمك "؟ قال فلان. قال: اجلس ثم قام آخر فقال ما اسمك فقال فلان فقال اجلس. ثم قام آخر فقال ما اسمك؟ قال: ناجية. قال " أنت لها فسقها "(٣) وسمع النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يسمّون رجلا منهم عبد الحجر فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اسمك؟ فقال عبد الحجر قال لا . أنت عبد الله " (٤)

كما يروى عنه ابن عمر انه صلى الله عليه وسلم غيّر اسم عاصية وقال أنت جميلة (٥) وجاء في الاصابة جميلة بنت ثابت زوج عمر كان اسمها

١- سنن ابى داود ٢/ ٩

٢- زاد المسلم ٥/ ٤٠٠

٣- الادب المفرد ٢/ ٢٨٤

٤- الادب المفرد ٢/ ٢٨٣

٥- اخرجه مسلم في الاستئذان وأبو داود في الادب والترمذى في الاستئذان

عاصية فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميلة. وأخرج ابن أبي شيبة أن أمة لعمر يقال لها عاصية فسماها رسول الله عليه وآله وسلم جميلة.(١)

ويروى أيضا أن محمد بن عمرو بن عطاء دخل على زينب بنت ابى سلمة فسألته عن اسم أخت له عنده قال فقلت اسمها برّة قالت: غيّر اسمها، فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه وسلّم نكح زينب بنت جحش واسمها برّة فغيّر اسمها زينب ودخل على أم سلمة حين تزوّجها واسمى برّة - فسمعها تدعونى برّة فقال لا تزكّوا أنفسكم فإن الله هو أعلم بالبّر منكن والفاجرة سميها زينب. فقال فهى زينب.(٢)

ويقال أن أصل الكلمة (زين أب) فنقلت حركة همزة الأب الى النون بعد اسقاط الحركة ثم حذفت الهمزة. أى زينة لابيها.

ومن اختياره للألفاظ استعماله لأسماء الافعال عندما يقتضى المقام إيجاز اللفظ واختصاره مع وفاء المعنى والمبالغة فيه.

واسم الفعل اكتسب بالاستعمال العربى القديم ميزتين ليستا للفعل الذى بمعناه :-

الاولى : أن اسم الفعل أقوى من الفعل الذى بمعناه فى أداء المعنى وأقدر على ابرازه كاملاً المبالغة فيه فالفعل "بَعُد" مثلا يفيد مجرد

١- الادب المفرد ١٩٤/٢

٢- الادب المفرد ١٩٤/٢

البعد ولكن اسم الفعل الذى بمعناه وهو "هيهات" يفيد البعد البعيد أو الشديد لأنّ معناه الدّقيق هو بعد جدّاً والفعل "افترق" يفيـــد الافتراق المجرّد لكن اسم الفعل (شتّان) وهو بمعناه يفيد الافتراق الشديد لان معناه الحقيقى هو افترق جدّاً .

والثانية : أنّه يؤدى المعنى على الوجه السالف مع إيجاز اللفظ واختيـاره لالتزامه فى الاغلب صورة واحدة ولا يتغير مع المفرد أو المثنى أو الجمع أو التذكير او التانيث(١)

والامثلة على استعمال أسماء الافعال فى أحاديث الرسول صلـى الله عليه وسلم كثيرة نقتصر على أمثلة.منها :ــ

بَــخٍ ذلك مالٌ رابح،بخٍ ذلك مال رابـــح (٢)

وسبب هذا الحديث أن أبا طلحة كان أكثر الأنصار مالاً وكان له بستان فيه نخل وماء طيب يقال له " بيرحاء " فلما نزلت الاية : لـــن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " قام أبو طلحة فقال يا رسول اللـــه ان احب أموالى الى بيرحاء وأنها صدقة الله تعالى فضعها حيث شـئت فقال عليه الصلاة والسلام بخٍ ذلك مال رابح .....الخ وقد سمعت ما قلت وأنى ارى أن تجعلها فى الاقربين وقال ابو طلحة أفعل يا رسول اللـــه

١ــ النحو الوافى ــعباس حسن ٤/١١٠

٢ــ رواه انس وأخرجه البخارى فى كتاب الزكاة باب على الاقارب

فقسمها ابو طلحة بين أقاربه وبَخٍ اسم فاعل بمعنى أثنى وأمدح وأبدى إعظامي وتقديري وهي كلمة تقال عند الرّضا والاعجاب، الا ترى أنها أدّت المعنى وزيادة مع إيجاز اللفظ والمبالغة في المعنى .

والمثال الثّاني قوله للحسن بن علي :-

كَخٍ كَخٍ إرْمِ بها، أما علمت أنّا لا نأكل الصدقة (١) قالها له حين أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه وكَخٍ يجعلها ابن مالك من اسماء الافعال وذلك اذ يقول :-

وما به خوطب ما لا يعقل

من مشبه اسم الفعل صوتا يجعل

وهي كلمة تقال عند زجر الصبّي عن تناول شيء وعند التقذر من شيء .

ومثال ثالث نحو قوله لبلال بن رباح

أوّه أوّه عين الرّبا عين الرّبا (٢)

قاله لبلال عندما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من أين هذا التمر البرني وهو ضرب من التمر أصفر مدّور وهو أجود التّمر ولمّا قال له النبي صلى الله عليه وسلم من أين هذا قال بلال كان عندنا تمر ردئ فبعت منه صاعين بصاع ليطعم

١- زاد المسلم ١/٨٩
٢- زاد المسلم ٢/١٨

النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم عند ذلك اوه أوّه عين الربا عين الربا لا تفعل ولكن اذا أردت أن تشترى فبع التمر ببيع آخر ثم اشتر به . وقوله صلى الله عليه وسلم اوه كلمة حزن وتوجع وهو اسم فعل كما صرح به ابن مالك فى ألفيته بقوله :-

ما ناب عن فعلٍ كشتّان وصَهْ

وهو اسم فعلٍ وكذا أوّه ومَهْ

فأوّه اسم فعل مضارع بمعنى أتوجع فالرسول الكريم عندما تألم من فعل بلال بهذا اللفظ ليكون ابلغ من الزجر مع اختصاره .

والنبى صلى الله عليه وسلم استعمل ايضا بناء المبالغة فى كثير من أحاديثه مثال ذلك قوله :-

ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . (١)

فاستعماله للصرعة ببناء المبالغة التى هى على وزن هُمَزَةٍ ولُمَزَةٍ وضُحَكَةٍ والمراد من يصرع الناس كثيرا بقوته فالمعنى المراد انما الكامل فى الشدة المفيدة الذى يملك نفسه عند الغضب فقد نقل صلى الله عليه وسلم الصرعة من موضعه اللغوى الى الذى يملك نفسه عند الغضب لضرب من التوسع والمجاز وهو من فصيح الكلام لانه لما كان الغضبان بحالة شديدة من الغيظ وقد ثارت نفسه بالغضب، فقد قهرها بحلمه وصرعها بثباته كان كالصرعة الذى يصرع

١- هداية البارى الى أحاديث البخارى -السيد عبد الرحيم عنبر المصرى الطهطاوى طبعة ثانية ١٣٤٠هـ مصر جـ ٢ / ١٠٧

الغضب كان قد قهر أقوى أعدائه ولما كان النبى يختار ألفاظه اختياراً لتؤدى المعنى المراد بأقرب السبل وكان يستعمل الالفاظ التى تؤدى المعنى أكثر من غيرها ، فاسمعه يقول " لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم أخرق منازل قوم لا يشهدون الصلاة فاحرّق عليهم بيوتهم (١) فقوله احرّق بالتشديد يؤدى المعنى أكثر مما لو قال أحرق دون تشديد والتشديد للتكثير فنقول حرّقه اذا بالغ فى تحريقه .

وابن جنّى فى خصائصه أفرد باباً سماه قوة اللفظ لقوة المعنى (٢) يقول فيه " هذا فصل فى العربية حسن منه قولهم خشن واخشوشن فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو .

ومن ذلك أيضا قولهم رجل جميل ووضىء فاذا أرادوا المبالغة فى ذلك قالوا وضّاء وجمّال فزادوا فى اللفظ هذه الزيادة لزيادة فى معناه .

قال الاخطل (٣)

والمرء يلحقه بفتيان الندى
خلق كريم وليس بالوضّاء

وكذلك حسن وحسّان قال الشماخ فى قصيدة يهجو فيها الربيع بن

١- زاد المسلم ٢/٤٥
٢- الخصائص ٣/٢٦٦
٣- المرجع السابق نفسه

عليها (١)

دار الفتـــاة التي كنّـا نقــول لــها

يا ظبيــــة عطـــلا حسّــانه الجيد

وكأن أصل هذا إنما هو لتضعيف العين في نحو المثال قطّع وكسّر وبابهما .

ومن الالفاظ المختارة الدالة على قوة المعنى لفظ الجرجرة والصلصلة الذي يضعه ابن جني في باب إساس الالفاظ أشباه المعاني والذي يقول فيه اعلم أن هذا موضع شريف لطيف وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحتـــه :-

قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجنــدب استطالة . ومدّاً فقالوا صـّــر وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا صرصر

وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان انها تأتي للاضطراب الحركة نحو النقزان والغليان والغثيان فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الافعال ويقول ابن جني :

ووجدت أنا من هذا الحديث اشياء كثيرة على سمت ما حدّاه ومنهاج ما مثلاه (يعني الخليل وسيبويه) ،وذلك انك تجد المصادر

١- الخصائص ٢/١٦٦

٢- الخصــائـص ٢/١٥٢

الرباعية المضعفه وتاتى للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والجرجرة والقرقرة .

قال صلى الله عليه وسلم الذى يشرب فى آنية الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم (٢)

وقال عليه السلام يصف طريقة نزول الوحى على قلبه " أحيانا ياتينى مثل صلصلة الجرس وهو اشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول (٣)

وقال ايضا :-

بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه مرجل جمته إذ خسف به الله فهو يتجلجل إلى يوم القيامة" (٣) فلفظ الجرجرة والصلصلة والجلجلة كلها مضعفة تعنى التكرير والحركة والصوت .

١- الموطأ/ ٨
٢- صحيح البخارى بدء الوحى ١/١
٣- زاد المسلم جـ ٢ / ١٥٣

الايجـــــاز

الإيجاز سمة بينة غالبة على أحاديثه صلى الله عليه وسـلم. فقد كان شديد الميل إلى إيجاز الحديث وخطم الكلام وزم الخطـب وشديد العزوف عن الثرثرة في غيره ما طائل والتفيهق في غير ما حاجة والاسترسال من غير سبب قوى داع للاسترسال وبسط الكلام.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم مثالاً صادقاً في كلامه ودعائه إلى المعـانى الواسعة التى تصاغ فى ألفاظ قليلة يسيرة وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذه السمة الظاهرة البيّنة فى أحاديثه فقال (أوتيـت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً) وفى رواية (بعثت بجوامع الكلم نصرت بالرعب) (١)

وبفضل هذا العطاء الجمّ غير المجذوذ استطاع الرّسـول صلّى الله عليه وسلّم أن يدرك باللفظ القليل المحكم من المعانى والمضامين مالا يدركه غيره بالالفاظ المنتشرة. وإيجاز اللفظ عدّه البلغاء من البلاغة، قيل لأحدهم ما البلاغة؟ قال: إصابة المعنى وحسن الايجاز وقال آخر: البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى.(٢) وقال معـاوية لعمر بن العاص من أبلغ الناس؟ فقال: من اقتصر على الإيجاز وتنكب الفضـول. وحضر اعرابى مجلس رجل مكثر مسترسل، فسأل الرجل الأعرابي

١- زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم - الامام الشنقيطى دار احياء التراث العربى بيروت لبنان ج ١ / ١٣٨

٢- العمدة - ابن رشيق ١/ ٢٤١

قائلا ما العيّ عندكم قال الأعرابي : ما انت فيه منذ اليوم .

وما كان للرسول أن يلجأ إلى الاكثار والإسهاب والتطويل إذ الاكثار والاسهاب والتطويل كثيرا ما ينمّ على قلّة الحياء وهو صلى الله عليه وسلم الحيّ الكريم الذى عدّ الحياء شعبة من شعب الايمان . ووصفه أبو سعيد الخدرى بأنّه كان أشدّ حياء من العذراء فى خدرها . ولقد أدرك بعض الشّعراء صلة ما بين الاكثار وسوء الحياء فقال :-

نزر الكلام من الحياء تخاله ضمنا وليس بجسمه سُقم
عقم النساء فما يلدن شبيهه إنّ النّساء بمثله عُقم

والاكثار والاسهاب والتطويل قد ينّم على التكلف والتمحّل والتنطع وهو صلى الله عليه وسلم أبعد النّاس عن التكلّف والتمحّل والتنطّع قال تعالى (قل ما اسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين (١)) والاكثار والاسهاب يقود صاحبه إلى الهجر . قالوا من ضاق صدره أتسع لسانه ومن أكثر أهجر أى خرج الى الهجر وهو القبيح من القول . وقالوا المكثار كحاطب ليل وحاطب الليل ربما نهشته الحيّة أو لسعته العقرب فى احتطابه .

---

(١) سورة ص ٨٦

يقال ان مالك بن جشى وحارثه بن عبد العزيز العامريان تحازبا عند علقمة بن علاثه فكره علقمة تفاقم الأمر بينهما، فقال " أوّل العيّ الاختلاط وأسوأ القول الافراط ، فلتكن منازعتكما فى رسل وشاأتكما فى مهل" (١) والاختلاط هو الغضب والغضب عمّى عن الصواب .

ولقد أخبر وهو الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قائلا " إنّ أحبّكم إليّ وأقربكم منّى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم منّى يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون . قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدّقين فما المتفيهقون ؟ قال " المتكبرين " (٢)

والثرثار هو كثير الكلام تكلّفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحقّ وأصل اللفظ من العين الواسعة من عيون الماء يقال عين ثرثارة وكان يقال لنهر بعينه/ وإنّما سمى الثرثار لكثرة مائة قال الاخطل :-(٣)

لعمرى لقد لاقت سليم وعامرٌ على جانب الثرثار راغبة البَكْر

وقوله المتفيهقون إنما هو بمنزلة قوله الثرثارون وتوكيد له ومتفيهق متفيعل من قولهم فهق الغدير يفيهق إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد .

١- العقد الفريد ٣/ ٨١

٢- رياض الصالحين - النووى - مصر ١٩٥٥ ص ٢٨١

٣- الكامل للمبرد ١/ ٥

كما قال الأعشى (١)

نَقى الذّمَّ عن رَهْطِ المحلّق جفنةٌ

كجابية الشّيخ العراقيّ تَفْهَقُ

وتأويله أن العراقي إذا تمكّن من الماء ملأ جابيته لأنه حضريّ فلا يعرف مواقع الماء ولا محالّه .

وجاء في سنن أبي داود قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله يبغض البليغ الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها" (٢) والمتشدق ، المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيمًا لكلامه . وفي ذلك يقول الجاحظ " إنّما عاب النبي المتشادقين والثرثارين، والذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها، والاعرابي المتشادق هو الذي يصنع بفكّيه وبشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلّف ذلك منكم فهو أعيب والذّم له ألزم) (٣)

وفي موضع آخر يقول " فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزّهاً عن الاختلال مصوناً

١- رياض الصالحين - النووي - مصرة ١٩٥ ص ١٨١

٢- سنن ابي داود ٣١٥/٢

٣- البيان والتبيين ٢٧٥/١

عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة" (١)

وصاحب العقد الفريد (٢) يذكر ما قاله أبرويز لكاتبه :-

" اجمع الكثير مما تريد من المعنى فى القليل مما تقول " يحضه على الايجاز وينهاه عن الاسهاب والاكثار .

وما كان الرسول صلّى الله عليه وسلم ليأمر أصحابه بالايجاز وعدم التكلف ثم يأتى من هذا شيئا وهو النّاصح الامين الذى لا يخالفهم الى ما ينهاهم عنه. من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لجرير بن عبدالله البجلى " يا جرير إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلّف . ومنه أن رجلا تكلّم عند النّبى صلى الله عليه وسلم فقال له النّبى صلى الله عليه وسلم " كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتان وأسنانى فقال له :- " ان الله يكره الانبعاق فى الكلام نضّر اللّه وجه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته " (٣)

ولقد سمع أصحابه الميامين نصيحته، وعملوا بها، واجتهدوا غاية الاجتهاد فى الاقتداء بهديه واتباع سبيله ، قيل لعبد الله بن عمر (٤) أدعُ لنا بدعوات فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا " فقالوا : لو زدتنا

١- البيان والتبيين ١/ ٢٠١
٢- العقد الفريد ٤/ ٦٦١
٣- العمدة ١/ ٢٤١
٤- البيان والتبيين ١/ ١٤٥

يا أبا عبد الرحمن ؟ قال :- نعوذ بالله من الاسهاب . وقال : آخر أعوذ بالله من الاسهاب قيل ما الاسهاب :- قال المسهب الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقر ويشول به شولان الروق "(١)

والاكثار والاسهاب والتطويل قد ينم على قلة الاكتراث بالكلمة، وقد يدل على عدم المبالاة بالقول. ولقد كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس إحساسا بقيمة الكلمة فكان يزن الكلام وزنا، وهو المدرب على الشعور بالمسئولية، والقيام بها، وهو الذى يعلم أن العين تزنى وزناها النظر وأن اللسان يزنى وزناه المنطق وهو الذى يعلم أن الانسان مسئول عن ألفاظه وكلماته (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)(٢) لذلك كان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل يعده العاد ليس بهذر مسرع لا يحفظ، ولا منقطع تتخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هدية فيه أكمل الهدى ؟ قالت عائشة "ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بينه، فصل، يحفظه من جلس إليه وكان كثيرا ما يعيد الكلام ثلاثا ليعقل عنه وكان إذا سلم سلم ثلاثا، وكان طويل السكوت لا يتكلم فى غيره حاجة

١- العقد الفريد ٤/١٥٦

٢- سورة ق آية ١٨

يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصل، لا فضول ولا تقصير وكان يتكلم فيما يعنيه و لا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه وإذا كره الشيء عرف في وجهه ولم يكن فاحشًا و لا متفحشًا ولا صخابًا "(١)

ولهذا وغير هذا جاءت أحاديثه غاية في الايجاز وآية في البلاغة وقمة في البيان تأخذ بالقلوب وتسبي الأرواح وكانت روضة من رياض الجنة وثمرة من ثمار الخلد وينبوعًا من ينابيع الحكمة قال تعالى " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما "(٢)

ولهذه الصفة البارزة في أحاديثه صلى الله عليه وسلم نجد أن كثيرًا منها قد خرج مخرج الأمثال وجرى مجراها ونحن نعلم أن الايجاز شرط من الشروط المتقدمة في المثل إذ المثل يعتمد على الصياغة المركّزة التي تلخص المعنى تلخيصًا وتدعه مركوزًا في الذهن ثابتًا في الذاكرة ماثلاً في الخيال سهلاً حفظه واسترجاعه والاستشهاد به في المناسبات المتباينة والمقامات المختلفة . قال صاحب العمدة " المثل السائر في كلام العرب كثير نظما ونثرا وأفضله أوجزه وأحكمه أصدقه

١- زاد المعاد في هدى خير العباد - ابن قيم الجوزية ١ / ٤٦
٢- سورة النساء آية ١١٣

وقولهم مثل شرود وشارد أى سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذى لا يكاد يعرض له ولا يرد"(١)

والأحاديث التى دارت فى الآفاق وسارت بها الركبان وصارت مثلا سائرا شرودا كثيرة فى أحاديثه صلى الله عليه وسلم نجتزئ بعضها ما روته كتب الأحاديث والأدب : سمع أعرابى دندنة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل بالقراءة؛ والدندنة والهينمة والترنم كلها بمعنى واحد وهو الصوت الخفى .فقال الأعرابى للرسول صلى الله عليه وسلم: أما أنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، ولكنى أريد الجنة. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى بلاغة ولباقة وإيجاز معجز :" حولها ندندن " وأسر الرسول صلى الله عليه وسلم أبا عزة الشاعر الجمحى فى غزوة بدر فقال أبو عزة إننى رجل فقير ذو عيال وحاجة عرفتها فامنن على فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم على ألا يظاهر عليه أحدا فعاهده فاطلقه فقال :-

ألا أبلغا عنى النبى محمدا فإنك حق والمليك حميدُ
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله الكريم شهيدُ

١- العمدة - ابن رشيق ١/ ٢٨٠

وأنت امرؤ بوّئت فينا مباءة لها درجات سهلة وصعود

وإنك من حاربته لمحارب شقيّ ومن سالمته لسعيد

ولكن اذا ذكرت بدرا وأهلها تأوب منى حسرة وعمود

فلمّا كان يوم أحد ، دعاه صفوان بن أمية بن خلف الجمحي وهو سيدهم - الى الخروج ، فقال : إن محمّدا قد منّ على وعاهدته ألاّ أعين عليه . فلم يزل به ، وكان محتاجا ، فأطعمه ، والمحتاج يطمع . فخرج وسار فى بنى كنانه يحرضهم ويؤلب على النبى :-

أبا عبد مناف الرزام أنتم حماة وأبوكم حام

لا تعدونى نصركم بعد العام و لا تسلمونى لا يحل إسلام

فأسر يوم أحد ، فشكا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقرا وعيلة ، قال يا رسول الله من علىّ . فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) (١) ومن رواياته لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمدا مرتين " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين " فطارت قولته البليغة فى الآفاق يستشهد بها فى كثير من المواقف التى لا يصح أن يعود إليها الانسان ثانية ، إذا أتته اذية من جهة .

والاحاديث التى تنحو هذا النحو، ويستشهد بها فى كثير من المواقف كثيرة اهتم بها الاوائل من علماء اللغة والأدب والحديث وجمعوها فنجد ابن عبد ربه، عندما يتحدث عن الامثال، فى كتابه العقد الفريد ، اول ما يبدأ به أمثال رسول الله (ص) ثم أمثال العلماء ، ثم أمثال العرب من أمثال العامة ثمّ الأمثال التى استعملها الشعراء فى أشعارهم فى الجاهلية والاسلام. (٢)

١- جمهرة الامثال - ابو هلال العسكرى ٦٤، القاهرة ج٢/ ٣٨٦

(٢) انظر العقد الفريد ٣/ ٦٣

كما أن الثعالبي

جمعها في باب سماه " جوامع الكلم عن النبي صلى الله عليه وسلم [١]

ومن أمثاله قوله صلى الله عليه وسلم: إنّ المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى " قاله حين ذكر الغلو في العبادة بمعنى أن المغذ في السير إذا أفرط في الاغذاذ عطبت راحلته من قبل أن يبلغ حاجته أو يقضي سفره فشبه ذلك من أفرط في العبادة حتى يبقى حسيرا فصارت مثلا يضرب لكل من أفرط في أي أمر كان . ومنها قوله (الحرب خدعة) [٢] يريد أنها المكر والخديعة . وقوله حين ذكر الدنيا وزينتها فقال (إنّ مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم) [٣] والحبط كما ذكره أبو عبيد عن الاصمعي أن تأكل الدّابة منه حتى تنتفخ بطنها وتمرض منه ، يقال حبطت الدّابة تحبط حبطًا ، وقوله أو يلمّ معناه أو يقرب من ذلك . ومنه قوله إذا ذكر أهل الجنة فقال إنّ أحدهم اذا نظر الى ما اعد الله له في الجنة فلو لا أنه شيء قضاه الله له لا لمّ أن يذهب بصره . [٤] ومنها قوله لأبي سفيان أنت يا أبا سفيان كما قيل " كل الصيّد في جوف الفرا . ومعناه: إنك في الرّجال كالفرا في الصّيد ، والمثل قديم

---

١ - الايجاز والاعجاز دار صعب بيروت ص ١٦
٢ - هدية الباري ١/ ٢٢٣
٣ - هداية الباري ١/ ١٤١
٤ - جمهرة الأمثال ج ١/ ص ١٦ .

وأصله أن قوما خرجوا للصيد فصاد أحدهم ظبيا والآخر أرنبا والآخر فرأ وهو الحمار الوحشي فقال لأصحابه " كل الصيد في جوف الفرا " أي جميع ما صدتموه يسير في جنب ما صدته . وتمثّل به الرسول صلى الله عليه وسلم قال أبو هلال العسكري: " أخبرنا أبو أحمد ، عن ابن الانباري عن اسماعيل بن اسحاق عن علىّ المديني عن سفيان عن وائل بن داود عن نصر بن عاصم قال أخّر أبو سفيان في الاذن فقال يا رسول الله كدت تأذن لحجارة الجلهتين قبلي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك وذلك يا أبا سفيان كما قيل أو كما قال الاول (كلّ الصيد في جوف الفرا). قال الشيخ رحمه الله ولم يسمع بجلهة الا في هذا الحديث وإنما هو جلهة الوادي يعني وسطه " أهـ (١) فصار مثلا يضرب لمن يفضّل على أقرانه ويقدّم على نظرائه . إلا أن الجلهة هي ناحية الوادي وطرفة ولو كان وسطه لما صحّ قول لبيد

فَعَلا فروعُ الايهقانِ وأطفلتْ ... بالجلهتين ظباؤها ونَعامُها (٢)

ومن ذلك قوله " الارواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما

١- جمهرة الأمثال - ٢/ ١٦

٢- ديوان لبيد دار صادر ١٩٦٦ بيروت ص ١٦٤

تنافر منها اختلف)(١) وقوله ليس الشديد بالصرعة " وقوله ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) وقوله "لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب)(٢) وقوله الصمت حكم " وقليل فاعله) وقوله (العبد حر إذا قنع والحر عبد اذا طمع) وقوله (المتشبع بما لم يعط كلا بس ثوبى زور) وقوله (حمى الوطيس) أى اشتد الامر وقوله (اعقلها وتوكّل) وقوله (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) الى غير ذلك من الكلام الجامع البليغ الذى تثبت الايام صدقه ونفاذه يوما بعد يوم وساعة اثر ساعة .

ولقد جاءت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جامعة نافذة مانعة تعالج القضايا الكبيرة الضخمة فى الالفاظ القليلة المشرقة وهذا مما ساعد الفقهاء وساعد العلماء وأعانهم على وضع القواعد الدينية والاسس التشريعيه والنظريات الفقهية وكثير من الاصول التى تندرج تحتها الفروع فالامام تاج الدين بن عطاء لما تكلم على حديث (اتقوا اللهْ واجملوا فى الطلب) ذكر أن فيه عشرة أوجه ما حاصله أنه ليس القصد الحصر بل الامر أوسع من ذلك لأنه كلام صاحب الأنوار المحمدية فلا يأخذ/ الآخذ منه إلاّ على

١- هداية البارى ١/ ١٨٦
٢- هداية البارى ٢/ ٢٠٢

حسب نوره و لا يحصل من جواهر بحره إلا على قدر غوصه وكلّ يفهم على حسب المقام الذى أقيم فيه بماء واحد ويفضل بعضها على بعض فى الأكل وما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا وقد قال عليه السلام أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا فلو عبر العلماء أبد الآباد عن أسرار الكلمة الواحدة من كلامه لم يحيطوا بها علما ولم يقدروا لها فهما حتى قال بعضهم عملت بحديث واحد سبعين عاما وما فرغت منه وهو قوله صلى الله عليه وسلم (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه) وصدق رضى الله عنه ولو مكث عمر الدنيا أجمع وأبد الآباد لم يفرغ من حقوق هذا الحديث وما أودع فيه من غرائب العلوم وأسرار الفهوم " أهـ (١)

وفى هذا الذى قلناه : ينقل الاستاذ سعيد حوى قولا للعقاد بهذا المعنى ونورده هنا لما فيه من التحليل الجيّد :-

" ومن أمثلة الكلام الجامع للمعانى الكبار فى الكلمات القصار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله (كما تكونوا يولّ عليكم) فأىّ قاعدة من القواعد الاصلية فى سياسة الأمم لا ينطوى بين هذه الكلمات :-

ينطوى فيها أن الامم مسئولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة

١- زاد المسلم ١/ ٢

ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه والاكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه .

ويتناول فيها العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تمثلها الحكومة . فلا سبيل الى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين و لا سبيل الى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

ويتناول فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل فلا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأحرى ألا يغيّر الوالى قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

ويتناول فيها أن الامة مصدر السلطات على حدّ تعبير الحديث ويتناول فيها أن الامة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال وذلك هو الابلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نفاذ .

ويختم العقاد كلامه فى هذا الموضوع بقوله :- وأمثال هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الاحصاء فى هذا المقام . كان محمد فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الاداء وكان بليغا على أساس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين بل قدوة المرسلين "(١) وحديثه المختصر الموجز (انما الاعمال

بالنيات) أجمع المسلمون على عظم موقعه وكثرة فوائده حتى أن بعضهم جعله فاتحة كتابه . قال الشافعى وآخرون : هو ثلث الاسلام وقال الشافعى يدخل فى سبعين باباً من الفقه وقال آخرون هو ربع الاسلام . وقال عبد الرحمن بن مهدى وغيره ينبغى لمن صنف كتاباً أن يبدأ بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية . ونقل الخطابى هذا عن الائمة مطلقاً وقد فعل ذلك البخارى وغيره فابتدأوا به قبل كل شىء ، وذكره البخارى فى ستة مواضع من كتابه فأخرجه فى كتاب كيف كان بدء الوحى ، وفى كتاب الايمان ، فى باب ما جاء أن الاعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى ، وفى كتاب الرهن فى الحضر ، وقوله عز وجل : فرهان مقبوضة وفى باب الخطأ والنسيان . فى العتاق والطلاق ونحوه وفى مناقب الأنصار وفى باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة ، وفى كتاب النكاح ، فى باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوى وفى كتاب الايمان (بفتح الهمزة) فى باب النية فى الايمان . وذكره مسلم فى كتاب الامارة فى باب قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الاعمال . ولقد شرح الامام النووى (١) وابن حجر وابن حزم (٢) وغيرهم هذا الحديث شرحاً وافياً .

ومما استنبط من أحكامه قالوا فيه دليل على أن الطهارة وسائر

١- انظر زاد المسلم ١/ ٧

٢- انظر الباب الثانى والثلاثين من كتابة الاحكام فى أصول الاحكام طبعة الامام بمصر ٥٠٢/٧

الوضوء والغسل والتيمم لا تصح الا بالنيّة وكذلك الصلاة والزكاة والصوم والحج والاعتكاف وسائر العبادات . وتدخل النيّة فى الطلاق والعتاق والقذف ومعنى دخولها أنها اذا قارنت كناية صارت كالصريح وان أتى بصريح طلاق ونوى طلقتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى نذكر منها قوله لا ضرر ولا ضرار ، وقوله كل شراب أسكر فهو حرام ،[1] وقوله الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشبهات ،[2] وقوله كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد ،[3] وقوله شر الأمور محدثاتها[4] وغير ذلك كثير من أحاديث القواعد الأصوليّة . وخلاصة الأمر أن أحاديث الرسول الموجزة المعجزة كانت موردًا عذبًا ونبعًا فياضًا للعلماء والفقهاء نهلوا منها واغترفوا على قدر طاقتهم فوضعوا لنا الأسس والنظريات فى كل علم .

١- هداية البارى ٢/ ٧ .
٢- هداية البارى ١/ ٢٢٤ .
٣- رياض الصالحين ٦٦ .
٤- رياض الصالحين ٦٦ .

الفصل الثالث

الحوار

لقد ذكر القرآن مهمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الأساسية بصراحة اذ يقول (هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة) (١) فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول التربية والتعليم ، تعليم الكتاب والحكمة وتربية الانفس عليهما وكان الجانب الاعظم من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مستغرقاً بهذا الجانب اذ أنه الجانب الذى ينبع عنه كل خير ولا يستقيم أى جانب من جوانب الحياة الا به .

ولتحقيق هذه الغاية اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم أساليب عدة، وسلك طرقا شتى . أجاد استعمالها فآتت أكلها باذن ربها فمن الأساليب التى اتبعها صلى الله عليه وسلم، أسلوب التحاور والتشاور والمراجعة والسؤال والجواب والأخذ والرد . فعلّمهم صلى الله عليه وسلم وعوّدهم أن يسألوا عما يبدو لهم ويستفسروا عما غمض عليهم وحثّهم على طلب العلم حثّاً وحذّرهم من الاستحياء والاستعلاء والتكبّر في طلب العلم فكثيراً ما كان يتيح لهم الفرصة ليسالوا ويجيب على أسئلتهم .

فمن ذلك حديث طلحة بن عبد الله قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس تسمع دويّ صوته ولا تفقه

١- سورة الجمعة آية .

ما يقول حتى دنا فاذا هو يسأل عن الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس صلوات فى اليوم والليلة . قال : هل علىّ غيرها ؟ قال لا إلاّ أن تطّوع ، وصيام رمضان ، قال : هل علىّ غيره ؟ قال لا إلاّ أن تطّوع وذكر له الزكاة فقال هل علىّ غيرها قال لا إلا أن تطوع . قال فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا و لا أنقص . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح إن صدق (١)

فهو صلى الله عليه وسلم يصغى لأسئلتهم ويوليها اهتماما متزايدًا ويرد عليها ردًا موجزًا قاطعًا لا يلقى أى ظلال تفتح الباب لاحتمالات أخرى كما أنه يراعى ظروف السائل فلا يثقل عليه بخصوص مفصّل لواجبات المسلم وأصول الاسلام ولكنه يكتفى بأهمّ الاصول التى من شأنها إذا ما تمسك بها أن تفتح عليه أبواب الأصول الأخرى ولذلك جاءت إشارته صلى الله عليه وسلم فى خاتمة حديثه بذلك " أفلح ان صدق " معنى هذا أن الرجل إذا صدق وقام على هذه الأركان لا بدّ أن ينشرح صدره لبقية الاركان

وفى أحوال كثيرة لا ينتظرهم الرسول حتى يبادر أحدهم فيسأل عما يريد أن يسال ويستوضح ما يود بل يبدأهم الرسول ويبدههم قائلاً : ألا أخبركم بكذا ، ألا أحدثكم بكذا وكذا فيقولون : بلى فيقول كذا .

~~٢ سورة الجمعة آية ٢~~

١= اخرجه الشيخان فى كتاب الايمان . البخارى فى باب الزكاة من الايمان ومسلم فى باب بيان الصلوات التى احد اركان الاسلام

وكذا . وألا هذه من أغراضها التى تستعمل فيها ،العرض والتحضيض ومعناها طلب الشيء ولكن العرض طلب بلين والتحضيض طلب بحث ومن ذلك قوله تعالى (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) (١) ومنه قول الخليل (٢)

ألا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبيت

فالحث والتحضيض ظاهر فى الاية الكريمة وبيت الخليل .

والأمثلة على ذلك من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة فمن ذلك قوله (ألا أحدثكم بما ان أخذتم به أدركتم من سبقكم ولم يدركم أحد بعدكم وكنتم خير من انتم بين ظهرانيهم الا من عمل مثله ،تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين) (٣)

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (الا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا : قلنا بلى يا رسول الله قال وكان متكئا فجلس فقال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين ،الا وقول الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلت لا يسكت (٤)

ومن ذلك قوله لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه :-

١- سورة التوبة آية ١٢
٢- مغنى اللبيب - ابن هشام - بيروت تحقيق محمد محى الدين جـ ١/ ٦٨
٣- زاد المسلم جـ ١/ ١٩١
٤- اخرجه مسلم عن أبى بكرة فى باب بيان كون الشرك اقبح الذنوب

(ألا أدلك على كلمة من كنز الجنّة ؟ قلت بلى ، قال : لا حول ولا قوة الا بالله) (١)

وقد يعمد الرسول إلى استعمال جمل تستدعى الاستفسار من أصحابه وتحتاج الى شرح منه وهو أسلوب فنى رائع يثير الاهتمام ويستدعى الانتباه ويساعد على رسوخ المعانى واستقرارها فى الذهن فمن ذلك ما يروى عنه أنه مرّ عليه بجنازة فقال (مستريح او مستراح منه) فأثار ذلك القول فضول أصحابه فقالوا مستفسرين يا رسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ فقال : العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها الى رحمة الله عز وجل ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب " (٢)

والإشارة واضحة جلية فى قوله (من الكبائر شتم الرجل والديه) (٣) والصحابة رضوان الله عليهم علموا وتعلموا منه حق الوالدين من تعظيم وإحسان إليهما فكانت جملته هذه مثار دهشة وموضع تساؤل فقالوا يا رسول الله : هل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم : يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أم الرجل فيسب أمه) .

١- اخرجه البخارى فى كتاب الدعوات فى باب لا حولة ولا قوة الا بالله كما أخرجه مسلم فى كتاب الذكر فى باب استحباب خفض الصوت

٢- زاد المسلم جـ ٣ / ٤

٣- زاد المسلم جـ ٣ / ٢٠

فهم استبعدوا ذلك لان الطبع المستقيم يأباه فبيّن عليه الصلاة والسلام في الجواب أنه وإن لم يتعاط السبّ بنفسه في الغالب، لكن قد يقع منه .

وسألهم مرة قائلا (ما تعدون الرّقوب فيكم ؟ قالوا الذى لا يولد له ، قال ليس ذاك بالرّقوب ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا . قال فما تعدون الصرعة فيكم قالوا الذى لا تصرعة الرجال . قال ليس بذلك ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب(١)

وسألهم مرة أخرى قائلا (أتدرون من المفلس ؟ فقالوا المفلس من لا مال عنده ولا متاع فقال الرسول ليس ذلك بالمفلس أنما المفلس هو من يأتى يوم القيامة وقد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا فيعطى هؤلاء من حسناته حتى إذا نفدت طرح عليه من خطاياهم ثم طرح في النّار .

عمد الرسول إلى ألفاظ تعارف الناس على معانيها وشاعت عندهم فسألهم عنها وجاء ردّهم بالمعلوم والمتعارف عليه ولكنه لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين المعنى في الشرع قال : لا . فهذا النفي فيه تهيئة لمعرفة ذلك . والرّقوب . في اللّغة هو الرجل أو المراة اذا لم يعش لهما ولد لأنّه يرقب موته ويرصده فنقله الرسول عن طريق

١- رواه مسلم في كتاب البر والبخارى في الادب والنسائي ومالك في حسن الخلق

الحوار الى الذى لم يقدم من الولد شيئا تعريفًا بأن الأجر والثواب لمن قدّم شيئا من الولد وأن الاعتداد به أكثر والنفع فيه أعظم ، ولم ينقله إبطالا لتفسيره اللغوى .

كما أن الصرعة هو المبالغ فى الصراع الذى لا يغلب فنقله صلى الله عليه وسلم عن طريق الحوار والاشارة الذى يملك نفسه عند الغضب ويقهرها لانه بذلك يكون قد قهر أقوى أعدائه وشر خصومة (١)

والافلاس معناه الشائع وهو ما أجاب به الصحابة وما يتعارفه الناس فى كل مكان .ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء للمؤمنين بمعنى آخر وهو الافلاس من القيم العلياء من الخلق والدين فالمفلس من يخسر نفسه ولو ملأت أمواله خزائن الأرض . وفى هذا يقول عيسى صلوات الله عليه (ماذا يفيدك أن تربح الدنيا اذا خسرت نفسك)(٢) ويقول تعالى (قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين)(٣)

أما خسران المال فهو من أول درجات سلم الخسارات للصحة والكرامة والحياة والدين .

١- عمدة القارى -بدر الدين العينى ج ٢٢/ ١٦٣
٢- أدب الحديث النبوى بكرى شيخ أمين ١٩٧
٣- سورة الزمر ١٥

وكان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام فى تحاوره ومخاطبته لأصحابة شديد الحرص على الأخذ بأيديهم والرحمة بهم والرأفة عليهم محققاً بذلك قول اللّــه تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريــص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (١) فلم يكن فظّــاً غليــظ القلـب ولم يكن جافياً فحّاشــاً بل كان رحيمًا ودوداً مخفوض الدفّ والجناح لعباد الله المؤمنين وكان من شــأنه إذا كره شـيئاً من سلوك أصحابه أو أنكر بعض ما يأتون، لجــأ الى التلميح ونـأى عن التصريح ووجّــه توجيهــا عامــا لا يذكر فيه اسـما ولا لقبـا ولا كنيــة خشــية أن يشــــعر المســمى بشىء من الضيــق والحرج أو يناله نصيب من التشهير والتجريح

روى الشـيخان عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكنى أصلى وأنام وأصــوم وأفطـر وأتزوج النسـاء فمن رغب عن ســنتى فليس منى) (٢)

وكان ذلك ردّاً على أشخاص قالوا :-

وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حيث سـألوا عن عبادته صلى الله عليه وسلم فاخــــبروا بها وكأنهم تقالوها فقال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا. وقال آخر أنا : أصوم الدّهــر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فـــــلا

١- سـورة التوبة آية ١٢٨
٢- زاد المسلم جـ ٣ / ٢٢٢

أتزوج أبداً ، وهم على بن أبى طالب وعبد الله بن عمر بن العاص وعثمان بن مظعون ، فلما أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم ما ذكر ذكروا اليه كراهيته ولم يعيّن فاعله وهذا من عظيم خلقه فإنّ المقصود بذلك الشخص وجميع الحاضرين وغيرهم ممن يبلغه ذلك .

وجاء فى الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم (ما بال (١) العامل نبعثه فيأتى فيقول هذا لك وهذا لى فهلاّ جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا . والذى نفسى بيده لا يأتى بشىء الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيرًا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى ابطيه وقال : ألاهل بلغت؟)

وسبب هذا الحديث كما فى الصحيحين عن رواية أبى حميد الساعدىّ قال :ـ استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً من بنى أسد يقال له ابن الاتبية على صدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى لى فقام النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال العامل نبعثه فياتى فيقول هذا لك هذا لى الخ الحديث وقوله ابن الاتبيه هو بضم الهمزة وفتح التاء وسكونها وكسر الباء وتشديد الياء قيل هو اسم امه . وقال النووى والصواب اللتبيه نسبة الى بنى لتب قبيلة معروفة واسمه عبد الله

١- زاد المسلم ٢/٢٢٠

الفصل الرابع

التكـــــــرار

التكرار أو التكرير دلالة اللفظ على المعنى مردداً لتأكيد غرض من أغراض الكلام أو للمبالغة فيه ، وهو مما يعين على بث الفكرة في النفوس واقرارها في القلوب فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً ينتهي بقبوله حقيقة ناصعة .

والتأكيد قد يكون بتكرار السابق بلفظه اسما كان أو فعلا أو اسم فعل أو حرف أو جملة كما ترى ذلك في قوله تعالى :" كلا اذا دكت الارض دكا دكا "(١) وقوله (فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا)(٢) وقوله سبحانه (هيهات هيهات لما توعدون)(٣) وقوله (أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون)(٤) وقوله (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا)(٥) وكثيرا ما تقترن الجملة الثانية بثمّ كما في قوله تعالى :-

(وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين)(٦) .

ومن أغراض التكرار التنويه بالممدوح والاشادة بذكره والتفخيم

١- الفجر ٢١
٢- الطارق ١٧
٣- المؤمنون ٣٦
٤- المؤمنون ٣٥
٥- الشرح ٥ - ٦
٦- الانفطار ١٧ - ١٨

فى القلوب والاسماع مثال ذلك فى القرآن قوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم)(١) ومثاله من الشعر العربى قول الخنساء (٢)

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

وإن صخرًا لمولانا وسيدنا ... وإن صخرًا إذا نشتو لنحّارُ

وقد يأتى التكرار للوعيد والتهديد كقوله تعالى :-

(الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة)(٣)

ومن ذلك قول الأعشى ليزيد بن مسهر الشيبانى (٤)

أبا ثابت لا تعلقنك رماحنا

أبا ثابت أقصر وعرضك سالم

وذرنا وقومًا إن هم عمدوا لنا

أبا ثابت واقعد فإنك طاعم

وفى سورة المرسلات كررت تلك الجملة المنذرة وهى قوله تعالى (ويل يومئذ للمكذبين. والسورة تتحدث عن وقوع اليوم الآخر وتصفه فجاء الانذار مكررًا عقب كل وصف له أو فعل يقع فيه أو عمل من الله يدلّ على قدرة يحيى بها الناس بعد موتهم ، وفى هذا

١- سورة الواقعة / ١٠

٢- العمدة ٢/ ٧٥

٣- (- ٣) سورة الحاقة

٤- العمدة ٢/ ٧٥

التكرار ما يوحي بالرهبة ويملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب .

وقد يقع التكرار للتقرير والتوبيخ والقرآن يكرر في سورة الرحمن نيفاً وثلاثين مرة قوله تعالى (فبأيّ آلاء ربكما تكذبان) متسائلاً عما يستطيع أن ينكره الجن والانس مما أولاهما من نعم فضل في هذا السؤال المتكرر ما يشير في نفس سامعيه اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم تكررت وآلاء توالت(١)

وذلك أنه عدد في هذه السورة نعماءه وأذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرها وقدرته عليها وجعلها فاصلة بين كل نعمة ليعرف موضع ما أسداه اليهم فحسن التكرير للتقرير بالنعم المختلفة المتعددة فلما ذكر نعمة قرر عليها ووبخ على التكذيب بها وبكت على من أنكرها (١)

وقد يأتي التكرار على وجه التوجع نحو قول متمم بن نويرة(٣)

وقالوا أتبكي كلّ قبرٍ رأيته * لقبرٍ ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم إنّ الأسى يبعثُ الأسى * دعوني فهذا كله قبر مالك

ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة وشدّة التوضيح بالمهجو كقول ذي الرّمة يهجو المرئي :-(٤)

١- من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوي ١٩٥٠ مصر ص ١٥٣
٢- الصناعتين / ١٨٥
٣- العمدة ٢/ ٧٦
٤- المرجع السابق نفسه

تسمى امرأ القيس بن سعد اذا اعترت
وتأبى السبال الصهب والآنف الحمر

ولكنما أهل امرئ القيس معشر
يحل لهم لحم الخنازير والخمر

نصاب امرئ القيس العبيد وأرضهم
محل المساحي لا فلاة ولا مصر

تخطى الى الفقراء امرؤ القيس انه
سواء على الضيف امرؤ القيس والفقر

تهب امرؤ القيس القرى أن تناله
وتأبى مقاربها إذا طلع الفجر

هل الناس الا يا امرأ القيس غادر
ووافٍ ، وما فيكم وفاء ولا غدر ؛

ويقع التكرار أيضا على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص ،
كقول حماد عجرد لابن نوح وكان يتعرّب :- (١)

يا ابن نوح يا أخا الحلس ويا ابن القتب
ومن نشأ والده بين الغرّبا والكتب

يا عربي يا عربي يا عربي يا عربي

١- العمدة ٢/٧٦

والتكرار يعد ضرباً من ضروب التربية والتعليم ولهذا كان من هديه صلى الله عليه وسلم اعادة الحديث ثلاث مرات أحيانا ليفهم عنه وذلك لاختلاف القرائح وتباين المدارك ، اذ أن قدرة الناس على الفهم تختلف واستعدادهم للاستيعاب يتباين ، فقد روى أنس أنه كان صلى الله عليه وسلم اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه واذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم ثلاثا (١)

فقد يكرر الرسول صلى الله عليه وسلم الكلام المهم توكيداً له ليحفظ وليكون أبلغ فمن ذلك ما رواه أنس أنه صلى الله عليه وسلم مر بجنازة فأثنى عليها خيرا فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم وجبت وجبت وجبت ومر بجنازة فأثنى عليها شرا فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم وجبت وجبت وجبت فقال عمر رضي الله عنه فداء أبي وأمي مر بجنازة فأثني عليها خيرا فقلت وجبت وجبت وجبت ومر بجنازة فأثني عليها شرا فقلت وجبت وجبت وجبت " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة . ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار . أنتم شهداء الله في الارض أنتم شهداء الله في الارض أنتم شهداء الله في الارض () (٢)

١- أخرجه البخاري في كتابه العلم باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه
٢- زاد المسلم ٢/ ٣٢

وقد يكرر الكلام إنذارا للشيء وترغيبًا عنه ونهيا عنه وإبعادا منه ، جاء في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله الى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم ، قال : فلما غشيناه ، قال : لا اله الا الله ، قال فكفّ عنه الانصارى فطعنته برمحى حتى قتلته قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبى فقال يا أسامه أقتلته بعد أن قال لا اله الا الله ؟ قال : فقلت يا رسول الله انّما كان متعوذا قال : أقتلته بعد أن قال لا اله الاّ الله ، فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم (١)

ومن ذلك الباب أن معاذا بن جبل كان يصلى مع النبى ثم يأتى قومه فيصلى بهم الصلاة فقرأ بهم البقرة فتجوّز رجل فصلى صلاة خفيفة فبلغ ذلك معاذا فقال إنه منافق فبلغ ذلك الرجل، فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنّا قوم نعمل بأيدينا ونسقى بنواضحنا وإن معاذ صلى بنا البارحة فقرأ البقره فتجوّزت فزعم أنى منافق/فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا معاذ :- أفتان أنت أفتان أنت أفتان أنت اقرأ والشمس وضحاها

١- زاد المسلم ٤/ ١٧١

وسبح اسم ربك الأعلى ونحوهما .

ومن ذلك أن بلالاً أتى الرسول صلى الله عليه وسلم بتمر برنى فقال الرسول صلى الله عليه وسلم من أين هذا قال بلال كان عندى تمر ردئ فبعت منه صاعين بصاع ليطعم صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم عند ذلك أوّه أوّه عين الربا عين الربا(١) لا تفعل لكن اذا اردت بيع التمر ببيع آخر ثم اشتر به . فجاء التكرار استنكارا وتوبيخا ونهيًا .

ويروى أبو بكرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (ألا انبئكم بأكبر الكبائر ؟ وكرر السؤال ثلاثا . قالوا بلى يا رسول الله ، قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين قال وجلس وكان متكئا فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يرددها حتى قلنا ليته يسكت)(٢) فجلوسه بعد أن كان متكئًا وتكراره يشعر بالاهتمام بالزور وتأكيد حرمته وتعظيم شأنه وذلك لسهولة وقوعه والتهاون بأمره وتعدى ضرره وتطاير شرره .

ومن باب التكرار أيضا ما يرويه أبو ذر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة قال قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق

١- انظر هذا البحث ص ٢٠

٢- اخرجه البخارى فى كتاب الشهادات باب ما قيل فى شهادة الزور

قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وان زنى وان سرق قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر) (١)

فتكرير أبي ذر كان استعظاماً لشأن دخول الجنة مع اقتراف الكبائر وتكريره صلى الله عليه وسلم ذلك لانكاره واستعظامه وتحجيره رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء .

وقد يكرر الرسول الكلام إعجابا بالشيء وترغيباً فيه وحثاً عليه جاء في الصحيحين أن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه كان أكثر الأنصار مالا وكان له بستان فيه نخل وماء يقال له بيرحاء فلما نزلت آية (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحة فقال يا رسول الله ان أحب أموالي بيرحاء وهي صدقة لله تعالى فضعها حيث شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رابح/ بخ ذلك مال رابح (٢) وذلك التكرار إعجابا منه بما فعل أبو طلحة .

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم للانصار (اللهم انتم من أحب الناس الي ، اللهم انتم من أحب الناس الي ، اللهم

١- هداية الباري ١١٩/٢

١- انظر هذا البحث ص١٤

٣- رواه البخاري في كتاب المناقب باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للانصار انتم أحب الناس الي

انتم من أحب الناس الى"

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " ربح البيع يا صهيب ربح البيع يا صهيب" (١) وقصة الحديث أنه لما هاجر صهيب بن سنان تبعه نفر من المشركين فسئل فقال يا معشر قريش إنى من أرماكم و لا تصلون الى حتى أرميكم بكل سهم معى ثم أضربكم بسيفى/ كنتم تريدون مالى دللتكم عليه. فرضوا فعاهدهم ودلهم فرجعوا فأخذوا ماله فلما جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وآله وسلم قال له ربح البيع .... الخ فانزل الله عز وجل (ومن الناس من يشرون نفسه ابتغاء مرضاة الله) (٣)

ويقال أن من تبع صهيبا وأدركه هو منقذ بن عمير بن جدعان (٤)

١- رواه البخارى فى كتاب المناقب باب قول النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار انتم أحب الناس الى
٢- الاصابة جـ ٢ / ١٨٨ ترجمة صهيب
٣- سورة البقرة آية ٢٠٧
٤- تفسير الطبرى طبعة ١٤٠٥ مصر ١٠ / ٣٢١

الفصل الخامس

أستعانته بالاشـــارة : -

مما استعان به الرسول صلى الله عليه وسلم فى تثبيـــت

المعانى وتوضيح الحديث الحركة والفعل أى الاشارة . وقد جعلها

الجاحظ من أصناف الدلالات على المعانى إذ جعلها خمسة أشـــياء

لا تنقص ولا تزيد أولها اللفظ ثم الاشـــارة ثم العقد (ويقصد بـه

ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين) ثم الحال التى تسمى نصبـــة

وهى الحال الدّالة التى تقوم مقام تلك الاصناف ولا تقـصر عن تلـــك

الدلالات (١)

فنرى الجاحظ يضع الاشـارة بعد اللفظ مباشرة ويقـول

(الاشـارة واللفظ شـريكان ونعم العون هى له ونعم الترجمان هـــى

عنه) وقد تنـوب عن اللفظ وتغنى عن الخط (٢)

فالاشـارة تساعد المتحدث لتوضيح حديثه مع اللفظ وقـــد

يكتفى بها للافهام دون اللفظ وقد تكون أبلغ فى توضيح ما يقصده وقديماً

قالوا " ربّ اشـارة أبلغ من عبارة " وقالوا أيضا (ربّ طرف أفصح مـــن

لسان) (٣)

فطن الرسول صلى الله عليه وسلم الى دور الاشارة فـى

١- البيان والتبيين ١/٧٦

٢- المصدر السابق نفســه

٣- مجمع الامثال - الميدانى ١٤٦١ بيروت ١/٤٢٧

تقريب المعانى فجعلها من أساليب بيانه فلّما أراد أن يعلم أصحابه التيمم ويوضح لهم أنه يسدّ مسدّ الوضوء ويقوم مقامه فى حالات خاصّة قال لعمّار بن ياسر فيما رواه الشيخان (انما يكفيك هذا وضرب بكفيه ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه)(١) فاكتفى بالاشارة دون اللفظ فى الافهام فكانت التجربة خيرا من ألف خبر وكانت الاشارة أبلغ من العبارة .

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (ان اللّه لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذّب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم . وان الميت يعذب ببكاء أهله عليه)

وفى مواطن أخرى كثيرة استعان بها وجعلها عونا للفظ فكان يؤكد المعانى ويوثقها ويقويها بالحركة والفعل فهو يقول (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ثمّ يشبك بين أصابعه) فكان ذلك بيانا منه بالفعل بعد بيان القول لان تشبيك الأصابع مع الشدّ يمثل صفة البنيان التى شبه بها أولا فكأنه قال يشدّ بعضهم بعضا مثل هذا الشدّ . فهو عندما أراد المبالغة فى أقواله مثلها بحركاته لتكون أوقع فى نفس السامع .

١- رواه البخارى فى كتاب التيمم باب التيمم ضربه ومسلم فى كتاب الحيض فى باب التيمم

٢- هداية البارى ص ١٠٥

ولمّا أراد أن يحضّ أصحابه على كثرة الانفاق على عباد الله في الحق، أتى باللفظ مصحوبًا بالحركة مقرونًا بالاشارة توكيداً للمعنى وذلك في حديثه (ما أحبّ أن أحدا لي ذهبا تأتي عليّ ليلة أو ثلاث عندي منه دينار لا أرصده لدين إلاّ أن أقول به في عباد الله هكذا و هكذا و هكذا مع الاشارة بيده الشريفة يمينا وشمالا وقدّاما (١)

ومن ذلك الباب قوله صلى الله عليه وسلم بعثت أنـا والساعة كهاتين (٢) وأشار بالسبابة والوسطى) وبإشارته تلك يرمي الى تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها .

ومن الاحاديث التي أكّد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم المعنى بالفعل والحركة الحديث الذي يرويه عنه رافع بن خديج رضي الله عنه (إنّ لهذه الابل أوابد كأوابد الوحش فإذا غلبكم منها شيء فافعلوا به هكذا . (٣) والأوابد جمع آبدة وهي التي قد تأبّدت أي توحّشت ونفرت من الأنس وقوله هكذا هو اشارة بيده الشريفة الى صفة الرمي لما شرد من البهائم المتوحشة .

واذا اراد صلوات الله وسلامه عليه تصوير هول يوم القيامة وما يصيب الناس فيه قال (ومنهم من يلجمه العرق الجاما ...... ووضع

١- زاد المسلم ج ٢ / ٧٠١
٢- زاد المسلم ١ / ١٢٨
٣- زاد المسلم ١ / ٨٣

يده على قبيه .

وإذا اراد صلى الله عليه وسلم تصوير خفة الذنب على قلب الفاجر قال (كذباب طار بأنفه فقال به هكذا) مع اشارة بيده الشريفه . وكان صلوات الله وسلامه عليه اذا تعجب قلب كفيه .

ويقول الجاحظ وفي الاشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة . (١)

وإشارته صلى الله عليه وسلم قد تكون بتغير وجهه فيدل ذلك على غضبه أو خوفه أو سروره وكان أصحابه يعرفون ذلك ومن ذلك ما رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر وخرج وتغير وجهه فاذا أمطرت سرى عنه فعرفته عائشة ذلك، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما أدرى لعله كما قال قوم فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم) (٢)

والمخيلة هي السحابة يخال بها المطر وتغير وجهه هنا خوفا أن يحصل منها ما فيه ضرر بأمته .

١- البيان والتبيين ١/٧٨

٢- رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ومسلم في كتاب صلاة العيدين باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم

وقريب من ذلك ما رواه الشيخان عن كعب بن مالك رضي الله عنه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة من قمر وكنّا نعرف منه ذلك) (١)

ومنه ما حكاه أبو مسعود الأنصاري (كان صلى الله عليه وسلم اذا أمرهم من الأعمال ما يطيقون قالوا إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله انّ الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول انّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا) (٢)

١- زاد المسلم ٤/ ٤٠٦

الفصل السادس
تأثره صلى الله عليه وسلم بالقرآن

=================

القرآن هو دستور الرسالة المحمدية الذي سار هو صلى الله عليه وسلم على هداه ووجّه أتباعه للاهتداء بهديه والاستمساك به والعض عليه بالنواجذ ، وكان طبيعيًّا أن يتأثر به قبل غيره وأن يلتزم به قبل أن يدعو غيره لذلك .

وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعالج من التنزيل شدة وكان من شدة حرصه على حفظ ما ينزل عليه يحرّك شفتيه أثناء نزول آية أو سورة حتى أن ابن عباس (١) قال " أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما وقال سعيد بن جبير أنا أحركهما كما رأيت ابن عبّاس يحركهما . فأنزل الله تعالى (لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثمّ إنّ علينا بيانه) (٢) وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فاذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه .

والنبي الكريم يرسم لنا طريقة نزول الوحي على قلبه فيقول :-

(أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عني وقد

١- زاد المسلم ٥/٦٨

٢- سورة القيامة ١٦ - ١٩

وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مـــا يقول) (١)

الرسول عليه صلوات الله وسلامه ، كان سيد الحفاظ وأول الجماع ، فكان حريصًا على حفظه واستظهاره كما كان يحث أصحابه على تلاوته وحفظه والمداومة عليه فهو القائل :- (لا حسد إلا فى اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) (٢)

ففى الحديث ترغيب فى التصدق بالمال وترغيب فى تعلــم العلم والاعتناء بكتاب الله وكثره تلاوته آناء الليل وأطراف النهــار

وفى حديث آخر (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثــل الاترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة/ ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القـــرآن كمثل الحنظله ليس لها ريح وطعمها مر) (٣)

١- صحيح البخارى ١/ ٦

٢- زاد المسلم ٥/ ٢٨٣

٣- زاد المسلم ٢/ ٢٨٦

فالحث على تلاوة القرآن بيّن والترغيب فيه واضح/ومنزلة المؤمن المداوم على تلاوته وفضله على غيره صريح إذ شبهه الرّسول صلى الله عليه وسلم بالاترجة التي هي ضرب من الفاكهة طيّب الطعم والرائحة وحسن المنظر ولين الملمس، تتوق إليه النفس قبل التناول ويفيد أكله بعد الالتذاذ بذوقه قال علقمة :-

يحملن أترجة نضخ العبير بها

كأن تطيابها في الأنف مشموم

وكان عليه الصلاة والسلام يحبّب لأصحابه تحسين الصّوت بقراءة القران وذلك لكونه أوقع في القلب وأشد تأثيرا وأرقّ لسامعه وإن لم يكن القارئ حسن الصوت فليحسنه ما استطاع دون تكلف ودون خروج عن التجويد المعتبر . وقد ورد في حديث له صلى الله عليه وسلم :-

(ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنّى بالقرآن) . وكان أصحابه رضوان الله عليهم يحسّنون أصواتهم بتجويد القرآن ومرة سمع النبي صلى الله عليه وسلم أبا موسى الاشعري يتلو القرآن فخاطبه قائلا (يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير داود . فقال : أما إني لو علمت بمكانك لحبّرته/لك تحبيرا) (١) أي حسنته وزينته لك بصوتي تزيينا .

١- صحيح البخاري - باب حسن الصوت

وفى الحثّ على تعهد القرآن بالتلاوة،يقول عليه أفضل الصلاة والسلام :(إنّما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت" والمعقّلة هي المشدودة بالعقال والتشديد فيه للتكثير فهو يشبّه حافظ القرآن على دراسته ودأبه على تلاوته بصاحب الابل المشدودة بالعقل خيفة الشراد فمن استذكره وتعاهده دام له الحفظ وإن لم يتعاهده ولم يداوم على تلاوته نسيه وذهب منه

وكما حثنا صلى الله عليه وسلّم على التلاوة والحفظ والمداومة حثنا أيضا على الحذق والجودة فقال (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) (١)

والماهر هو الحاذق فيه والمراد به جودة الحفظ مع جودة التلاوة من غير تردد، والسفرة جمع سافر ككاتب وكتبة فهو كاتب وزناً ومعنى، فالسفرة الكتبة الذين يكتبون من اللّوح المحفوظ وسمّى الكاتب سافرًا لأنّه يبين الشئ ويوضحه، والأسفار الكتب، ومع السفرة له معنيان الاول :- أن تكون له منازل فيكون فيها رفيقا للملائكة لأتصافه بصفاتهم من حمل كتاب الله تعالى والثانى : أن يكون المراد أنه عامل بعمل

١- زاد المسلم ٣/ ٢٧٦

السفرة وسالك مسلكهم .

فالرسول صلى الله عليه وسلم جعل القرآن هاديه ونبراسه فى حلّه وترحاله فى صلاته ونومه وصحوه،وفى حياته كلها . سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلقه فقالت :- " كان خلقه القرآن "

ومن تأثره به كان صلى الله عليه وسلّم،يستشهد به فى أحاديثه بل ويجعل تارة صدر حديثه آية أو آيات من كتاب الله ومرة يجعلها آخره .

روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (١):(إنّ الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد)(٢)

وهو القائل (٣) (يا أيها الناس،إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده إنّا كنا فاعلين)(٤) فتلى الاية الكريمة يستدل بها على ما تقدم من الحديث فسياق الآية دالّ على البعث على الهيئة التى كان بها بدء الخلق بأن يجمع الله تعالى أجزاءه المتبددة ويعيدها مثل ما بدأ خلقها أولا .

١- زاد المسلم ١/ ١٠٦
٢- سورة الانبياء / ١٠٤
٣- زاد المسلم ١/ ١٧٧
٤- سورة الانبياء / ١٠٤

وفى صدر حديث له يقول صلى الله عليه وسلم :-

" يوم يقوم الناس لرب العالمين " يقوم أحدهم فى رشحه الى أنصاف أذنيه) . (١)

فصدر هذا الحديث آية من كتاب الله لها وقع فى القلوب .

وقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قرأ سورة التطفيف حتى بلغ هذه الاية فبكى بكاء شديدًا ولم يقرأ بعدها لأنّ القيام لربّ العالمين أمر هائل تذوب منه القلوب كما دلّ عليها بتفسيره صلى الله عليه وسلم لهذا القيام ، فقال مفسّرًا له :- يقوم أحدهم فى رشحه - أى عرقه إلى أنصاف أذنيه .

كما أن الدّعاء عنده صلى الله عليه وسلم كان أغلبه من القرآن . وردفى كتاب الأدب المفرد (٢) عن شعبة قال : حدّثنا ثابت عن أنس أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء " ربنا آتنا فى الدّنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار) (٣)

وهذه آية من آيات الله البيّنات .

ولم تخل خطبه صلى الله عليه وسلم من القرآن فقد كان صلى الله

١- زاد المسلم ٤ / ٢٠٦

٢- الادب المفرد ١٠ / ٥٠٣

٣- سورة البقرة / ٢٠١

عليه وسلم يوشح خطبة بآيات القرآن الكريم مستشهدا أو مقترا، بل كان في بعض الأحيان يخطب بسورة كاملة . فقد روى عنه أنه قرأ يوم الجمعة براءة وهو قائم يذكر بأيام الله وأبو سعيد الخدرى يقول " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقرأ صلى الله عليه وسلم فلما مرّ بالسجدة نزل فسجد وسجدنا معه وقرأها مرة أخرى فلما بلغ السجدة تشزنا للسجود فلما رآنا قال : (انما هى توبة نبى ولكنى أراكم قد استعددتم للسجود فنزل وسجد وسجدنا) (١)

ومن أم هشام بنت حارثة بن النعمان أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بسورة (ق) وهو يخطب على المنبر يوم الجمعة وأنها لم تحفظها إلاّ من النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو على المنبر لكثرة ما كان صلّى الله عليه وسلّم يقرأ بها يوم الجمعة على المنبر . (١)

١- الدارقطنى / ١٥٦
١- مسند الشافعى ص ٢٢

الفصل السابع
الموعظة

=============

قال تعالى :-

(ادع الى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة) (١) أمر
للرسول صلى الله عليه وسلم من ربّه بوعظ النّاس وارشادهم للخير
ومنعهم من الشر وامساكهم عن التهافت فى النّار وفى سورة النساء
(أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل
لهم فى أنفسهم قولا بليغا) (٢)

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مأمورا بوعظ المنافقين وهم
المشار اليهم فى هذه الاية كما تدلّ على ذلك الايات التى قبلها
اذ يقول الله تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى
الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا ، فكيف اذا أصابتهم مصيبة
بما قدّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون باللّه ان أردنا الا احسانا وتوفيقا (٣)
اذا كان صلى الله عليه وسلم مأمورا بوعظ المنافقين/ فأولى به أن يعظ أصحابه دعما لايمانهم وتثبيتا
لعقيدتهم وحرصا على نفعهم ، وقد فعل ذلك الا أنّه لم يكن يعظهم
فى كل وقت بل كان يتخير الأوقات المناسبة والظروف الملائمة فان لاحظ

١- سورة النحل آية ١٢٥
٢- سورة النساء آية ٦٣
٣- سورة النساء آية ٦١ ، ٦٢

فرصة طيبـة لتعليم الناس و تذكيرهم تحينـها و اغتنمها ، فمن ذلك ما رواه أبو واقد انه يقول:أقبـل ثلاثة نفر فرأى أحدهم فرجة فى الحلقـة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر فقال عليـه الصلاة والسـلام :- ألا أحدثكم عن النفـر الثلاثة ،أما أحدهم فأوى الى اللّـه فآواه الله اليه وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منـه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنـه)(١) فكانت الفرصـة طيبـة سانحـة لم يهدرها الرسول صلى الله عليه و بل اغتنمها صلى الله عليه وسلم و دعا أصحابه وحثهم على حضور مجالس العلم و بيّن فضيلة الحضـور لسماعها .

تسعى اذا وجدت صبيا
ومن ذلك أنه رأى امرأة من السـبى فألزقتـه/ ببطنها فأرضعتـه فقال صلى الله عليه وسلم :- أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قالوا لا والله فقال : (لله أرحم بعباده منها بولدها) فجاءت الموعظة بالغة مؤثـرة اختار لها الرسول صلى الله عليه وسلم وقتا ملائما وظرفا مناسبا .

كما أنـه صلى الله عليه وسلم ما كان يجعل وعظه سردا طردا دائما لانه وهو العالم بأدواء القلوب والخبـير بأسقام النفوس ، البصير

١- زاد المسلم ١/١٠٠
١- زاد المسلم ١/٤٠

بما يحيى الارواح و يبعثها . كان يعلم أن الأذن متساءمة وللنفس حمضه و لم يكن يثقل على اصحابه بالمواعظ ولم يكن يبهظهم بالتذكير وانما هو الوعظ المرّة بعد المرّة والتذكير تارة بعد أخرى ، يفعل ذلك رحمة بهم و رأفة عليهم و تحصيلا للفائدة المرجوة والثمرة المأمولة لان الوعظ والتذكير اذا اضطردا وداما ولم يبرحا يرفعا الى السآمه يرفعا والجأا الى الضجر والجأ ، وهذا ما كان يخشاه الرسول صلى الله عليه وسلم . و يخافه و هذا ماكان يحترز عنه احترازا .

جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قوله (كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخو لنا بالموعظة فى الايام كراهية السآمة علينا) (١)

فهذا التّخول وهذا التّعهد وهذا الترويح شأن من نال فى تربية النفوس و تقويم القلوب و تهذيب الارواح حظا عاليا و نصيبا وافيا وفضلا غير منقوص .

و تخيّر الالفاظ والحروف المناسبة مع تخيرّ الكلمات المؤثرة والعبارات المعبرّة محوية بالايمان الصادق والحماسة الدّافقة والعقيدة الصلبة

١- زاد المسلم ٥/ ١٦

لا بدّ أن يؤتى أكله باذن ربّه كريما طيّبا بهيجا و لذلك كان لمواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم أثرها البيّن و قيمتها العاليه و منزلتها الرفيعة في نفوس سامعيه ، فكم من قلب خفق واضطرب و تحرّك لتلك كلمة طيبة من فمه و كم من عين جرت ماؤها للكلمة بليغة من فيه

قال العرباض بن سارية (صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، قيل يا رسول الله كأنها موعظة مودّع فأوصنا ، قال (عليكم بالسمع والطاعة وان كان عبدا حبشيّا فإنّه من يعش منكم فسير اختلافا كبيرا فعليكم بسنتى وايّاكم و محدثات الامور فانّ كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة و كل ضلالة فى النار) (١)

و عندما أخذ بعض الانصار من الاوس و الخزرج فى الاموال التى أعطاها الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض القرشيين يتألف قلوبهم ، جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم و قد طلب اليهم أن يجتمعوا له منفردين قال " ما حديث بلغنى عنكم - أى ما شأنه وحقيقته " - فقال فقهاء الانصار أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلّم يعطى قريشا و يتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم . فقال النبى صلى الله عليه

١- رياض الصالحين / ٤٠

فأني أعطيت رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم ، أما ترضون أن يذهب الناس بالاموال و تذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم تحوزونه الى رحالكم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به . ففعلت هذه الكلمات الناصحة المخلصة فعلها في قلوب الانصار المؤمنة الصادقة العامرة فقالوا و قد أجهشوا بالبكاء رضينا برسول الله . فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ستجدون أثرة من بعده فاصبروا حتى تلقوا الله و رسوله صلى الله عليه وسلم فاني على الحوض" (١)

كانت الكلمات تخرج من فمه صلى الله عليه وسلم حية مؤثرة فعالة لأن القول و العمل متلازمان في سيرته فهو لم يأمر بمعروف الا أتاه و لم ينه عن منكر الا انتهى عنه . ففي حديث لعائشة رضي الله عنها (أنه كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له :- تصنع هذا يا رسول الله و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال :- أفلا أكون عبدا شكورا) (٢)

وروى عن عائشة كذلك (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل العشر الاواخر من رمضان أحيا ليلة وأيقظ أهله و شد مئزره) (٣)

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم

١- زاد المسلم ٢/ ٢٦٠

٢- رياض الصالحين / ٦٦

٣- المرجع السابق نفسه

عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري

" اقرأ على القرآن " فقلت :- يا رسول الله أقرأ/ فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت الى هذه الآية :- (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال : (حسبك الآن) فالتفت اليه فاذا عيناه تذرفان (١)

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . (٢)

وهو صلى الله عليه وسلم اذا أمر أصحابه بالزهد والانفاق وتحمل خشونة الحياة والاقبال على الله طلبا لمرضاته وحرصا على نيل ثوابه في اليوم الآخر نجده صلى الله عليه وسلم يقوم بذلك من القيام بحيث لا يسبق ولا يلحق منقادا لأمر الله تعالى ونجد ذلك واضحا في رواية أصحابه عنه . روى مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل يلتوي ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه . والدقل هو ردئ التمر (٣)

١- رياض الصالحين / ١٠٨

٢- رياض الصالحين ٢١٠

٣- المرجع السابق نفسه ١١٨

وروى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قولها (توفى رسول (ص) وما فى بيتى من شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير فى رف لى (١)

وروى البخارى عن عمر بن الحارث أخى جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها ، قال :- ما ترك رسول الله عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا الا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة (٢)

وفى الأمر لهم بالتواضع وخفض الجناح وتوطئة الاكناف نراه فى ذلك مثلا وقدوة حتى لانرى انسانا يبلغ عشر ما بلغه صلى الله عليه وسلم من التواضع .

روى ابن ماجه والترمذى عن أنس رضى الله عنه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صافح الرجل لا ينزع يده وان استقبله بوجه لا صرفه عنه حتى يكون الرّجل ينصرف عنه ولا يرى مقدما ركبتيه بين يدى جليس له

كان عليه الصلاة والسلام متواضعا فى ملبسه ومسكنه يلبس كعامة من حوله ويسكن ، وقد واتته الدّولة والسلطان فى صفّ من حجرات واطئة مبنية باللبن وبين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النّخل طين

١- رياض الصالحين / ٢١٨
٢- رياض الصالحين ٢١٩

بالطين ومفض بجلد أو كساء أسود من الشعر وكان يجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويقبل عذر المعتذر وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده ويخدم نفسه ويحتلب بعيره ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضيف البائس) (١)

كل هذا التواضع الجم والتياسر الصادق من نفسه الطاهر والذى هو صورة صادقة له لم ينقص من هيبته ولا عظمته وقد قيل فى وصفه :-

من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل ، لم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الادب وكثيرا ما بين لأصحابه كيف يتصرفون فى حضرته وفى خطابه .

فلقد كان صلى الله عليه وسلم قدوة عليا ومثلا أعلى فى الصبر والحلم والكرم والحياء والشجاعة والتواضع والتياسر وخشية الله .

فمن كانت هذه أخلاقه وتلك عباداته جاءت مواعظه حية مؤثرة فعالة صادقة . وقد مدحه ربه فقال (وإنك لعلى خُلُقٍ عظيمٍ) (٢)

١- الرسول صلى الله عليه وسلم سعيد حوى ١ / ١٥٤

٢- سورة القلم آية ٤

وعن نفسه فقال (أنا سيد الناس يوم القيامة) (١) وقال أنا سيد البشر ولا فخر وأنا أفصح العرب وأنا أول من يقرع باب الجنة وأنا أول من ينشق عنه التراب ، دعا لي ابراهيم وبشر بي عيسى ورأت أمي حين وضعتني نورا أضاء لها ما بين المشرق والمغرب) (٢)

ومدحه أصحابه فقال أبو سعيد الخدري :-

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها فاذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه) (٣) وقال أنس بن مالك :- " كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد سبق الناس الى الصوت وهو يقول :- لن تراعوا لن تراعوا وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج وفي عنقه سيف فقال وجدته بحرا أو انه لبحر) (٤)

وقال فيه حسان (٥) :-

وأحسن منك لم تر قط عيني

وأجمل منك لم تلد النساء

١- زاد المسلم ١/ ١١٠

٢- العقد الفريد ٤/ ١٥١

٣- رياض الصالحين / ٢٠١

٤- أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب حسن الخلق والسخاء

٥- ديوان حسان ، تحقيق سيد حنفي ١٩٧٤ القاهرة ٢٧١

خلقت مبرأً من كل عيب

كأنك قد خلقت كما تشاء

وقال آخر :-

وما حملت من ناقة فوق ظهرها

أبرّ و أوفى ذمة من محمّد

وقال حسان يرثيه صلوات الله وسلامه عليه :-(١)

وما فقد الماضون مثل محمّد

ولا مثله حتى القيامة يفقد

وكان أصحابه رضوان الله عليهم اذا سمعوا صفة مدح فى بعضهم

بقول الآخر

متى تأته تعشو الى ضوء ناره

تجد خير نار عندها خير موقد

قالوا ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١- شعر الدعوة الاسلامية - عبد الله بن حامد الحامد الرياض ١٩٧١

ص ٢٤٠

الفصل الثامن
غريب الحديث
============

تحدثنا فيما سبق عن الأسلوب النبوى و قلنا أنه اتّسم بوضوح اللفظ و قرب المأخذ و سهولة التناول لفظاً، و تركيباً. و نفرد الآن فصلاً عن غريب الحديث. و هنا يطرأ سؤال وهو كيف و جد هذا الضرب من الغريب فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان أفصح العرب لساناً وأوضحهم بياناً وأعذبهم نطقاً وأسدّهم لفظاً وأبينهم لهجة وأقومهم حجة و أعرف بمواقع الخطاب وأهداهم إلى طريق الصّواب و كان أبعد ما يكون عن الغريب و الصعب وأبعد ما يكون عن التكلف ؟

وفى الرّد على هذا السؤال نقول " من المسلّم به أن اللغة كائن حى ينمو ويتجدد بتطور الزمان وتراميه فقد تستعمل كلمات ذائعة فى عصر متقدم ثم تمضى الايّام عليها دون أن تجد لها ذيوعاً فى عصر تال فيخيل لمن يقرؤها فى العصر الأخير أنها عربية تخلّفها الثقل. ولو تأمل لعرف أنها غمضت بتغير العصر فانطفأت بعد اشراق ولو كانت لدينا معاجم تتبع تطور الكلمات من زمان الى زمان لعرفنا كيف ماتت مئات الكلمات فى عصر واستحدثت مئات أخرى فى عصر آخر . "

وأكثر ما نشاهد من الغريب فى حديث الرسول كان مأنوساً فى عصره لانّه لا يتكلّف و لا يتعمّل و قد نفى عنه القرآن ذلك ، كما نهى صلى الله عليه وسلم عن التشادق والتفاصح فأحرى به، ألاّ يأت

بالغامض الغريب ، وفى ذلك يقول ابن الاثير (١): وكان أصحابه رضى الله عنهم ومن يفد عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله وما جهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم واستمر عصره صلى الله عليه وسلم الى حين وفاته على هذا السنن المستقيم وجاء العصر الثانى وهو عصر الصحابة جارياً على هذا النمط ، سالكاً هذا المنهج وكان اللسان العربى عندهم صحيحاً محروساً لا يتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل، الى أن فتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم من الروم والفرس والحبش والنبط وغيرهم من أنواع الأمم، الذين فتح الله على المسلمين بلادهم وأفاء عليهم أموالهم ورقابهم، فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن وتداخلت اللغات ونشأ بينهم الأولاد فتعلموا من اللسان العربى مالابد لهم فى المحاورة عنه وتركوا ما عداه، لعدم الحاجة إليه وأهملوه لقلة الرغبة فى الباعث عليه فصار بعد كونه من أهم المعارف مطرحاً مهجوراً وبعد فرضيته اللازمة كأن لم يكن شيئاً مذكوراً . وتمادت الأيام والحالة هذه على ما فيها من التماسك والتماسك واستمرت على سنن من الاستقامة والصلاح الى أن انقرض عصر الصحابة، والشأن قريب والقائم بواجب هذا الأمر لقلته غريب وجاء التابعون لهم بإحسان فسلكوا سبيلهم لكنهم قلوا فى الاتقان عدداً واقتفوا هديهم وإن كانوا مدوا فى البيان يداً فما

١- النهاية ١/ ٣

انقضى زمانهم على ألسنتهم الا واللسان العربي قد استحال أعجميا أو كاد فلا ترى المستقل به والمحافظ عليه إلا الآحاد هذا والعصر
ذلك العصر / القديم والعهد ذلك العهد / الكريم فجهل الناس من هذا المهم ما كان يلزمهم معرفته، وأخروا منه ما كان يجب عليهم تقدمته واتخذوه وراءهم ظهريا فصار نسيا منسيا والمشتغل به عندهم بعيدا قصيا ".

وظاهر من كلام ابن الاثير أنه كلما بعد العهد بعصر الصحابة جهل الناس كثيرا من لغتهم، أى أن كثيرا من الالفاظ التى كانت متداولة مستعملة فى ذلك العصر يقل استعمالها، والدليل على ذلك أننا فى عصرنا هذا نحتاج الى جهد كبير ووقت أكبر، لتفهم أشعار الاوائل، ومعرفة لغة الجاهليين، وأن الألفاظ التى كانت مأنوسة مألوفة فى عهدهم والتى لا يحتاجون فى فهمها الى قواميس وشروح تصعب علينا نحن. ..

وهذا ما جعل العلماء يهتمون اهتماما شديدا بما ورد من الغريب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوبما أصبح غريبا وكان من قبل مألوفا مأنوسا ، فافردوا له المعاجم وشرعوا فيه للناس موارد، ومهدوا فيه لهم معاهد، حراسة لهذا العلم الشريف من الضياع وحفظا لهذا المهم العزيز من الاختلال فكانت حركة التأليف فى غريب

الحديث ولغته حركة دائبة متصلة تمثل حلقة من الحلقات العلميّة الجادة المتواكبة،التي لم تنقطع تتبعًا لهذه اللغة العربية مأخوذة من منابعها الأصلية وهي آنذاك أخذت تجتاح الجزيرة الى الصين والهند شرقًا واسبانيا غربًا .

وفوق ذلك فقد ربطت بين الدّين والعلم بأسمى سبل التفكير العلمي، فالدراسة فيها مستقاة من نصوص الحديث الشريف في غريبة . ولقد حرص أسلافنا على لغتهم منطلقين من كونها لغة الدين الحنيف ، المعبرة عن قوميتهم فكانوا يحفظون كل ما يتصل بها ويوضح النصوص القرآنية فاهتموا بالحديث النبوي الشريف وتثبتوا في نصوصه وسنده أيّما تثبيت ،واجتهدوا في ذلك واستقصوا ما استطاعوا الى ذلك من سبيل .

ولا يخفى على المختص أن العناية بالقران الكريم والحديث الشريف وتدوينهما والشروح التي جرت حولهما انبثقت عنها علوم العربية ، وما تزال الدّراسات فيها تتطور ويكثر فيها الباحثون من عرب ومستشرقين .

وعن العناية بغريب الحديث ولغته وتدرج ذلك العلم في سبيل الكمال منذ القرن الثاني للهجرة ،يحدثنا ابن الاثير في

مقدمة كتابة النهاية فيقول " ان أول من جمع فى هذا الفن شيئا وألف؛أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى المتوفى سنة ٢١٠هـ فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتابا صغيرا ذا أوراق معدودات ولم تكن قلته لجهله بغيره من غريب الحديث وإنما كان ذلك لأمرين أحدهما أن كل مبتدئ لشىء لم يسبق إليه ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه فانه يكون قليلا ثم يكثر وصغيرا ثم يكبر . والثانى أن الناس يومئذ كان فيهم بقية وعندهم معرفة فلم يكن الجهل قد عمّ ولا الخطب قد طمّ .

ثم جاء أبو الحسن النضر بن شميل المازنى وعبد الملك بن قريب الأصمعى ومحمّد بن المستنير المعروف بقطرب فجمعوا أحاديث تكلّموا على لغتها ومعناها فى أوراق معدودة ولم يكد أحدهم ينفرد عن غيره بكثير حديث لم يذكره الآخرون .

واستمرت الحال الى زمن أبى عبيد القاسم بن سلاّم بعد المائتين فجمع كتابة المشهور فى غريب الحديث والآثار فصار القدوة فى هذا الشأن ،سلخ فى تأليفه أربعين سنة فكان مرجع الناس وعمدتهم الى عصر أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينورى فصنّف رحمة الله كتابا هذا فيه حذو أبى عبيدة ولم يودعه شيئا من

الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيدة، الا ما دعت الضرورة اليه .

وفي زمانه ألّف الامام ابراهيم بن اسحاق الحربي المتوفى ٢٨٥ هـ كتابة غريب الحديث في مجلدات عدّة ولكنه استقصى الأسانيد وأطال ذكر المتون فترك وهجره الناس وإن كان كثير الفوائد .

ثم ألّف جماعة منهم أبو العباس المعروف بثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ وشمر بن حمدوية والمبرد المتوفى ٢٨٥ هـ ومحمّد بن القاسم الأنباري أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد شيئا . واستمرت الحال على ذلك حتى عهد الامام أبي سليمان أحمد بن محمد بن أحمد الخطابي البستي بعد سنة ٣٦٠ هـ فألّف كتابا نهج فيه نهج أبي عبيدة وابن قتيبة وذكر ما لم يذكراه فكان كتابه متمما لكتابيهما وظلّت هذه الكتب مرجع العلماء حيناً .

ثم جاء أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي المتوفى سنة ٤١٠ هـ وصنّف كتاباً جمع فيه ما بين غريب القرآن والحديث ورتبه مقفى على حسب حروف المعجم وعني بالكلمات اللغوية فاستخرجها من أماكنها وأثبتها في حروفها وذكر معانيها واستوعب فيه ما تقدمه من الكتب وكان ما صنعه من ترتيب الكلمات الغريبة ترتيباً حسناً مما جعل ذكره يسير وأمره ينتشر .

وما زال الناس بعده يقتفون حديثه ويتبعون أثره ويشكرون له سعيه ويستدركون ما فاته من غريب الحديث والآثار ويجمعون فيه مجاميع ، والايام تنقضى والاعمار تفنى ولا تنقضى الا عن تصنيف فى هذا الفن إلى عهد الامام أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى رحمه الله ، فصنف كتابه المشهور فى غريب الحديث وسماه (الفائق) ولقد صادف هذا الاسم مسمى وكشف عن غريب الحديث كل معمى ورتبه على وضع اختاره مقفى على حروف المعجم ولكن فى العثور على طلب الحديث منه كلفه ومشقة وإن كانت دون غيره من متقدم الكتب لأنه جمع فى التقفيه بين ايراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله ثم شرح ما فيه من غريب فيجئ شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث فى حرف واحد من حروف المعجم فترد الكلمة فى غير حروفها وإذا تطلبها الانسان تعب حتى يجدها فكان كتاب الهروى أقرب تناولاً وأسهل مأخذا وإن كانت كلماته متفرقة فى حروفها وكان النفع به أتم والفائدة منه أعم .

وجاء بعده أبو موسى محمد بن أبى بكر المدينى الأصفهانى المتوفى سنة ٥٨١هـ فصنف كتاباً جمع فيه ما فات الهروى من غريب القرآن

والحديث وسماه (الغث) ومن معاصريه ابن الجوزى ابو الفرج عبد الرحمن ابن على المتوفى ٥٩٧هـ الذى صنف كتاباً فى غريب الحديث نهج فيه طريق الهروى وكان فاضلاً ولكنه يغلب عليه الوعظ . وفى القرن السابع ألف ابن الاثير كتابه (النهاية فى غريب الحديث والأثر) فى وقت تطور وتكامل هذا العلم وقد رتّب ابن الاثير الكتاب دون إطالة فى الاسانيد وذكر الاحاديث الغريبة فى أجزاء مفهرسة على موادها اللغوية هجائيـاً ويذكر المواد الغريبة بلغات مختلفة مبوبة فى أبوابها بطريقة بحيث يوفر على المراجع مشقة الرجوع إلى الأجزاء الأخرى فى العود الى النّص كاملا على منهج ابن قتيبة والزمخشرى ليبحث فى أجزائه عن المواد وذلك يتطلب جهدا ووقتاً . وقد جمع ابن الأثير كل ما فات السابقين فى غريب الحديث فقد استقصى كتبهم.

ولقد استفاد ابن الاثير من سابقيه بنظر ثاقب بصير وقد شغل هذا الكتاب من جاء بعده وذيّل عليه الارموى صفى الدين محمود بن أبى بكر الارموى . (١)

ثم اختصرت النهاية على يد الشيخ على بن حسام الدّين الهندى وعيسى بن محمد الصفوى وجلال الدين السيوطى

١- مجلة المورد المجلد التاسع العدد الرابع - دار الحرية بغداد ١٩٨٠ ص ٢٧٢.

وقد سمى مختصره (الدر النثير) وكان الدر بهامش النهاية ثم أفرده السيوطى وسماه التذييل والتذنيب على نهاية الغريب وتقول الاساتذة فاطمة حمزة الراضى: وهو موجود فى آخر إحدى نسخ النهاية بدار الكتب المصرية برقم (٢٠٤٤ حديث) وهو فى سبع ورقات ومن التذييل نسخة ببرلين (١٦٦٠) (١) وقد نظمت النهاية شعرا على يد أبى الفدا اسماعيل بن محمد بن بردس البعلى الحنبلى (٧٨٥ هـ) ومنه نسخة ببرلين (١٦٥٤) باسم الكفاية فى نظم النهاية. (٢)

ومن المؤلفات التى لم تشر اليها المراجع عدا حاجى خليفة فى حديثه عن علوم غريب الحديث والقرآن كتاب عبد اللطيف البغدادى موفق الدين (تفسير غريب الحديث) الذى اعتمد فيه على أمهات كتب الغريب فى الحديث الثلاثة لابى عبيد القاسم والخطابى وأبو سليمان (٣)

والباحث فى حركة التأليف فى غريب الحديث يجد حركة دائبة متصلة جمعت فيها مادة الغريب وشرحت ورتبت فكانت منها

١- مجلة المورد المجلد التاسع العدد الرابع - دار الحرية بغداد ١٩٨٠م ٢- المرجع السابق نفسه
٣- كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون حاجى خليفة ط أولى ١٣١٠هـ ٢/١٥٥

مؤلفات كثيرة ضاع معظمها واندثر ووصل الينا بعضها الآخر ، وان كان ثمة ما يدعو للدهشة فى تلك التصانيف انما هو ضخامتها التى تشير اليها المراجع والفهارس، وما تظهره الجهود القائمة على تحقيق نسخها الخطية حتى اليوم ، وتلك الضخامة فى التأليف تدعونا إلى إكبار السلف أيما إكبار لشدة المعاناة والصبر الطويل والأناة فى العمل دون كلل أو ملل وذلك حق لهم علينا يجب أن نشير اليه فالدارس أو المؤلف منهم ما ان ينتهى يأتى مؤلف آخر من المعاصرين أو من الخلف فيذيل عليه بما يستحق أن يكون كتاباً آخر ، ليقول ما يجدر ان يقال ليسند مادة أو يزيدها بياناً و قد يسد نقصا أو سهواً فاتا المؤلف لسبب أو لآخر وغير هذا مما يجئ فى المختصرات وهى دليل على بذل الجهود لتيسير التناول والمراجعة أو الحفظ .

وبملاحظة عامة أن جمهرة العاملين فى هذا الفن أوتوا من كل علم بطرف وقد احتوت تراجمهم وأخبارهم على أكثر من مؤلف فى أكثر من موضوع و قد أولعوا بالحديث والفقه بالشريعة والدين وتطلعوا بها حتى امتلكوا ناصية التصنيف والتأليف فى الغريب من الحديث

وتأثر وجوه الاستعمال في لغاتها كل ذلك يحتاج الى طول معاناة وأناة ودراية بالحديث والرواية وما يتعلق بهما. فهؤلاء إذن نخبة من جلة أسماء عصرهم وهم إلى جانب ذلك من المبرزين في علمي النحو واللغة .

فالنضر بن شميل جاء ذكره في النحويين البصريين عند الزبيدي في الطبقة السادسة [1] وقال عنه السيوطي أنه أخذ عن الخليل اللغة والنحو وهو ثقة ثبت صاحب غريب وشعر ونحو وحديث وفقه ومعرفة بأيام الناس [2]

ومحمد بن المستنير ذكره ابن قاضي شهبة [3] وقال عنه (انه صاحب سيبويه وتلميذه اللغوي النحوي وقال عنه السيوطي كان حافظاً للغة كثير النوادر والغرائب . [4]

وجاء ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في الطبقة الثالثة من اللغويين البصريين عند الزبيدي [5] وقال عنه السيوطي [6] (وأما ابو عبيدة فانه كان أعلم الثلاثة (ابو زيد الانصاري وأبوعبيدة والاصمعي)

١- طبقات النحويين واللغويين ،لابي بكر الزبيدي تحقيق محمد ابو الفضل مصر ص٥٣ - ٦٧
٢- المزهر في علوم اللغة وأنواعها - للسيوطي ط ٤ مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٦٥٨ ٢/٤٠٥
٣- طبقات النحاة واللغويين تحقيق محسن غياض طبعة النجف ١٩٧٣ بغداد ص ٢٢٣
٤- المزهر ٢/٤٠٥
٥- الزبيدي ١٤٢ - ١٤٥
٦- المزهر ٢ / ٤٠٢

بأيام العرب و أخبارهم وأبصرهم لعلومهم وكان أكمل القوم ، قال عمر بن شبة كان أبو عبيدة يقول ما التقى فرسان فى جاهلية ولا إسلام إلا عرفتها وعرفت فارسيها وهو أول من ألف غريب الحديث. حدثنا على بن ابراهيم البغدادى يقول سمعت ابن سليمان يقول : سمعت أبا حاتم السجستانى يقول جاء رجل الى أبى عبيدة يسأله كتاباً ، وسيلة الى بعض الملوك فقال لى : يا أبا حاتم اكتب عنى والعن فى الكتاب فان النحو محدود (أى محروم) صاحبه .

كما أورد الزبيدى ابن سلام فى الطبقة الثالثة من اللغويين الكوفيين (١) وابن قتيبة كان من بين من ذكروا فى الطبقة السادسة من اللغويين البصريين (٢)

ومن بين اللغويين الكوفيين ممن ذكرهم الزبيدى ثعلب أحمد ابن يحيى (٣) فى الطبقة الخامسة من النحويين الكوفيين والزمخشرى محمود بن عمر ترجم له القفطى صاحب انباه الرواه على أنباه النحاه وقال عنه أنه ممن يضرب به المثل فى علم الأدب والنحو واللغة. (٤)

١- الزبيدى ٢١٧ - ٢٢٦ .
٢- " ص ٢٠٠
٣- " " ١٥٤ - ١٦٧
٤- ١ / ٢٦٥ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥

ومن ابن الاثير قال ابن خلكان (١) (كان فقيهاً محدثاً أديباً نحويا)

ولغة الغريب من الحديث اشتملت تاليفها إضافة إلى الحديث الشريف أحاديث الصحابة والتابعيين وبعض القواد والولاة كالحجاج بن يوسف الثقفى وأمثاله وقد بحث غير واحد من المؤلفين مفهوم الغريب من اللغة فما كان من الألفاظ الغامضة وكان قليل الاستعمال لدقة معناه وبعده عن الفهم هوعند الخطابى (٢) وهو أحد العاملين فى هذا الفن - من الألفاظ الغريبة التى تحتاج إلى بيان فقوله (الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم كما أن الغريب من الناس انما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الاهل والغريب من الكلام يقال به على وجهين، أحدهما أن يراد به أنه بعيد المعنى غامضه لا يتناوله الفهم الا عن بعد ومعاناة فكر والوجه الآخر أن يراد به الكلام ما بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب فاذا وقعت الينا الكلمة من كلامهم أستغربناها)

١- وفيات الاعيان دار الثقافة بيروت ترجمة ابن الأثير

٢- كشف الظنون ٢/١٥٥

على أن مما نفع الله به الناس في بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الكلمة الغريبة في الحديث الشريف كثيرا ما تفهم من السياق بحيث يستطيع قارئ العصور المتأخرة أن يصل الى مدلولها بجهد قريب (٢) فمن ذلك ما أورده الزمخشري في شرح لفظ (أبَنَ) في حديثه صلى الله عليه وسلم، بمعنى قذف أو أعاب فيقول أبنته آبنه وأبنه وهو من الأبن وهي العقد في القضبان لأنها تعيبها ومنه قوله عليه السلام في حديث الأفك " أشيروا على في أناس أبنوا أهلي "، ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه (ان نؤبن بما ليس فينا فربما زكّينا بما ليس فينا فظاهر من سياق حديث الافك وحديث أبي الدرداء ان اللفظ (انبو اهلي) بمعنى قذفوا وأعابوا ونؤبن بمعنى نقذف ونعاب) (٣)

وليس معنى ذلك أن كل ما ورد من الغريب في حديث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم كان مأنوسًا في عصره لدى جميع الناس إذ أن الاديب المسكين قد يضطر الى استعمال لفظ خاص مهما

١- البيان النبوي ص ٢٠٥ - دكتور محمد رجب بيومي مصر ١٩٨٠

٢- الفائق من غريب الحديث والاثر - الطبعة الاولى القاهرة ١٩٤٥

غمض لدلالته وبعده على ما يريد من معنى، ومن تمرس البيان يعلم أن لكل لفظ من معجم الكاتب مكانة خاصة في نفسه ودلالة خاصة توجب عليه أن يلتزمه في وضع معين ليحمل إلى الناس ما يريد أن يقول وتلك حقيقة أشار اليها جهابذة النقد الحديث وينقل الدكتور محمد رجب بيومى (١) ما قاله جورج تشارلستن فى كتابه فنون الادب الذى ترجمه د. زكى نجيب محمود فى هذا الصدد "اذ يقول " يلجأ الشعراء أحيانا الى اللفظ الغريب للزيادة من قوة التأثير ولاسيما اذا كانت الصورة المرسومة مما لا يألفه الناس فى الحياة الجارية فإذا رأيتهم يطلقون على الاشياء غير أسمائها فاعلم أنهم لا يصنعون ذلك عبثاً ولو أرادوا الأسماء المعروفة للاشياء لأطلقوها إذ يجب أن يكون الشاعر صادقاً فى التعبير عن شعور أما اذا أراد صورة فيها شيء من الغرابة لأنه أحس فى نفسه أنها غريبة فيجوز أن يلجأ إلى اللفظ الغريب المبهم)

والناثر مماثل للشاعر فى هذا الوضع لا سيما إذا كان الناثر يعبّر دائما عن الجديد غير المألوف، وقد كانت أفكار محمد صلى الله عليه وسلم من الجدّة والطرافة والابتكار بحيث كان كل حديثه من

١- البيان النبوى ص ٢٠

كلامه صلى الله عليه وسلم فتحًا لافق جديد من التفكير ، فـإذا جاء لفظ غريب يكمل به المعنى فى رأيه فقد جاء فى موضعه وسمو فى مكانة أصيل دقيق .

كل هذا يقال عن الغريب الذى يتناثر فى قوله صلى الله عليه وسلم على أبعاد تطول إذ أن مثل هذه الالفاظ الغريبة لا تخرج عن حالتين اما انها كانت مألوفة مفهومة فى العصر النبوى ثم غمضت من بعد فلا مجال للحكم عليها بالغرابة من غير المعاصرين وأما أنها كانت غريبة وجاء بها القائل لتسدّ مسدًّا لا تفى به الكلمة المأنوسة وهنا تكون الغرابة على ندرتها القليلة مما يحمد ، لانها فتح جديد للفظ جديد يأخذ طريقه كى يسير وكل ذلك نادر إذا قيس بما نتداوله من أدب محمد صلّى الله عليه وسلّم وجلّه مشرق أنيس .

وضرب ثالث من ضروب الغرابة غير هذا وذاك سيق اليه الرسول صلى الله عليه وسلم سوقًا واضطر اليه اضطرارا وهو ما يحدّث به صلى الله عليه وسلم ، أو كتب به رسائله وعهوده الى القبائل النائية فى بطن الجزيرة ممن لا ينطقون بلغة قريش إذ أن لهم معجمهم الخاص مؤلفًا من كلمات لا يتداولها أهل مكة والمدينة ومن حولهم من الاعراب

وهنا تظهر المقدرة الكامنة في بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يجيء علماً بألسنة أناس لم يتفق له عليه السلام أن يشافههم أو يشافهوه يخاطبهم بلحونهم ولا يعدو ألفاظهم ومعانيهم فيما يريد أن يلقيه اليهم وهي ألفاظ خاصة بهم وبمن يداخلهم يقاربهم ولا يجوز في غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ، ولا تأتلف من أوضاع اللغة القرشية فما ندري أي ذلك أعجب : أن ينفرد النبي صلى الله عليه وسلم بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها ، وخالطوا العرب وسمعوا منافقهم في أرضهم وحين يتوافدون اليهم في موسم الحج وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه ولا يديرونه في ألسنتهم ولا يورثونه اعقابهم فيما ينشئون عليه من السماع والمحاكاة ، حتى كان هذا الباب فيه صلى الله عليه وسلم باباً على حده ، كما يؤخذ كل ذلك من قول علي " نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره " (١)

١- اعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي ط ٣ ص ٣٥١ مصر / ١٩٢٦

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم الى وائل بن حجـــر وأهل حضرموت الذى يقول فيه (من محمد رسول الله إلى الأقيـــال العباهلة من أهل حضرموت بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة على التيعة الشاة والتيمة لصاحبها وفى السيوب الخمس ، لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شـــغار ومن أجبى فقد أربى وكل مسكر حرام) ، وفى روايـــة أخرى أن كتابه لهم (الى الاقيال العباهلة الارواع المشـــابيب فى التيعة شـــاة لا مقـــورة الألياط و لا ضنـــاك وأنطو الثبجة وفى السيوب الخمس ، و من زنى مم بكر فاصقعـــوه مائة واستوفضـــوه عاما ومن زنى مم ثيّب فضرجوه بالاضاميم ، و لا توصيم فى الدّين و لا غمة فى فرائض اللـــه تعالى وكل مســـكر حرام ووائل بن حجر يترفل علـــى الأقيـــال) (١)

فقد خاطبهم بلغتهم دون تكلف أو تقعر واستهـــلاك للمعانى فلم يكن يقصـــد الغريب نفســـه وانما قصـــد مخاطبتهم بمـــا يفهمون فهم أهل اليمن لغتهم غير أهل الحجاز فانطوا هى اعطـــوا بلغتهم كما جرى فى لغة أهل اليمن أنهم يبدلون لام التعريف فيمـــا وفى ذلك يقول ابن الاثير (٢) " وعلى هذا فتكون راء بكر مكسور من غير تنوين لأن أصله من البكر فلما ابدلت الالف واللام فيما بقيـــت

١- جمهرة رسائل العرب ٥٨/١ ، الفائق ٤/١

٢- جمهرة رسائل العرب ٦٠/١

الحركة بحالها و يكون قد استعمل البكر موضع الابكار . قـــال والأشـبه أن تكون بكر منونة و قد أبدلت نون من ميما لان النون الساكنة اذا كان بعدها باء قلبت في اللفظ ميما نحو عنبر و منبر و يكون التقدير و من زنى من بكر"

وجاء بهامش جمهرة رسائل (١) العرب شرح لألفاظ الكتاب جاء فيه التيعة اسم لادنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان كالخمس من الأبل والأربعين من الغنم والتيمة ع الشاه الزائدة على الاربعين حتى يبلغ الفريضة الأخرى و قيل من الشاة التى تكون لصاحبها فى منزلة يحلبها وليست بسائمه وهى بمعنى الداجن . والسيوب جمع سيب (كشمس) وهى الركاز (ككتاب) ويشمل المعدن والكنز فالمعدن ما خلقه الله تحت الأرض والكنز ما دفنه العباد ، وسمى سيبا لأنه من سيب الله أى من عطائه وفضله لمن أصابة . والخلاط : مصدر خالط كالمخالطة ، والمراد أن يخلط الرجل ابله غيره أو بقرة أو غنمه ليمنع حق الله تعالى . والوراط : أن تجعل الغنم فى وهدة من الارض لتخفى على المصدق ، مأخوذ من الورطة (كوردة) وهـو الهوة من الارض والشناق : المشاركة فى الشنق بالتحريك وهو ما بين

١- جمهرة رسائل العرب ٥٩/١

الفريضتين من كل ما تجب فيه الزكاة ففى الزكاة الغنم مثلا فى أربعين شاه شاه واحدة وفى مائة وأحدى وعشرين شاتان وما بينهما عفو أى لا زكاة فيما بين النّصابيين و لا تؤخذ من الشنق حتى يتم و الشغار نكاح معروف فى الجاهلية وهو أن يزوج الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه ابنته أو أخته بغير مهر .

والأجباء : بيع الزرع قبل بدو صلاحة والأروع جمع أروع وهو من يعجبك بحسن منظرة أو بشجاعته كالرائع وقيل هم الذين يروّعون الناس أى يفزعونهم بشدة الهيبة والشابيب جمع شبوب وهو الجميل الزاهر اللون ومقورة الاليا أى مسترخية الجلد والضنال الكثيرة اللحم والثنية الوسط من المال التى ليست من خياره ولا رذالته أخذ من ثنية الناقة وهو ما بين الكاهل الى الظهر . والمقع والضرب وأصله الضرب على الرأس واستوفضوه : أى أنفوه وغرّبوه أخذ من قولهم : استوفضت الابل اذا تفرقت فى رعيها وضرجوه بلاغاتيم : أى أدموه بالضرب والاغانيم من الحجارة أن أدموه بالحجارة والتوصيم : الفترة والتوانى أن لا تفتروا فى إقامة الحدود و تتوانوا فيها . والغّمة : الستر أن لا تستروا فرائض الله ولا تخفوها بل اجهروا بها وأعلنوها ويترفّل : أن يسود ويترأس وهى استعارة

من ترفيل الثوب وهو إسباغه وإرساله . والاقيال : جمع قيل وهو الملك من ملوك حمير وحضرموت. والعباهلة المقرّون على ملكهم فلم يزالوا عنه .

وفى هذا الضرب يقول القاضى عياض (١) " أما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك المحل الافضل والموضع الذى لا يجهل سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلّة تكلف ،أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل أمة بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتها حتى كان كثير من الصحابة يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ،من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى وطهفة النهدى وقطن بن حارثة العليمى والاشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن "

فهو يخاطب كل أمة بلسانها فالالفاظ التى استعملها فى كتابه الى همدان وفى كتابة لوائل بن حجر الذين هم على قدر كبير

١ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ص ٦١

من البلاغة ، كانت قمة من البلاغة والفصاحة استعملها معهم لبين

للناس ما نزل اليهم وليحدث الناس بما يعملون . وقوله فى حديث

عطية السعدى فان اليد العليا هى المنطية واليد السفلى هى

المنطاة : قال فكلمنا رسول الله (ص) بلغتنا وقوله فى حديث

العامرى حسين سأله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم سل عنك

أى سل عمّ شئت وهى لغة بنى عامر .

أما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمة وحكمه

المأثورة منها ما لا يوازن فصاحة و لا يبارى بلاغة أما ما نحا منحى

الغرابة فقد وافق مقتضى الحال فى اغرابه .

الباب الثاني

الصور البيانية في الحديث النبوي

الفصل الأول

التشبيه

التشبيه هو صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته لأنه لو ناسبه كلية لكان اياه ، ألا ترى أن قولهم "خد كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه . وكذلك قولهم فلان كالبحر وكالليث ، انما يريدون كالبحر سماحة وعلماً وكالليث شجاعة وإقداماً وليس يريدون ملوحة البحر وزعوقته ولا شتامة الليث وزهومته"(١) . وهو ضرب من ضروب البيان عرفه القدماء صوراً توضح فكرتهم وتحسن معانيهم وشاع في أقوالهم وأشعارهم ، فهو عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما في معنى واحد بأداة ملفوظة أو ملحوظة كالكاف ونحوها لغرض مقصود. ومن هنا نرى أن للتشبيه أركاناً أربعة هي :-

المشبّه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه

---

(١) العمدة ، ابن رشيق ١/ ٢٨٦ .

والمشبه والمشبه به يسميان (طرفي التشبيه) فلا بد لكل تشبيه من وجودهما صراحة ، وقد يحذف المشبه للعلم به كقوله تعالى :-
(صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون)[2] فالمشبه محذوف يعود على المنافقين الوارد ذكرهم في الآيات السابقة والتقدير : هم كالصمّ وكالبكم وكالعمي .

أما أداة التشبيه فهي لفظ يدل على المشابهة وقد تكون حرفاً أو اسماً أو فعلاً . فالحرف كالكاف كما في قوله تعالى (والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)[3] . وكأنّ ، كما في قوله تعالى :-
"فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان ... كأنهن الياقوت والمرجان"[4] . والاسم مثل :- شبه ومثل ومماثل ومضارع ومحاك ونظير

---

(٢) سورة البقرة / [illegible]

(٣) سورة يس / [illegible]

(٤) سورة الرحمن [illegible]

ومثل ما هو بمعناها أو مشتقا منها كقوله تعالى (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) (٥) .

والفعل مثل :- مثل شابه وحاكى وجعل وحسب وخال وغير ذلك، مما كان بمعناها كقوله تعالى (وجعلنا الليل لباسا) (٦)

وقوله (قالوا يا موسى اما أن تلقى وأما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليهم من سحرهم أنها تسعى) (٧) .

وقد تحذف الأداة أو وجه الشبه أوهما معًا فى اللفظ فقط لا فى التقدير كقوله تعالى (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم) (٨) . فهو يشبه النساء بالأرض التى تحرث وتزرع لأنّ رحم المرأة فيه ينبت الولد كما ينبت البذر فى الأرض وفى كليهما تكثير وعمران وصلاح حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه أيضًا .

والحذف يعدّ أقوى فى باب البلاغة من حيث جعل صفة

---

(٥) سورة الواقعة ٢٢ ـ ٢٣

(٦) سورة النبأ / ١٠

(٧) سورة طه ٦٥ ـ ٦٦

(٨) سورة البقرة / ٢٢٣ .

المشبه نفس المشبه به وما يحذف فيه الوجه والأداة معاً يحتلّ المكان الأسمى بين أنواع التشبيه ويسمّى البليغ لأن المشبه يصير عين المشبه به بلا تفاوت وهذا أدعى للمبالغة والتوكيد ومثاله قوله تعالى ((إنّما المؤمنون إخوة))(٩).

والتشبيه من وسائل التعبير التصويرية يستمدّ قوته من التصوير فيزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً وفي هذا المعنى يقول أبو هلال العسكري :(١٠).

"التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم ولم يستغن أحد منهم عنه وقد جاء من القدماء وأهل الجاهلية ما يستدل به على شرفه وموقعه من البلاغة" .

والزمخشري(١١) يقول عند قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) ولما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في

---

(٩) سورة الحجرات / ١٠

(١٠) الصناعتين / [illegible]

(١١) الكشاف ١ / [illegible] .

التشبيه وتتميماً للبيان ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق التي تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب وكأنّه مشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد .

ويدفع لصورة الجامح الأبي ولأمر ما أكثر اللّه في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء وقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلا العالمون) [١٢].

والجرجاني يقول فيه [١٣]((فالتمثيل يكسو المعاني أبهة ويكسبها منقبة ويرفع من أقدارها ويشب من نارها ويستثير لها من أقاصي الأفئدة صبابة وشغفاً . فإن كان المعنى المثل مدحاً كان أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم وأهز للعطف وأسرع للإلف وأجلب للفرح وأسير على الألسن وأذكر وأولى بأن تعلقه القلوب

---

(١٢) سورة العنكبوت / ٤٣ .

(١٣) أسرار البلاغة / ٩٢

وأجدر كقوله تعالى في وصف الصحابة (ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار)[١٤] .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى للفكر وأبلغ في التنبيه والزّجر كقوله تعالى في وصف نعيم الدّنيا (اعلموا انّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثمّ يهيج فتراه مصفرّا ثم يكون حطاما)[١٥]

ويقول ابن الأثير[١٦] (وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك اذا مثّلت الشيء بالشيء فانما تقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه والتنفير عنه . ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو الى الترغيب فيها) .

---

(١٤) سورة الفتح / ٢٩

(١٥) سورة الحديد / ٢٠

(١٦) المثل السائر ص ١٦٦ .

ومن ذلك فان بلاغة التشبيه تكمن فيما يحويه من فوائد تعود على الاسلوب من وضوح الفكرة والمبالغة فيها والايجاز للوصول الى الغرض .

والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في تبليغه لرسالة ربّه وبيانه لأصحابه ضرب لهم كثيرا من الامثال لعلهم يعقلون وجاءهم بكثير من التشبيهات التربوية المحكمة وكان من هديه أن يضرب الأمثال بما كان لاصقا بحياتهم موصولا بهم ليكون أبعد تأثيرا وأبلغ نفعا وأكثر جدوى .

فلما أراد أن يوصيهم بمعاهدة القرآن وملازمة تلاوته أخبرهم أن الآيات القرآنية أشد تفصّيا من الابل في عقلها فلا بدّ من القيام عليها حتى تحفظ ولا تنسى فقد جاء في الصحيحين (١) (انما مثل صاحب القرآن كمثل الابل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وان أطلقها ذهبت) والمعقلة هي المشدودة بالعقل، والتشديد فيه للتكثير فهو يشبه حافظ القرآن الذي حافظ على دراسته ودأب على

---

(١٧) زاد المسلم ١ / ..

تلاوته بصاحب الإبل المعقلة المشدودة بالعقل خيفة الشراد فمن استذكره وتعاهده دام له الحفظ وإن لم يتعاهده ولم يداوم على تلاوته نسيه وذهب منه) .

وإذا أراد أن يفصح عن حقيقة يدركها كل متأمل رشيد رأى أن الصالحين من الناس الذين يمكن أن يعتمد عليهم قليل نادر، ضرب المثل بالإبل أيضاً والعرب أكثر ما يكونون إلفة للإبل ومعرفة بها وإدراكاً لأحوالها ، قال وهو الصادق الذي لا يخرج من فيه إلا حق :- (إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة)[١٥] والراحلة البعير القوي على الأسفار والأحمال والذكر والأنثى فيه سواء . وهذا ما أسماه أهل البلاغة بتشبيه المحسوس بالمحسوس وقد شاع هذا كثيرا في القرآن إذ يقول الله تعالى (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)[١٦] فقد صوّر القرآن الكفار بأنهم يأكلون ويتمتعون غافلين عن الجزاء الذ

---

(١٥) زاد المسلم ١ / [illegible]

(١٦) سورة محمد / ١٢ .

ينتظرهم كما تأمل الأنعام وتمر غافلة عن سكين الذابح .

ولمّا كان دأبه ديدنه صلى الله عليه وسلم أن يخاطب قومه بما يعرفون ويحدثهم بما يعقلون ضرب لهم الأمثال بما يحيط بهم من نبات الأرض فقال :-

(مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر)(٣٠) .

فجعل الذي يقرأ القرآن كمثل الاترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومنظرها حسن وملمسها لين ، صفراء فاقع لونها تسّر الناظرين، تتوق إليها النفس قبل التناول ويفيد أكلها بعد الالتذاذ بذوقها وطيب نكهتها ، فهم يعرفون كل ذلك فيها كما أنهم يعرفون التمر ويعقلون خصائصه وكذلك الريحان والحنظلة، وهو تشبيه وتمثيل في الحقيقة ووصف لموصوف استعمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن

---

(٣٠) زاد المسلم ٢ / ١٧١ .

كونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد . وكلام الله المجيد له تأثير في باطن العبد وظاهره ، وأن العباد متفاوتون في ذلك فمنهم من له النصيب الأوفى من ذلك التأثير ومنهم من لا نصيب له . وإبراز هذه المعاني وتصويرها في المحسوسات ما هو مذكور في الحديث ولا يوجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ولا أحسن ولا أجمع من ذلك لأن المشبهات والمشبه بها واردة على التقسيم الحاصر لأن النّاس إما مؤمن أو غير مؤمن والثاني إما منافق صرف أو ملحق به والأول إما مواظب على القراءة أو غير مواظب عليها فعلى هذا قس الأثمار المشبه بها ووجه الشبه المركب المنتزع من أمرين محسوسين هما الطعم والرائحة .

ومن هذا الباب أن العرب كانوا يعرفون مواقع القطر ويتتبعون مواطن الكلأ ويميزون الخبيث والطيب من الأرض والكريم والكنود من التربة والجيد والرديء من النبات فمن الأرض ما يهتز ويربو وينبت من كل زوج بهيج ومنها ما يمسك الماء ومنها ما لا ينبت ولا يمسك الماء ، كذلك الناس منهم من ينتفع بالعلم والهدى وينشره بين النّاس ويذيعه فيهم فإذا هو يثمر ثمارًا طيبة يانعة دانية القطوف ومنهم من يحفظ العلم ولكنه لا ينشره ويذيعه بين الناس ومنهم من لا يحفظ العلم ولا يقبل عليه لأنّه صدّ عن الهدى ولم يقبل ما جاء به من نور وبرهان .

والرسول صلى الله عليه وسلم يبيّن هذه الأصناف فى صورة بيانية فيها من التشبيهات الرائعة المنتزعة من البيئة العربية ، بقوله عليه الصلاة والسلام (إن مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه بما بعثنى الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به)(٦٦) .

أراد الرسول بهذه السطور بيان أنواع من الناس فى مقابلة الهداية والعلم فقدّم ثلاثة أنواع منهم :- الأول هو العالم الذى ينتفع بعلمه وينشره بين الناس والثانى هو الذى يحفظ العلم ولكنه لا يتعداه إلى غيره أما النوع الثالث فهو الذى لا يحفظ العلم ولا يقبل عليه . واختار صلى الله عليه وسلّم سبيله الى هذا أسلوب التمثيل

---

(٦٦) زاد المسلم ١ / ٤٤ .

وانتقى لهذا التمثيل مثيلا يأخذ من صدى الادراك لما يريد أن يقدمه للمتلقى فنجده يهيئ الأذهان بافتتاحه للكلام بالتمثيل اذ يقول (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم) ليصبح ضروريا أن نتعرف على طبيعة ما بعث به الله رسوله حتى يكون التعرف على موقف الناس منه تصرفًا مبنيا على الواقع والحس وذلك قوله (كمثل الغيث الكثير الذى أصاب أرضًا) فطابق فى دقة بين الأنواع الأرضيّة والبشرية الثلاثة فى مقابلة ما بعث به الله رسوله من الهدى والعلم بحيث أصبحت تتراءى فى داخل الاطار أفرادا منبثقة من أصل الصورة حتى ليخيل مع النظرة العابرة أن كلاّ واحد منها يمثل صورة مستقلة قائمة بذاتها تؤدى رسالتها داخل الصورة .

ولا يخفى علينا تأثير هذا التمثيل وصلته بالنفس وهذا التأثير قد نبه عليه الجرجانى فى كتابه أسرار البلاغة اذ يقول :(٣٢)

(فالتشبيه التمثيلى ينقل النفس من الخفى الى الجلى والمعروف أن العلم المستفاد من طريق الحواس ، يفضل العلم المستفاد من جهة الفكر والعقل وقد قيل فى الأثر :- ليس الخبر كاليقين وليس الظن كالمعاينة كما أن

---

(٣٢) أسرار البلاغة / ٣ .

العلم المستفاد من طريق الحواس أسبق الى النفس من العلم المستفاد من طريق العقل والرويّة ، لأن العلم يجئ أولاً من طريق الحواس ثمّ من جهة العقل والنظر) أ . هـ .

فلما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم تقوية المعنى وتأكيده في النفوس وكما هو معلوم وثابت من أن المشاهدة ذات أثر فعّال في النفوس حتى مع العلم بصدق الخبر وعدم تسرّب الشك اليه ، عمد الى تصوير ذلك بأمور محسوسة مألوفة .

كما أنه صلى الله عليه وسلم في هذا التمثيل جمع بين أمرين متنافرين مختلفين وهذا مما زاد المعنى بلاغة اذ أن التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كان الى النفس أعجب وكانت النفوس له أطرب ، وأن تطلب الشئ المتشئ من غير جنسه وشكله والتقاط ذلك له من غير محلّه حتى يعبرا به مثلين متباينين مؤتلفين مختلفين ، حتى أن الصورة الواحدة تبرز في السماء والارض لهو غاية البلاغة ، يقول الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :- (٦٢) .

وقد لاح في الصّبح الثريّا لمن رأى
كعنقود ملاحيّة حين نوّرا

---

(٦٢) ديوان قيس بن الخطيم طبعة اولى ١٩٦٢ – القاهرة تحقيق الدكتور/ ناصر الدين الأسد صفحة ١١٨ .

شبه الشاعر الثريا في السماء بعنقود العنب وذلك وقت

وقت ادراك نضجه ووجه الشبه هيئة اجتماع صور بيض مستديرة صغار

الأجسام في مرآة العين .

ونجده صلى الله عليه وسلم اذا أراد تقديم الموعظة لا يوردها

جافة بل يعمد الى الاسلوب التصويري فيحولها الى بناء درامي ينقلك

الى ما يريد دون أن تحس بما يقصد اليه أو تتهيأ للنفور منه كما هو

الشأن في مواجهة المواعظ . فاسمعه يقول واعظا وحاثًّا على الانفاق

ومنفرا من البخل (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من

حديد من ثديهما الى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق الا سبغت أو وفرت

على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق

شيئا الا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع) (٢٤) .

هذا الحديث يبين الحالة النفسية التي يكون عليها كل من

البخيل والمنفق اذا أنفقا وفي سبيله الى ذلك اعتمد صلّى اللّه عليه

وسلم على التصوير المجسم الحسي فشبه صورة البخيل المطبوع على البخل

---

(٢٤) زاد المسلم ٢ / [illegible] .

والمنفق المطبوع على الانفاق بصورة رجلين عليهما درعان من حديد تغطى من جسمهما الجسم الواقع بين الثديين والترقوة ، فأما المنفق المطبوع على الانفاق فلا ينفق الا ازدادت نفسه ارتياحا وإلاّ ازداد صدره انشراحا فأشبه فى تلك الحال الذى يلبس درعا مرنه تمتد وتستجيب لرغباتــه فتغطى من جسمه ما يشاء أن يغطيه حتى تستر أصابع يديه وتمحــو آثار مشيه .

أمّا البخيل المطبوع على البخل فلا يفكر فى الانفاق الا ضمّت نفسه فشعر بالاختناق وأحسّ بالضيق يملك عليه أقطار نفسه دون أن يملك ازاءه صنعًا فأشبه فى تلك الحال الرجل الذى يلبس درع حديد ضيقة تلتصق بجسمه لا يهمّ بحركة الاّ اشتد التصاقها فلزمت كل حلقة منهـا مكانها وكلما حاول توسيعها ازدادت التصاقا حتى كادت تخنقه .

فالرسول صلى الله عليه وسلم قدّم الصورة المادية من خــلال الاستجابة النفسية فى حالتى البخل والانفاق فاذا كل صورة ماثلة على حدة أمام العين كيانًا حيًّا يقصد ويريد فتستجيب فطرته لما يقصـد ويريد أو لا يستجيب فتهدأ نفسه وتستريح أو يضيق صدره حتى يكـاد يختنق ، فالمنفق الكريم يهتز للعطاء وترتاح نفسه للبذل والبخيل تنقبـض

نفسه ويلين صدره ويتحرّج عند العطاء .

كما أنه صلى الله عليه وسلم حرص أن تبدو الصورة أثر انفاق الجواد وشحّ البخيل المنعكس على حياة كل منهما، فألقى على الصورتين ظلالاً موحية تشير الى ذلك الأثر ، ففي صورة المنفق لم يقف في الحديث عن جبته عند حدّ الاتساع الذي يحقق النفس الهادئ المريح وانّما أضاف الى ذلك ما يشير الى أثر الانفاق على حياته في واقعه ومستقبله (حتى تخفي بنانه وتعفو أثره) فالجبة التي تعلوه لا تتسع بمقدار الراحة النفسية فحسب، تتجاوز ذلك الى أن تغطي أطرافه وتخفي زلاته وتمحو آثار خطاياه .

وفي صورة البخيل لم يقف في الحديث عن جبته عند حدّ الضيق والالتصاق الذي يحقق ضيق الصدر وانّما أضاف الى ذلك ما يوحي الى أن أثر البخل على حياته في واقعه ومستقبله (فهو يوسعها فلا تتسع) فالجبة التي تعلوه لا تضيق بمقدار تصوير الضيق النفسي فحسب بل انما تتجاوز ذلك التصوير الى ما يصادفه في واقعه الذي كان ينتظر فيه بحبوحة عيش تحقق بما يبخل به من المال على الآخرين ، انما تحمله فهو في ضيق نفسي وضيق مادي وتمر ارادته يريد فلا يطلك

تحقيق ما يريد ، استلط الشح والبخل عليه وتحكمه فيه .

كذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن تتم صورة المنفق من أثر الانفاق العكسي على المال فبين أن الانفاق وسيلة تنمية وزيادة (ما بنفق إلاّ سبقت أو ونت) كما حرص أن تتم صورة البخيل من أثر البخل العكسي على المال فبين أن البخل وسيلة تجميد وضياع اذا منع المال من وظيفته يتساوى عليه فيستوى وجوده والعدم سواء .

(وبذلك يتمكن البيان النبوى من النفس البشرية تمكنا قائما على الامتاع الفني والاقناع النفسي والعقلي فالصورة التي يقدمها لا تغادر مخيلة المتلقي لهذا الحديث بل تظل ماثلة أمامه يرى ما يواجهه كل فرد فيها من جراء هذه التجربة الشخصية التي هي تجربة كل فرد فينا فيقبل على صورة المتلقي السابغ على الانفاق وينفر من صورة البخيل المطبوع على البخل فيتولد في نفسه بغض البخل وما يؤدى اليه دون تصريح بما يقصد اليه من ذلك)[٢٥]

ومما يزيد تشبيهات الرسول وتمثيلاته صلى الله عليه وسلم روعة ، النسق اللغوى والنظم النبوى فهو يتخير الألفاظ وينتقيها انتقاء

---

(٢٥) تأملات في البيان النبوى - ابراهيم عوضين ص ٤٤

يؤدى الى الثروة فى المعنى ، وقد أشرنا الى ذلك آنفا عندما تحدثنا عن اختياره الألفاظ . فهو يختار الفعل (بعث) فى قوله (إن مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم) بدلا من أرسل أو أوحى الى غير ذلك ونحس الذوق الفنى المتميز فى اختيار هذا اللفظ فالفارق شاسع بين البعث والارسال والايحاء وإن كان دقيقا لا يتنبه اليه الا بطول تفكير وأناة إذ أن البعث يلقى ظلالا على المبعوث به تكشف عن حقيقته ، فليس كل مكلف بتبليغ مبعوثا لأن البعث فى أصله احياء وانقاذ عن غفلة أو موت فاختيار (بعث) يوحى بأن ما جاء به من الله أحدث أثره أولاً فيمن كلف بالتبليغ وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فأحيا نفسه ونبّه غافلة ثم انتقل به الى الآخرين أملا فى أن يحدث أثره فيهم كما أحدث أثره فيه هو .

لا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد وفق توفيقاً عجيبا لاختيار هذا الفعل (بعث) دون سواه وذلك لارتباطه الوثيق بالمعنى الذى يريده ويتوخاه . فالصورة التى أراد أن يرسمها صلوات الله وسلامه عليه فيها معانى الحياة والاحياء والانبات وكلمة البعث أقرب الى هذه المعانى من الكلمات الأخرى التى قد تحسب مترادفة أو كالمترادفة كالارسال والايحاء .

أما الارسال فهو الاطلاق من القيود. فاذا كلّف شخص بتبليغ رسالة الى الآخرين فهذا يعني أن الوصول مجرد حامل لأمر لا يعنيه في ذاته بشئ أكثر من أن يبلغه للآخرين دون أن يتأثر هو به فالارسال وظيفته مادّية فحسب، أما البعث فوظيفته ذاتية معنوية وخارجية مادّية فالبعث أخص من الارسال لأنه ارسال في حال معينة والارسال يشمل اذاً تبليغ ما كان فيه بعث وما لم يكن .

أما الايحاء فهو لا يشير إلاّ الى الموحي والموحى به والموحى اليه، أما بقية الناس الذين يراد بيان أنواعهم في ذلك الحديث فلا يتعلق [illegible] .

كما يلاحظ في تشبيهاته صلى الله عليه وسلم استعماله لأداتين من أدوات التشبيه فهو يقول (مثل كذا كمثل كذا ....) فالكاف أداة تفيد التشبيه والتساوي ومثل ليست تكراراً لأداة التشبيه كما يتوهم بل هي لفظة تعمل في نقل المتلقي من عالم الذهن والخيال الى عالم الحس والواقع فأصل الكلمة بمعنى المثول والحضور والانتقال من مكان الى مكان آخر ، جاء في اللسان(٦) :- (مثل الشئ مثولا ومثل قام

---

(٦) لسان العرب ، المجلد ١١ ، ص ٦١٤ .

منتصبًا وظل يمثل زال عن موضعه) .

ومن ذلك يكون قوله صلى الله عليه وسلم - كمثل بمعنى (الصورة) ويكون معنى حديثه السابق مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل ...... الخ) أى كصورة الغيث الكثير فإدخال الكاف على كلمة مثل له وظيفته البيانية التى تغيب عن كثير وذلك لاننا نذكر اذا كان المراد تقديم المشبه به فى هيئته مركبًا كما فى الحديث . فاذا كان القصد الى المشبه به مفردا لم يكن لذكرها محل .

وايثاره صلى الله عليه وسلم لكلمة (الغيث) على غيرها من الماء أو المطر أو الوابل وغير ذلك من أسماء الماء النّازل الى الأرض يوحى إلى ما يرجى منها وما تعود به على ما يصيبه الغيث مطر يغيث فهو المطر النازل بقدر وهو المطر الذى يصيب من هم فى حاجة له ومن صورة الغيث يتراءى لنا أناس يتهددهم الموت عطشًا يستردّون أنفاسهم حين أصابهم من الماء قدر ما يلبى حاجاتهم ولا يعوق سير حياتهم .

وجاء في اللسان :- (الغيث المطر والكلأ وقيل الأصل المطر ثم سمي ما ينبت به غيثاً ، أنشد ثعلب :-

وما زلت مثل الغيث ، يركب مرة
فيملي ، ويولي مرة فيثيب .

أي أنا كالمطر يرفل ، ثم يصيبه الغيث فيرجع أي يذهب ماله ثم يعود) (٢)

---

(٢) لسان العرب مادة غيث المجلد الثاني ص ١٧٥ .

الفصـل الثـالـث

الاستعـارة

الاستعارة مأخوذة من الاستعارة الحقيقية ، وهي نقل الشئ من حيازة فرد الى فرد آخر ، وقد نقل علماء البيان هذا الاسم من حقيقته الى المجاز بالاستعارة وهي نقل اللفظ من معنى عُرف به في اللغة الى معنى آخر لم يُعرف .

يقول ابن الاثير[1]:- (سمي هذا القسم من الكلام استعارة لأن الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء ولا يقع ذلك الا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئا ، واذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً اذ لا يعرفه حتى يستعير منه وهذا الحكم جار في استعارة الالفاظ بعضها من بعض فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما الى الآخر كالمعارفة بين الشخصين في نقل الشئ المستعار من أحدهما الى الآخر)

---

(١) المثل السائر ٢ / ٧٧ .

والجرجاني عرّف الاستعارة في عدة مواضع منها قوله [٢] (اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدلّ الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل وينقله اليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعاريّة) وفي دلائل الاعجاز يقول (الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه)[٣].

وقال في تعريفها ابو هلال العسكري [٤] (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لغرض ، وذلك الغرض اما أن يكون شرح المعنى وفضل الابانة عنه أو تأكيده أو المبالغة فيه أو الاشارة اليه بالقليل من اللفظ .

---

(٢) أسرار البلاغة / ٢٠

(٣) دلائل الاعجاز / [illegible]

(٤) الصناعتين / ٢٠٥ .

أما ابن الأثير فقوله فيها :-

(والذي عندي من ذلك أن يقال إنّ حدّ الاستعارة ، نقل المعنى من لفظ الى لفظ ، لمشاركة بينهما ، مع طيّ ذكر المنقول اليه لأنه إذا احترز فيه هذا الاحتراز ، اختص بالاستعارة ، وكان حدّا لها دون التشبيه وطريقه أنك تريد تشبيه الشيء بالشيء مظهرا ومضمرا ، وتجيء الى المشبه فتعيره اسم المشبه به وتجريه عليه مثال ذلك قول الشاعر

فرعاء ان نهضت لحاجتها

عجل القضيب وأبطأ الدّعص

فالشاعر أراد تشبيه القد بالقضيب ، والردف بالدعص الذي هو كثيب الرّمل ، فترك التشبيه مظهرا ومضمرا وجاء الى المشبه والدّعص وأجراه عليه .)[١]

والاستعارة لابد لها من قرينة تفهم من فحوى اللفظ ، ألا ترى الى قول الشاعر (عجل القضيب وأبطأ الدعص ، فإنّه دلّ عليه من نفس البيت لأن قوله (فرعاء ان نهضت) دليل على أن المراد هو القدّ والردف لأن القضيب والدعص لا يكونان لامرأة فرعاء تنهض لحاجتها . وكذلك

---

(١) المثل السائر ٢ - ٨٤ .

فكلّ ما يترتب على هذا الاصطلاح ، أن المستعار له وهو المنقول إليه مقصورٌ الأمر .

والبلاغيّون وضعوا للاستعارة أركانًا ثلاثة هي المستعار له، وهو المشبه، والمستعار منه وهو المشبه به، والمستعار وهو الوجه : اذا كنا قد علمنا أن للتشبيه أركانًا أربعة؛ هي المشبه والمشبه به والوجه والأداة فالاستعارة لابدّ فيها من حذف الأداة والوجه وأحد طرفي التشبيه (المشبه أو المشبه به) فهي مبنية على التشبيه وتقوم على تناسيه وادّعاء أنّ المشبّه هو نفس المشبّه به .

وإذا كان التشبيه أكثر ما يستعمل ليكون لبيان المعنى ووضوح الفكرة، فإن الاستعارة أكثر ما تكون تستعمل في القوة وشدّة التأثير في السامعين .

وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري(٦) : ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا ، والشاهد على أن الاستعارة المصيبة من الموقع

---

(٦) الصناعتين / ٢٠٥

مالبس للحقيقة قول الله تعالى (يوم يكشف عن ساق)[١] أبلغ

وأحسن وأدخل مما قدر له من قوله لو قال : يوم يكشف عن شدة

الأمر وإن كان المعنيان واحدًا ، ألا ترى أنك تقول لمن يحتاج الى

الجد في أمره : شمر عن ساقك فيه واشدد حيازيمك له . فيكون

هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك جد في أمرك) .

وتأثير الاستعارة في العواطف والنفس يعتمد على الخيال وعلى

عرض الصور والأعمال عرضًا حسيًا مجسمًا ليرى المتلقي في ألفاظها

من الألوان والمعاني ما يراه إذا هو نظر إلى رسم أو تبصر في تمثال

وذلك أن اللغة وضعت في الأصل للتعبير

عن الحقائق العقلية فإذا ما أراد المتكلم لأداء ما في

نفسه من الانفعالات شعر بأنها دون ما في باطنه من قوة العاطفة

وحرارة الشعور فالألفاظ دائما في حالة قصور وعجز عن ملاحقة فيض

المشاعر الانسانية لذلك يحاول اصطناع لغة أخرى تسمو الى مستوى

---

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن / ١٩٧ .

نفسه الثائرة فيستطيع تصوير ما فيها من آثار القوة الوجدانية فيلجأ الى الخيال والى الصورة التى تجسم المعانى وتنقلها الى درجة أرقى لتزداد عنها جمالا (٨).

وفضل الاستعارة على الحقيقة أنها تفعل فى نفوس السامع ما لا تفعل الحقيقة فقوله تعالى (الشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) (٩) المراد به - والله أعلم - أن الشعراء يذهبون فى أقوالهم المذاهب المختلفة ويسلكون الطرق المتشعبة وذلك كما يقول الرجل لصاحبه اذا كان مخالفا له فى رأى أو مباعداً له فى كلام : أنا فى واد وأنت فى واد أى أنت ذاهب فى طريق وأنا ذاهب فى طريق ومثل ذلك قولهم فلان يهب مع كل ريح ويطير بكل جناح ، إذا كان تابعاً لكل قائد ومجيباً لكل ناعق .

وقيل : ان معنى ذلك تصرف الشاعر فى وجوه الكلام من مدح وذم ، وعتاب وغزل ، ونسيب ورثاء ، وتشبيب ، فشبهت هذه الأقسام

---

(٨) البيان فى ضوء أساليب القرآن / ٢٢٧ .

(٩) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٥ .

من الكلام بالأودية المتشعبة والسبل المختلفة .

ووصف الشعراء بالهيمان فيه فرط مبالغة في صفتهم بالذهاب في أقطارها والأبعاد في غاياتها لأن قوله سبحانه (يهيمون) أبلغ في هذا المعنى من قوله (يسعون أو يسيرون) ومع ذلك فالهيمان صفة من صفات من لا رجاحة معه وهي مخالفة لصفات ذي الحكم الرزين والعقل الرصين .

(واستعير لفظ (الأودية) للمقاصد والفنون الشعرية ، وخص الاستعارة (بالأودية) دون الطرق والمسالك لأن المعاني تستخرج بالفكرة والروية وفيهما خفاء وغموض ، فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة(١٠).

وقوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)(١١).

---

(١٠) الطراز [illegible]

(١١) الأعراف / ١٥٤ .

وصف الغضب بالسكوت، وهذا لا يجوز على الحقيقة وانما يكون على المجاز ، فقد شبه الغضب بانسان وحذف المشبه ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو السكوت ، واسناد السكوت الى الغضب هو قرينة الاستعارة .

وبلاغة الاستعارة في الشواهد السابقة تكمن في تمثيل مالي بمرئي حتى يصير مشاهدًا مرئيًا ، فينتقل السامع الى حد المشاهدة والعيان وذلك أقوى في التأثير وأبلغ في البيان .

ورسولنا صلى الله عليه وسلم استعان بالاستعارة في كثير من أحاديثه تقوية للمعاني وتأثيرًا في السامع وتصويرًا للمعاني الذهنية والنفسية والعاطفية لتقريب تلك المعاني .

فهو إن أراد حثنا وحث أصحابه الميامين على العلم والحرص على تلقيه استعار له لفظا يناسبه في الفائدة وهو " اللبن" لاشتراكهما في كثرة النفع ولأن اللبن غذاء البدن والعلم غذاء الروح وذلك في حديث لابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أني لأرى الري يخرج من أظافري ثم أعطيت

فضلني عمر بن الخطّاب قالوا : ما أزّلته يا رسول الله؟ قال (الحلم)[١٢].

فهو يستعير لفظ اللين وهو شيء مادىّ ملموس للحلم الذي هو شيء محسوق ليعرضه في صورة مرئية ملموسة فيكون له الأثر البليغ والوقع اللطيف . والجامع بينهما هو الفائدة ، فالاستعارة هنا أبلغ لأنّ اللّين يحسّ والحلم الذى تكمن فيه الفائدة لا يحسّ وهو نوع من الاستعارة يطلق عليه البيانيون اسم الاستعارة الأصلية وهى التى يكون اللفظ المستعار فيها اسما جامدًا سواء كان اسم عين يصلح بأصل وضعه - لأن يصدق على كثير مثل أسد ، بدر ، بحر . أو اسم عين يصلح - بعد التأويل فيه - لأن يصدق على كثير مثل عمرو ، حاتم ، أحنف ، اياس وهذه أعلام لأشخاص إلا أنّها تؤوّل فتجعل اسم جنس موضوع لمطلق ذات متصفة بالاقدام والشجاعة عند عمرو والجود والكرم عند حاتم والحلم عند أحنف والذكاء عند اياس .

قال أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم

أبليت هذا المجد أبعد غاية

فيه وأكرم شيمة ونحاس

إقدام عمرو في سماحة حاتم

في حلم أحنف في ذكاء اياس

---

(١٢) ديوان ابي تمام شرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام دار المعارف مصر ٢ / ٢٥٠ .

وعمرو هو عمرو بن معد يكرب واياس يعني به اياس بن
معاوية قاضيا كان بالبصرة يوصف بالذكاء أما حاتم فهو حاتم الطّائي
الجواد المعروف وأحنف يقصد به الأحنف بن قيس وهم قوم اشتهر
أمرهم في تلك الصفات .

واللفظ المستعار في الاستعارة الأصلية قد يكون معنى يصلح لأن يصدق
على كثير مثل الضرب ، الكتابة والجلوس .

وهو إن أراد صلّى الله عليه وسلّم أن يقرّب معنى الاسلام الى
الأذهان تقريبًا ماديًا يكون ملموسًا جعله كالبناء الذي لابدّ له من
أركان يقوم عليها ولابدّ من تماسك هذه الأركان جميعًا لبقائه ومنع
الانهيار من حوله ومن خلال ذلك يحثهم على التمسك بهذه العناصر
جميعا وعدم التهاون أو التفريط في أيّ منها لأن ذلك يؤدي الى التفريط
في باقيها كلّه ، وكما أن زوال ركن يهدد باقي الأركان فإن تهدّم لبنة
واحدة هو أول الطريق لتهدم باقي الجدار كلّه فيقول عليه الصلاة والسلام
فيما رواه الشيخان : (بُني الاسلام على خمس : شهادة ألاّ إله إلاّ الله
وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت) .

صورة رائعة لها في النفس أثر بالغ اذ أن المستمع لهذا الحديث لا ينفك تتراءى أمامه صورة البناء المعتمد على هذه الأركان وهو ثابت غير أنه إذا تداعى أحد هذه الأركان إنهار البناء من أوله وهذه الصورة البيانية استعارة حذف فيها المشبه ورمز له بإثبات لازم من لوازمه والمشبه في هذا المثال هو البناء الذي حذف ورمز اليه بشيء من لوازمه بكلمة الفعل المجهول في ماضي البناء (بُنِيَ) .

وهو إن أراد صلى الله عليه وسلم توثيق الصلات الاجتماعية وتقرير علاقات المؤمنين بعضهم ببعض ، مشيراً الى أهمية توثيقها وتقويتها وخطورة تهديدها بالقطيعة لما فيها من ضرر على الطرفين ، وجدناه يأتي بذلك في صورة الاستعارة فيقول (لا يحلّ لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)(١٤) .

فالتعبير في الاصل هو تشبيه الصديق بالأخ للقرب الحاصل اليه ثم أبقى المشبه به على أصله مما يعرف بالاستعارة التصريحية الاصلية التي يكون اللفظ المستعار فيها اسما جامدا كالأخ .

---

(١٤) هداية البارى ٢/ ٢٢٦ .

وحديث آخر يؤكد نفس المعنى وفيه تستعمل الاستعارة ،
(عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " الرحم معلقة بالعرش ، تقول من وصلني وصله الله ومن
قطعني قطعه الله) فالمراد هنا توضيح معنى ذهني وهو صلة
الرحم التي هي القرابة والنسب فشبهها عليه الصلاة والسلام بالحبل
ثم حذف المشبه به الذي هو الحبل وأثبت لازماً من لوازمه للمشبه
وهو التعلق وهي استعارة بالكناية .

كما أن الحديث كله يمكن أن يكون استعارة تمثيلية وهي :-
اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة
مانعة من ارادة المعنى الحقيقي . فالرسول صلى الله عليه وسلم يشبه
حال الرحم وما هي عليه من الافتقار للصلة والتضرر منها من القطيعة بحال
مستجير يأخذ بذيل المستجار ، ثم أدخل صورة حال المشبه به
وحذفه واستعمل في حال المشبه ما كان مستعملا في المشبه به من
الالفاظ بقرائن الأحوال وجاء بهذه الصورة المحسوسة إلى فهم البشر
وهي أمكن في نفوسهم .

ولما كانت الجنة لا يوصل اليها الا بالعبادات والمواظبة عليها
والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والاحسان
إلى المسيئ ومقاومة النفس في ميلها إلى الشهوات وتهورها وغير

ذلك من الامور الصّعبة . والنّار على عكس ماذكرنا ، فطريقها طريق الشهوات المحرّمة كالخمر والزّنا والغيبة والنميمة والملاهي وما أشبه ذلك ، وكل هذه الأشياء تحبّها النفس وتميل إليها ، وارتكابها يوصل إلى النّار .

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أكثر رغبة في الجنة وأعظم اشتياقاً اليها وكانوا يرغبون عن النار ويزجرهم خوفهما لذلك أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوصل ذلك المعنى الى نفوسهم ويوضح الطريق الى كلّ منهما ، فوجد في الاستعارة الايجاز والتصوير ، فشبه الجنة والنار ببستان أحيطا بسور وحذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه بلفظ الفعل المجهول فقال (حُفّت الجنة بالمكاره وحفّت الجنة بالشهوات) .

كلمات موجزة بليغة فصيحة تامّة متناهية تعدّ من جوامع الكلم وهي البلاغة التي أوتيها الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم . استعارة استطاعت أن توصل المعنى الى النفس فتؤثر فيها تأثيراً لاتقوم مقامه الحقيقة فجمالها أتى من أنها صوّرت المعنى للسامع تصويرا مؤثراً في النفس يبعدها عن حياة الجسد والمادة التى يتهالك عليها الانسان كما يتهالك الفراش على النّار التي تتراءى له في ثوب جميل وفي باطنها سمّ زعاف .

وهذه الجنة التي هي أمل كل مؤمن وتلك النّار التي هي نهاية كل كافر ستستقر ، تعيش حياته كلها صلى الله عليه وسلم يرغب في الجنة ويوضح الطرق اليها ويخوف من النار وينهى عن ارتكاب ما يقرب اليها فنجده يصوّر ذلك ويجسّده تجسيداً ويشخّصه تشخيصاً ويضفي عليهما من صفات الكائن الحي ، من الكلام والاحتجاج والشّكوى فيقول (تحاجّت الجنّة والنّار فقالت النّار أوثرت بالمتكبّرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم فقال الله للجنّة :- إنّما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنّار : انّما أنت عذابي أعذّب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها) [(١٥)] .

فالجنة والنار من مخلوقات الله الصامتة الجامدة التي لا تنطق ولا تبين لكنها لو كانت ممن ينطق لنطقت من امتلائها بأصناف البشر المختلفة وهذا لون من ألوان التصوير سمّاه سيد قطب التشخيص [(١٦)] وهو يتمثّل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية وهذه الحياة ترتقي فتصبح حياة إنسانيّة وتهب لهذه الأشياء كلّ عواطف آدميّة وخلجات انسانية تشارك بها الآدميين وتأخذ منهم وتعطي .

---

(١٥) زاد المسلم ١/ ١٥٢ .
(١٦) التصوير الفني في القرآن / [illegible] .

فالنّار في احتفافها والجنة في احتفافها مصورتا بإنسان يتميز بصفة القوة والاحتواء ويدلّ هذا التشبيه بإثبات لازم له من صور الاحتواء بالصور المناسبه وهذا ما عرفناه أسلفنا بالاستعارة المكنية أو الاستعارة بالكناية والمراد بالكناية المعنى اللغوي وهو الخفاء .

وهذا التجسيد لاتتأتى صورته المجسدة تبارح خيال الناظر ونظره وهو ينظر الى الأصناف من المتكبرين والمتجبرين الذين يدخلون النار ، فينفر من تلك الصفات ويتأمل أصحاب الجنة الضعفاء فيجد في ذلك الضعف ما يميزهم عن أصحاب التجبر والتكبر .

بعد أن وقفنا على هذه الأمثلة للاستعارات النبوية ، تتضح لنا الأسرار التي دعته صلى الله عليه وسلم إلى إيثار الاستعارة على الحقيقة ومن أن الألفاظ المستعارة الموحيه أصدق أداء إذ تجعل المتلقي يحس بالمعنى أكثر إحساس فهو يلمس المعنى ويحسه ، فضلاً عن إيحاءات الكلمة الى النفس ، كما أن التجسيد الذي يهب الجماد عقلا وحياة فيه زيادة في تصوير المعنى وتشابهه للنفس والتأمل ونتبين مما هذا الحديث (إن الدّين يسر ولن يشادّ الدّين أحد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرّوحة وشئ من الدّلجة) (٦٦) .

---

(٦٦) عمدة القارئ [illegible] / [illegible] .

صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمات يحس المستمع بحس بالدّين من الشيء المعنوىّ والروحي - وكأنه ملموس يشاهد ويغلب وهو بهذا التصوير البليع يحذرهم من المغالاة والمبالغة ، حتى فى أمر الدّين ، وفى ألفاظ الغدوة والروحة وشيء من الدلجة استعارة لطيفة ، فهو صلى الله عليه وسلم قد استعملها استعمالا مجازيًا رائعا مستعارا ، لتدل على أوقات النشاط أو الفراغ من الدّنيا للطاعة كما أنه يجعل المستقل بأمر الدّين كالمسافر الذى يقطع الطريق للوصول الى المقصد وينبّه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ،على أوقات النشاط لأن هذه الأوقات هى أفضل الأوقات للمسافر فتحريها يمكن المداومة ومجانبتها تكون الى الانقطاع والعجز . وهو القائل (ان المنبت لا ظهرا أبقى ولا أرضا قطع)(١) .

وأول ما يسترعى الانتباه والنظر فى خصائص الاستعارة النبوية أنها تستمد عناصرها من الطبيعة والبيئة وفى ذلك أثر كبير لأن أصحابه رضوان الله عليهم يعرفون هذه العناصر ويحسونها ويرونها قريبة منهم وبين أيديهم .

---

(١) مجمع الامثال - الميدانى ، ابو الفضل أحمد بن محمد النيسابورى مكتبة الحياة (١) (بيروت صفحة ١٥

فهو إن أراد أن يرشدهم إلى أن صانع المعروف يلزمه أن يتخير المال للتصدق اختار لهذا المعنى ما هو مألوف لديهم محبوب لأنفسهم حتى تكون الصورة أقرب، فيختار الناقة ذات اللبن القريبة العهد بالنتاج والشاة الحافلة الضرع التي تدر إناءً بالغداة وآخر بالعشي فيقول صلى الله عليه وسلم :- (نعم الصدقة اللقحة الصفي منحة والشاة الصفي منحة تغدو بإناء وتروح بآخر)(١٨) وهو من قبيل قوله تعالى :- (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم)(١٩) وقوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم)(٢٠) .

(ومن محاسن استعاراته وبدائع مجازاته أنه يشبه الإسلام في أول ظهوره بالمسافر الغريب الذي قل أنصاره وبعدت دياره لأن الإسلام كان على هذه الصفة في أول ظهوره ثم استقرت قواعده واشتدت معاقده وكثر أعوانه وضرب جرانه . ويجعله كذلك غريبا أي يعود إلى مثل الحال الأولى في قلة العاملين بشرائعه والقائمين بوظائفه لا أنه والعياذ بالله تنمحي سماته وتدرس آياته، وأصحابه أهل أسفار وترحال

---

(١٨) عمدة القاري [illegible]

(١٩) سورة البقرة / ٢٦٧

(٢٠) سورة آل عمران / ٩٢ .

فكان بليغا أن يستعير الدين لفظ الغريب إذ يقول (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا)(٦١).

ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)(٦٢) .

فالاستعارة هنا منتزعة من البيئة العربية التي تقوم غالبا على حياة الرعاية والصيانة والزرع والرسول صلى الله عليه وسلم يخاطب العرب بلغتهم ويحدثهم بالأسلوب الذي يدركونه ولا يخالف أنظارهم . فالحمى المكان الذي يحميه صاحبه من دخول الناس اليه لأنه خاص به وكان للملوك والأمراء قديما مناطق محرمة وكان من يحرص على السلامة أن يبتعد عنها خشية أن يؤدي القرب منها إلى الوقوع فيها والحمى لله هو المحرمات التي يمنع المؤمنين من غشيانها وشبهت المحارم بالأرض والمرعى الذي يحميه صاحبه وحذف المشبه به على أسلوب الاستعارة المكنية .

---

(٦١) المجازات النبوية / ٣٢

(٦٢) هداية الباري ١ / ٢٠٥ .

ومن ذلك أيضا قوله عليه الصلاة والسلام في كلام للأنصار (أنتم الشعار والناس الدثار)[٢٢] وهذا مجاز قريب المأخذ لأنه عليه الصلاة والسلام أراد أنتم أقرب الناس مني وأشدهم اشتمالا علي فأنتم كالشعار وهو الثوب الذي يلي بدن الانسان والناس الدثار لأنهم أبعد مني وأنتم بينهم وبيني ومثل ذلك قولهم :- فلان بطانة فلان كناية عن القرب منه والاختصاص به تشبيها ببطانة الثوب التي تلي الجسد وتكون أقرب منه وهم بالبادية يدرون كل ذلك ويميزون بين الشعار والدثار فخاطبهم بما ألفوا وحدثهم بما عرفوا .

ومن قوله صلى الله عليه وسلم (الاسلام يجب ما قبله) والاستعارة أن الجب هو اختزال السنام من أصله فكأنه عليه الصلاة والسلام جعل الاسلام مستأصلا لكل ذنب تقدم للانسان قبله حتى لا يدع له جناية يحذر عاقبتها ولا معرة يسوء الحديث عنها بل يعفى على ما تقدم من السوءات وما ستر من العورات . وهم أهل الابل العارفين بأحوالها المعتمدين عليها في كل أمورهم فجاء بالاستعارة متعلقة بها . وهذا دأبه في كل تشبيهاته واستعاراته أن تكون قريبة منتزعة من البيئة حتى تكون أقرب في المأخذ وأبلغ في الأثر .

---

(٢٢) المجازات النبوية / ٤١ .

الفصـــل الثـالــث

الكنـــايـــة

الكناية لغـة : هى الستر والخفاء . يقال كنيت الشـيء اذا سترته أو أخفيته . وكذلك كنى يكنى قال بشر بن أبى خازم الاسدى :

ولو أنى أشاء كننت نفسى

إلى بيضاء بهكنـة شمـوع

والكناية فى اصطلاح البيانيين :- لفظ أريد به لازم معنـاه مع جواز إرادته . فالصلة بين المعنى الحقيقى والمجازى فى الكناية هى صلة التلازم وهى فى الاستعارة صلة التشابه . وسميت بهذا الاسم لأن هذا النوع من الكلام ، يستر معنى ويظهر غيره ، جاء فى اللسان[١] الكناية أن تتكلم بشئ وتريد غيره .

والكناية عدها أكثر العلماء من ابواب المجاز، منهم ابن الاثير[٢] وذلك لان اللفظ فيها مستعمل فى غير ما وضع له فقد أطلق وأريد به معنى آخر غير معناه الأصلى ومن أمثلتها :-

قال تعالى (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان)[٣]

---

(١) لسان العرب ، ١٥ / ٢٣٣

(٢) انظر المثل السائر / ٢ / ١٧٥

(٣) سورة الرحمن آية ٥٦ .

فقصر الطرف كناية عن العفة أو أن نساء أهل الجنة يقنعن بأزواجهن فلا يتطلعن لغيرهم .

ومنها قول عمر بن أبي ربيعة (٤) .

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل

أبوها وإما عبد شمس وهاشم

أراد أن يصف طول عنقها فأتى بما دل عليه من بعد مهوى القرط وهو ردف لطول العنق وملازم له .

وابن رشيق يطلق عليها اسم التتبيع ويذكر أن قوماً يسمونها التجاوز وهو أن يريد الشاعر ذكر شيء فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة (٥) .

والبيانيون يقسمون الكناية إلى عدة تقسيمات منها :-

أ) الكناية عن صفة كأن تصف البخيل بأن يده مغلولة .

(ب) أو كناية عن موصوف ، وقد جمع المتنبي الكناية عن صفة وعن

---

(٤) العمدة - ١/ ٣١٣

(٥) المرجع السابق نفسه .

موصوف في مدحه لسيف الدولة لما ظفر ببني كلاب، فقال :-

فمسّاهم وبسطهم حريـــــــر
وصبّحهم وبسطهم تـــــــراب

ومن في كفه منهم قنـــــاة
كمن في كفه منهم خضـــــاب

ففي البيت الأول كناية عن صفة إذ كنّى بـ(بسطهم حريـــــر) عن السيادة والعزة وبـ (بسطهم تراب) عن المهانة والذلّة .
وفي البيت الثاني كناية عن موصوف ، إذ كنّى بقوله (في كفه منهم قنـــاة) عن الرجال، وكنى بقوله (من في كفه منهم خضاب) عن المرأة . والمعنى أن أعداء سيف الدولة قد خضعوا أمام قوته فكان الرجل والمرأة بمنزلة سواء .

( ) وقسم ثالث هو كناية عن نسبة ، قال جميل بن معمر يستعطف صاحبته بثينة :-

أما تتقين اللّه في جنب وامق
له كبد حرّى عليك تقطّع
غريب مشوق مولع بادّكاركم
وكلّ غريب الدار بالشوق مولع

ومعناه أسا تخافين الله في جنب ... محبّ ، أي في حقه الواجب عليك . فالجنب كناية عن ذلك وإن أنت أثبت الأمر في مكان الرجل وحيّزه فقد أثبته فيه .

وفي كل الأمثلة التي سقناها المراد ... إثبات معنى من المعاني لانسان أو نفيه عنه ، من طريق الكناية لا من طريق التصريح .

وبلاغة الكناية تكمن في أداء المعاني وتصويرها فهي راسمة صورة حوحية تقرب المعاني للذهن وتؤثر في النفس . كما أنها أيضا تفيد الايجاز فهي تنقل المعنى وافيا في لفظ وجيز .

ومن أغراضها أن تكون مؤدبة ، مهذبة تتجنب ماينبو علي الأذن سماعه أي أن من فوائدها التحرز عن ذكر الفواحش السخيفة بالكنايات اللطيفة وإبدال ما يفحش ذكره في الاسماع بما لا تنبو عنه الطباع كما يقول الجرجاني في مقدمة كتابه الكنايات ، ويورد بعض الأمثلة من القرآن والآثار والأحاديث نورد منها مثالا من القرآن الكريم قوله تعالى (أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا) (١) . فكنّى بالملامسة عن الجماع اذ لا يخلو منها غالبا وروي عن ابن عباس انه قال ان الله حييّ كريم يعفو ويكني عن الجماع بالملامسة (٢) .

---

(١) سورة المائدة / ٦

(٢) المنتخب من كنايات الأدباء الجرجاني ، القاضي أبو العباس أحمد بن محمد طبعة أولى مطبعة السعادة ١٩٠٨ مصر ص ٦ .

ومن أغراض الكناية ترك اللفظ المتطيّر من ذكره الى ما هو أجمل منه كقولهم لحق فلان بأسلافه واستوفى أكله ولحق باللطيف الخبير يكنون به عن الموت فعدلوا الى هذه الالفاظ تطيّرا من ذكره بلفظه وكقولهم للمهلكة مفازة تفاؤلا بذكرها .

ومنها القصد الى الذمّ بلفظ ظاهره المدح كقول العرب :-
أرانيه الله أغرّ محجّلاً أى مقيّداً فظاهر اللفظ المدح وباطنه الذمّ (١)

والكناية فى البيان النبوى تقوم بدورها كاملاً غير منقوص فى أداء المعانى وتصويرها أدق تصوير وتهذيب للألفاظ وابدال ما يفحش ذكره ويستهجن بما تقبله الطّباع وتلذّ له الأسماع .

فهو إن أراد صلّى اللّه عليه وسلم أن يحث أصحابه الصابرين على الجهاد فى اعلاء كلمة الحق، ويوضح لهم أن فيه طريقاً للجنة وهم أكثر الناس شوقًا لها ولرائحتها جاء ذلك فى كناية لطيفة تجسّد المعنى وتصوّره وتنقله للذهن ، فلا يكاد يفارقه فهو يقول (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف

---

(١) المرجع السابق نفسه ص ٩٨ .

ثم قال : اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب أهزمهم وانصرنا عليهم)[١] فرسم صلى الله عليه وسلم صورة شاخصة للجنة وجعلها تحت ظلال السيوف فلم يصرح بلفظ الجهاد أو القتال وما يلزمه من أدوات وهى السيوف ولا شك أن هذه الصورة كافية شافية لتحبيب الجنة إلى النفوس المشتاقة اليها رغم ما فى الطريق من مشقة وعناء ونصب.

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (عليكم بسنتى وسنة المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ)[٢] وهو صلى الله عليه وسلم يريد بقوله (عضوا عليها بالنواجذ) أى اقاموا عليها وقفوا عندها ولا تتجاوزوها الى غيرها كما أن من " شد " العض بنواجذه على الشئ الذى يتأتى فيه القطع قطعه . والنواجذ أقصى الاضراس وهى أقواها وأمضاها وقد يجوز أن يكون المراد الامر بلزوم سنته عليه السلام كما ان العاض بنواجذه على الشئ الذى لا يتأتى فيه القطع يلزمه أشد اللزوم لقوة العزام واستحصاف اللزام ، فلما أراد ارشادهم إلى التمسك بسنته صور ذلك تصويرا دقيقا فى تركيب مجازى وهو العض بالنواجذ فأتت الصورة الذهنية شاخصة ماثلة ، لما فى النفس نصيب وفى القلب اثر بالغ

---

(١) هداية البارى ١ / ٢٨٨ .

(٢) المجازات النبوية / ١٦٠ .

وجاء في الصحيحين ما يحكيه المعرور بن سويد قال لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك فقال :- انى ساببت رجلا فعيّرته بأمه فقال لي النبي :- "يا أبا ذر أعيّرته بأمه ؟ انك امرؤ فيك جاهليّة ، اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم "[١] ويقال أنه عيّر بلالا مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي الحديث . كما هو واضح - ندب وحثّ على مكارم الاخلاق والتواضع والتياسر حتى لا يرى الانسان لنفسه مرتبة على عبده إذ الكل عبيد الله والمال مال اللّه لكن ملك بعضهم بعضا بيانا للنعمة وإظهارا للحكمة . ولمّا أراد الرسول صلى الله عليه وسلم بيان قدرته على الخدم والخدم - والذين ذكرهم بلفظ (خولكم) وقيل سموا بذلك لانهم يتخوّلون الامور أي يصلحونها - أتى بالكناية اللطيفة (تحت أيديكم) كناية عن القدرة والملك أي انتم مالكون لهم قادرون عليهم فكان الايجاز وكان التصوير وكان الاعجاز .

وفي الاخبار النبوية أن غلامًا حبشيا للنبي صلى الله عليه وسلم يقال له أنجشه ويكنّى أبا مارية كان في بعض أسفاره ، فحدا بالابل ، فطربت

---

(١) زاد المسلم ٤ / ٢٠٠ .

لـ سن حداءه فاسرعت في سيرها وعليها النساء فقال الرسول صلى عليه وسلم :- (ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير) .

ومعنى الحديث لا تحسن صوتك بالحداء فان الابل ان سمعت الحداء اسرعت في المشي واشتدت فأزعجت الراكب ولم يؤمن على النساء من السقوط واذا مشت رويداً أمن على النساء فجاءت عبارته فيها من الكنايات ألطفها وانما كنى عن النساء بالقوارير لامور ثلاثة :-

اولا : فلما دُنّ عليه من حفظ الاجنة والوعاء كالقارورة تحفظ فيها .

ثانيا : لاختصاصهن بالصفاء والرقة والحسن والنضارة .

ثالثا : فلما فيهن من الرقة والمسارعة الى التغيير والانثلام كما يتسارع الانثلام الى القارورة لرقتها . (١)

ومن كناياته صلى الله عليه وسلم التي تصور وترسم وتقرب المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لأزواجه (أسرعكنّ لحاقاً بي أطولكنّ يداً) (٢) ويقصد عليه الصلاة والسلام بقوله لحاقاً بي أول من تموت منهن بعد موته ويروى أنهنّ لما سمعن منه هذا القول جعلن يتذارعن ، ينظرن أيهن أطول يداً الى ان توفيت زينب بنت جحش أول من توفي منهن وكانت كثيرة المعروف فعلمن حينئذ أنه عليه الصلاة والسلام انما أراد بطول اليد كثرة البرّ وبذل الوفر

---

(١) الطراز جـ ١/ ٢٠٧ .
(٢) المجازات النبوية / ٦٦ .

وكنايته عليه الصلاة والسلام عن هذا المعنى بطول اليد مجاز واتساع لأن الأولى بأن يتمنى ما يعطيه الانسان غيره من الرفد والبر أن يعطيه ذلك بيده واليد حين تعطي لا [illegible] أنها تطول وتمتد . ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام (من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة) ومعنى هذا القول أن من يبذل خير الدنيا يجزه الله خير الآخرة وأخبر عليه السلام بما يبذل من نفع الدنيا باليد القصيرة لقلته في جنب نفع الآخرة لأن ذلك زائل ماض وهذا مقيم باق [1] .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء) [2] والمراد أن المؤمن يقتنع في مطعمه بما يقيم أوده ويعينه على الحياة وأما الكافر فان كل همه أن يتوسع في المأكل فهو عبد للذته تمادى في طاعة شهوته . فالعبارة الاولى كناية عن القناعة والثانية كناية عن النهم وهما صفتان والموصوف مذكور في العبارتين فهي من قسم الكناية عن الصفة .

والحديث بهذه العبارة الجامعة يشير الى أن من شأن المؤمن الاهتمام بالمعاني الروحية والأفكار المعنوية أكثر من اهتمامه بالماديات.

---

(1) المجازات النبوية / [illegible] .

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة باب المؤمن يأكل في معى واحد .

والكافر بعكس ذلك وعدن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنّ دعوة السلام تجئ دائمًا من مواطن الرّسالات ودعوة الحرب تأتي من جانب الذين لا يؤمنون الا بسلطان المعدة .

كما جاءت الكناية النبوية مصوّرة ، جاءت كذلك مهذّبة تأتي باللفظ اللطيف الشريف تحلّه محلّ المستكره المستهجن .

ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال (من كشف قناع امرأة وجب لها المهر) فهو لا يصرّح بالدخول عليها ومباضعتها بل يكني عنه بكشف القناع لانه يكشف في تلك الحال غالبا، والعرب تقول /عفة الانسان ما وضعت موسمة عنده قناعا)[1] .

وروى ايضا أن امرأة أتت الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: ان رفاعة طلقني وبتّ طلاقي وتزوجت بعبد الرحمن بن الزبير وليس معه الا مثل هدبة الثوب فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم . تريدين أن ترجعي الى رفاعة . لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك)[2].

وفي هذه العبارة الكناية عن حلاوة الجماع بحلاوة العسل، وكأنه أخبر

---

(١) الكنايات = الجرجاني ص ٦ .

(٢) المجازات النبوية / ٢٤٠ .

المرأة والرجل بالعسيلة المستودعة في فرجهما فلا يصح الحكم عليهما الا بعد الذوق منهما . وجاء صلى الله عليه وسلم باسم العسيلة مصغرا لسر لطيف في هذا المعنى وهو أنه اراد فعل الجماع دفعة واحدة وهو ما تحل به المرأة للزوج الاول ، فجعل ذلك بمنزلة الذواق القليل من العسيلة من غير استكثار منها ولا معاودة لأكلها فأوقع التصغير على الاسم وهو في الحقيقة للفعل .

ومن هذا الباب أنه صلى الله عليه وسلم قال (إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره ولكن شرّقوا وغرّبوا) (١).

ولفظ الغائط في الحديث كناية عن البراز أو ما يخرج من البطن ، والغائط في الأصل اسم المكان المنخفض من الارض وكانت العرب إذا ارادت قضاء حاجتهم أبعدوا عن العيون الى منخفض تسمى بذلك لكثرة استعماله فصار بمنزلة الصريح ، وجاء في لسان العرب: ((والغائط اسم العذرة نفسها لأنهم كانوا يلقونها بالغيطان ، وقيل : لانهم كانوا اذا أرادوا ذلك أتوا الغائط وقضوا الحاجة . فقيل لكل من قضى حاجته قد أتى الغائط ، يكنى به عن العذرة وفي التزيل (أو جاء احدكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا)(٢)

وفي الحديث أن رجلا جاءه فقال يارسول الله قل لأهل الغائط يحسنوا مخالطتي أراد أهل الوادي الذي ينزله))(٣) .

---

(١) زاد المسلم ١ / ١٤[illegible]

(٢) سورة المائدة / [illegible]

(٣) لسان العرب ٧ / [illegible] مادة غوط .

الفصل الرابع

التعريض

التعريض لغة - ضد التصريح ، يقال عرضت لفلان وبفلان اذا قلت قولاً وأنت تعنيه ، ومنه المعاريض في الكلام ، التورية بالشيء عن الشيء وفي المثل وهو حديث مخرج عن عمران بن حصين، مرفوع ان المعاريض لمندوحة عن الكذب ، أي سعة والمعاريض جمع معراض .

والتعريض في خطبة المرأة في عدتها أن يتكلم الرجل بكلام يشبه خطبتها ولا يصرح به وهو أن يقول لها : إنك جميلة ، وان نساء لنافعة ، وان النساء لمن حاجتي .

والتعريض في الاصطلاح : المعنى الحاصل عند اللفظ[1] لابه وهو أن يمال بالكلام الى جانب يفهم بالسياق والقرائن، ولا يفهم معنى التعريض من اللفظ .

وفي الحديث (لم يكذب ابراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله عز وجل قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقال بينا هو ذات يوم وسارة اذ اتى على جبار من الجبابرة

---

(١) الطراز ١ / ٣٧٠ .

فقيل له ان هذا الرجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل اليه فسأله عنها فقال من هذه ؟ قال . أختى سارة فأتى سارة فقال يا سارة ليس على وجه الارض مؤمن غيرى وغيرك وان هذا سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى فأرسل اليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعى الله لى ولا أضرك

فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال أدعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلق فدعا بعض حجبته فقال . أنك لم تأتينى بإنسان وإنما أتيتنى بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلّى فأومأ بيده مهيم[٢] قالت . ردّ الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره)[٣].

فالتعريض الذى ورد فى الحديث مندوحة عن الكذب كما قال عليه الصلاة والسلام ، فقول أبينا ابراهيم عليه السلام حينما دعاه قومه للخروج معهم للاحتفال بأصنامهم (إنى سقيم) لم يكن به مرض بل أراد إنى سقيم مريض القلب بسبب اطباقكم على الكفر والاشراك وقوله عليه السلام بل فعله كبيرهم) عندما سئل ' أأنت فعلت

---

(٢) مهيم . ما الخبر .

(٣) زاد المسلم . ٦٧/٢ .

هذا بآلهتنا يا ابراهيم) عندما وجدها مكسّرة الا كبيرها جاء رده على وجه التهكم والاستهزاء والسخرية بذلك يكون من وجهين :

(أحدهما أنه لم يرد نسبة الفعل الى كبير الاصنام وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على رمز خفي ومسلك تعريضي يبلغ به الزام الحجة لهم والتسفيه لحلومهم ، كأنه قال .

يا ضعفاء العقول ، ويا جهال البرية ، كيف تعبدون صالا يجيب ان سئل ، ولا ينطق إن كُلِّم ، وتجعلونه شريكاً لمن له الخلق والامر ؟ فنضع قوله . (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) موضع هذا .

ثانيهما . أن يقال أن كبير الاصنام غضب لما عبد معه غيره من هذه الاصنام الصغار فكسرها ، وغرض ابراهيم بذلك أن يعترض بهم في كونهم قد أشركوا في العبادة من هو دون الله وأن من دونه مخلوق حقير من مخلوقاته ، فيضع هذا الكلام الفاحش ما أتوا به ، وعظيم ما تلبسوا به من عبادة غير الله وهذا التعريض لم يدل عليه اللفظ بل دلّ عليه السياق وقرائن الاحوال [1].

---

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن - ٢٧٨ .

فقوله عن سارة انها اختيه ، لم يكذب فيه وانما أراد أنها اخته في الاسلام وقوله صلى الله عليه وسلم لم يكذب ابراهيم عليه الصلاة والسلام الا كذبات ثلاث لا يقصد به الكذب المذموم وانما قصد به التعريض .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كيّساً فطناً كثيرا ما لجأ الى المعاريض في محاوراته ومداوراته ومداولاته قالوا لما خرج للقاء قريش في موقعة بدر ترك قريبا من بدر وركب هو ورجل من أصحابه حتى وقفا على شيخ من العرب نسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما فقال له رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم إذا أخبرتنا أخبرناك فقال أو ذاك بذاك ؟ فقال . نعم ، قال الشيخ فإنّه بلغني أنّ محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فان كان صدقني الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا (للمكان الذي به رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فان كان الذي حدثني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا (للمكان الذي به قريش) فلّما فرغ من خبره قال . ممن أنتما ؟ فوفى له الرسول الوفي بما وعد ولكنه أجاب اجابة ذكية فضفاضة تحتمل كثيرا من الوجوه وذلك

إذ قال فى إجمال مدهش (نحن من ماء) وأدخل الشيخ فى حيرة وتلدد وتردد وتركه يردد متسائلاً . ما من ماء ؟ أمن ماء العراق)(1).

والتعريض قد يكون بالانكار منه ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنّه كان يخطب يوم الجمعة فدخل عليه عثمان بن عفّان رضى الله عنه فقال له عمر . أية ساعة هذه ؟ فقال عثمان . يا أمير المؤمنين انقلبت من أمر السوق فسمعت النّداء فما زدت على ان توضأت فقال عمر . والوضوء أيضاً ؟ وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل .

فقوله . أية ساعة هذه ؟ تعريض بالانكار عليه لتأخره عن المجئ إلى الصلاة وترك السبق اليها وهى من التعريض المعرب عن الأدب وقد فهم التعريض من جهة أمور خارجة عن اللفظ من نحو وقت السؤال وحال المسئول عنه فايراد السؤال عند تجمّع هذه الأحوال هو المسمى بالسياق وقرائن الأحوال وقد يجئ الرسول على الله عليه وسلم بالتعريض ضربًا للأمثال وذكرًا للالغاز فى جملة المقال ومن ذلك ماروأه البخارى مسلم عن عدىّ بن حاتم رضى الله عنه

---

(1) الاغانى - دار الثقافة بيروت ١٩٥٥ جـ ٤ / ١٨٤ .

قال = لما نزلت هذه الآية (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الأسود من الفجر) عمدت الى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض قال فجعلتهما تحت وسادتي . قال فجعلت انظر اليهما فلما تبين لي الابيض من الاسود أمسكت فلما أصبحت غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بالذي صنعت فقال (إن كان وسادك لعريضا) وفي رواية انك لعريض القفا) كنى بالوسادة عن النوم لأن النائم يتوسد أي أن نومك لطويل كثير . وقيل كنى بالوسادة عن موضع الوساد من رأسه وعنقه وتشهد له الرواية الثانية فان عريض القفا كناية عن السمن وقيل أراد من أكل مع الصبح في نومه أصبح عريض القفا لأن الصوم لايؤثر فيه .

ويقول الدكتور عبدالفتاح لاشين (فالوساد العريض في قول الرسول كناية عن قلة فهمه وعرض القفا يستلزم قلة الفهم ونقصان الكياسة وعدم الفطانة)[1] .

والتعريض أخفى من الكناية لاعتماده على السياق دون اللفظ لذلك كان له الاثر في النفوس لانه يعين صاحبه على إخفاء ما يريد من عتاب أونقد أو سؤال أو شكاية على الحاضرين حتى لايفهم مراده إلا من يقصد بالتعريض كما رأينا في قصة سيدنا عثمان وانكار سيدنا عمر عليه . عليهما رضوان الله . وفي قصة عدي بن حاتم مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن / ٢٧٢ .

الباب الثالث

اثر الحديث النبوى فى فنون الأدب

الفصل الأول

موقفه صلى الله عليه وسلم من الشعر

نشأ الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فى بيئة عربية شاعرة ، اعتمدت على الشعر فى تسجيل مآثرها ومروءتها وخصوماتها والدفاع عن حقوقها والفخر برجالاتها وقبائلها وكانت بيئة تتذوق الشعر وتنشده وتحفظه وترويه فكان لا بد له وهو العربى الفصيح أن يتأثر بهذه البيئة وأن يتذوق كلامها الجيد ويعجب به ويخوض فيه مع الوافدين اليه ويؤثر ما لائم دعوته وأرضى مكارم الأخلاق .

والشعر فى صدر الاسلام ظلّ مزدهرا وليس بصحيح أنه توقف أو ضعف كما ظن بعضهم أمثال ابن خلدون[1] الذى يقول فى مقدمته (ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وأوتوا الرشد من الملة ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحظره وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه) .

---

(١) المقدمة طبعة مصطفى محمد - مصر ص ٤٨١ .

فهو يجمل وقوفهم وانصرافهم عن الشعر لانشغالهم بالدين والنبوة والوحى وهذا بالطبع لا يصدق على المشركين لانهم لم يشغلوا بالدعوة والمعروف أن جمهور القبائل العربية انما دخل فى الاسلام بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة . وابن خلدون ينقض ما قاله فى أول كلامه بما قاله فى آخره من أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع الشعر وأثاب عليه .

كما أن أشعار الجاهليين التى حاولوا فيها نقض الدعوة كثيرة تحتفل بها كتب الأدب والأخبار أما أشعار المسلمين الذين كانوا يردون بها على شعراء مكة وغيرهم من الخصوم ذائدين ومدافعين أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله ابن رواحة فلا تقل عن أشعار خصومهم .

والشعر غلب على حياة العرب حتى وصفوا القرآن بالشعر وعدوا الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعراء حين راع القرآن خيالهم بصورة الحية وأمثاله الشاخصة وألفاظه الموحية وفواصله الشافيه

وألحانه العذبة ، فقالوا (شاعر نتربص به ريب المنون)[1] فجاء ردّ القرآن الكريم :- (وما علّمناه الشّعر وما ينبغي له ان هو إلا ذكر وقرآن كريم)[2] فنفى صفة الشعر عنه وعن مبلغه عليه أفضل الصّلاة والسّلام وجاء في كتاب الله الحكيم (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ،وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)[3] .

وجاء في الحديث النبوي : (لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً يريه خير له من أن يمتلئ شعرا)[4].

ومن تلك الآيات وذلك الحديث جاءت شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الاسلام واعراضهم عنه كما ظن بعضهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن قول الشعر وذمّه بل ذهب آخرون إلى أنه كسر الشعر

---

(١) سورة الطور آية ٣٠

(٢) سورة يسن آية ٦٩

(٣) سورة الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧

(٤) زاد المسلم ج ١/ ٥٠ [illegible] - الأدب المفرد [illegible] / ٣٦٢ .

وهمه، وأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يقيم له وزناً، وأنه كان يتمثل بالبيت المكسور، على عكس كثير من النّاس الذين يحفظون الشعر ويروونه فيقول مصطفى صادق الرّافعي[١] (فانه على كونه أفصح العرب إجماعا، لم يكن ينشد بيتاً تاما على وزنه، إنما كان ينشد الصّدر أو العجز فحسب، فان ألقى البيت كاملاً لم يصحح وزنه بحال من الأحوال وأخرجه عن الشعر فلا يلتئم على لسانه ، وأورد أمثلة على ذلك بقوله أنشد مرة صدر البيت المشهور للبيد وهو قوله :-

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

فصحّه ولكنه سكت عن عجزه :-

وكل نعيم لا محالة زائل

وانشد البيت السائر لطرفة على هذه الصورة :-

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا

ويأتيك (من لم تزوّد) بالاخبار

وانما هو :-

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

---

(١) اعجاز القرآن ٣٣٩ - ٣٤٠ .

وأنشد مرة بيت العباس بن مرداس فقال :-

أتجعل نهبى ونهب العبيـ ـد بين الاقرع وعيينه

فقال الناس :- (بين عيينه والاقرع) فأعادها عليه الصلاة والسلام:- (بين الاقرع وعيينه) ولم يستقم الوزن).

وذهب الى ذلك الرأى الدكتور بكرى شيخ امين(١) واستعمل نفس الامثلة التى أوردها الرافعى .

إلاّ أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يكن يتحرج من الشعر ويتألم بالقدر الذى ظنّه كثير من الناس ولم يكن بمستطيع أن يفعل ذلك، فالشعر سلاح ماض من الاسلحة العربية التى لا يستغنى عنها صاحب دعوة وهو كتاب الجاهلية وديوان أخبارها ، والجاهلية لاتزال قوية جيّاشة ولا يزال كثير من رجالاتها أحياء(٢) فالشعر كان سلاحاً جنّده الرسول صلى الله عليه وسلم على المشركين وهو القائل لحسان شن الغطاريف على بنى عبد مناف فوالله لشعرك أشدّ عليهم من وقع السهام فى غلس الليل وتحفّظ بيتى فيهم فقال حسّان والذى بعثـ

---

(١) أدب الحديث النبوى ـ طبعة ثانية دار الشروق ، [illegible] مصر ص ١٠٧

(٢) تاريخ النقد الأدبى ـ طه احمد ابراهيم دار الحكمة ١٩٣٧ بيروت ص ٢٨.

بالحق نبيّا لاسلنك منهم سلّ الشعرة من العجين ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه، وقال والله يا رسول الله انه ليخيل الىّ أنى لو وضعته على شعر لفلقه أو على شعر لحلقه فقال النبى صلى الله عليه وسلم أيّد الله حسّانا فى هجوه بروح القدس)(١) .

وفى غير الاستعانة به فى نشر دعوته فقد كان عليه السلام يستنشد الشعر ويستزيد منه ومن ذلك الخبر المعروف فى استنشاده حين استسقى فسقى - قول ابى طالب :-

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للارامل

يطيف به الهلاك من آل هاشم

فهم عنده فى نعمة وفواضل (٢)

وفى الحديث جاء عن الشريد قال استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن الصلت وأنشدته فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٨٠

(٢) دلائل الاعجاز - الجرجانى - عبد القاهر - مطبعة الموسوعات بمصر ص ١٢ .

يقول عنه نبيه حتى أنشدته مائة قافية فقال : ان كاد ليسلم
وفى رواية أخرى قال : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه . وأمية
كان شديد الحقد على الدعوة الاسلامية برغم حنفيته واعتقاده
فى الاله الواحد فى الجاهلية ، ويزعم بعض المؤرخين[1] أنه
كان يتمنى أن يكون صاحب الرسالة بدلا عن محمد صلى الله عليه وسلم
وعلى الرغم من كفره وحقده على الاسلام الا أن الرسول صلى الله
عليه وسلم كان يعجب بشعره ويتذوقه .

ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القتلى يوم
بدر مصرعين قال لأبى بكر رضى الله عنه (لو أن أبا طالب حى
لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالانامل وذلك لقول أبى طالب:

كذبتم وبيت الله ان جد ما أرى

لتلتبسن أسيافنا بالأنامل

ويفضى قوم فى الدروع اليهم

نهوض الروايا فى طريق حلاحل [2]

---

(١) - الأغانى ٤ دار الثقافة ٤/ ١٢٥
(٢) دلائل الاعجاز - ١٤ .

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يتذوق الشعر ويخوض فيه من الوافدين الذين أسلموا فيروى عن أبي حاتم عن الأصمعي قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنشدك يا رسول الله ؟ قال نعم فأنشده :-

تركت القيان وعزف القيان

وأدمنت تصلية وابتهالا

وكرّى المشقر في حومة

وشنّى على المشركين القتالا

فيارب لا أغبنن صفقتي

فقد بعت أهلي ومالا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ربح البيع ربح البيع كما أنه أنشد بيت طرفة :-

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا

فقال هذا من كلام النبوة .

ومن ذلك حديث النابغة الجعدى ، قال :- أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قولى :-

بلغنا السماء مجدا وجودا وسؤددا

وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الى أين يا أبا ليلى ؟ فقلت الى الجنة بك يا رسول الله . قال : نعم ان شاء الله فلما أنشده :-

ولا خير في حلم اذا لم تكن له

بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل اذا لم يكن له

حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا فضّ الله فاك فبنو جعدة يزعمون أنه عاش ثلثمائة عام ولم تسقط له سن حتى مات[1].

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال "الشعر كلام من كلام العرب جزل ، تتكلم به في نواديها وتسلّ" به الضغائن بينها (٢).

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت مرّ الزبير بن العوام رضي الله عنه بمجلس لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدهم فقال : مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر

---

(١) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام تأليف ابي زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي - تحقيق علي محمد البجاوي طبعة أولى القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٣٣

(٢) العمدة ١ / ٣٠ .

ابن الفريعة لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه . ويجزل ثوابه ولا يشتغل عنه اذا أنشده (١).

ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحرج من الشعر لما سمح لأصحابه بإنشاده في مسجده ، فتحدثنا كتب الأخبار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهره عمر فقال حسان قد أنشدت فيه من هو خير منك فانطلق عمر (٢).

وفي رواية أخرى أن عمر أخذ بأذنه وقال أرغاء كرغاء البكر فقال حسان دعني عنك يا عمر فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فلا يغير علي ، فقال عمر : صدقت ! (٣)

وكلام حسان يشير الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يكره انشاد الشعر حتى في المساجد وقول عمر رضي الله عنه يؤكد ذلك .

---

(١) الاغاني - دار الثقافة ج ٤ / ١٦٢ .

(٢) الاغاني - دار الثقافة ٤ / ١٦٠

(٣) العمدة ١ / ٢٨ .

أما علمه - عليه الصلاة والسلام بالشعر ، فلا يختلف فيه اثنان

يروى أن سودة أنشدت :-

عدى وتيم تبتغى من تحالف .

فظنت عائشة وحفصة رضى الله عنهما أنها عرضت بهما وجرى

بينهن كلام فى هذا المعنى فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم

فدخل عليهن وقال :-

(يا ويلكن ليس فى عديكن ولا تيمكن ، قيل هذا وانما قيل فى عدى

تميم وتيم تميم . وتمام الشعر :-

فحالف ولا والله تهبط تلعة

من الأرض الا أنت للذل عارف

ألا من رأى العبدين أو ذكرا له

عدى وتيم تبتغى من تحالف[١]

وروى الزبير بن بكار قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومعه أبو بكر رضى الله عنه برجل يقول فى بعض أزقة مكة :-

يا أيها الرجل المحول رحله

هلا نزلت بآل عبد الدار

---

(١) دلائل الاعجاز ١٧ .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبابكر أهكذا قال الشاعر؟

قال : لا يارسول الله ولكنه قال :-

يا أيها الرجل المحوّل رحله

هلا سألت عن آل عبد مناف

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا كنا نسمعها (١).

وان قال قائل ان كانت هذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم من استحسان للشعر واستنشاد له ومعرفة به وتذوق بجيده واستعماله سلاحا من أسلحة الدعوة فما سبب الزجر فى حديثه صلى الله عليه وسلم "لأن يمتلئ جوف رجل قيحا .... الخ الحديث، قلنا له : الزجر انما هو لمن أقبل على الشعر وتشاغل به عن تلاوة القرآن والذكر والعبادة ، فالمكروه هو الشعر الذى يملأ الجوف فلا يكون فيه قرآن ولا تسبيح ولا غيره . فأمّا من كان فى جوفه القرآن والشعر مع ذلك ، فهو خارج من قوله صلى الله عليه وسلم " لأن يمتلئ ... الخ"

كما أن بعضهم حمل هذا الزجر على الشعر الذى هجى به النبى صلى الله عليه وسلم وذهب الى ان الذى هجى به النبى صلى الله عليه

---

(١) دلائل الاعجاز / ٢٠

وسلم ولو بشان شطر بيت أو كلمة واحدة كان كفرا . من ذلك ما

أورده القرشي قائلا :-

(وأخبرنا محمد بن عثمان ، قال : أخبرنا الحسن بن داود الجعفري

عن عائشة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم من هجاني

فالعنه مكان كل هجاء هجانيه لعنة)[١] وأما اذا كان الغالب

القرآن والذكر عليه فلا يمتلئ جوفه من الشعر ، قيل لعائشة : ان

أباهريرة يقول لان يمتلئ جوف احدكم .. ::..الخ الحديث) فقالت

عائشة يرحم الله اباهريرة ، حفظ أول الحديث ولم يحفظ آخره إن

المشركين كانوا يهاجون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :- لان

يمتلئ جوف أحدكم قيحًا يريه خير له من أن يمتلئ شعرًا مهاجاة رسول

الله (٢).

وأخرج الطحاوي عن الشعبي ، قال كنا جلوسًا بفناء الكعبة مع أناس

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا يتناشدون الاشعار

فقال رجل منهم : يا ابن الزبير ، ان رسول الله انما نهى عن الشعر الذي

---

(١) جمهرة اشعار العرب ٢٩

(٢) الادب المفرد ٢/ ٢٣ .

تؤبن فيه النساء وتزدرى فيه الاموات[١].

ورسولنا صلى الله عليه وسلم نفسه يقرر في حديث له "الشعر بمنزلة الكلام : حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام)[٢].

وهو القائل صلى الله عليه وسلم (ان من الشعر لحكمه)[٣]. أى ليس كل شعر غواية بل منه ما يتضمن اقامة الحق والحث على الخير .

وكانت العرب تطلق الحكمة على قوة جامعة لرزانة العقل والرأى وشرافة الحس ، ومن ثمّ سموا الرجل العاقل المهذب ، حكيما . وكذا يطلقون الحكمة على فصل الخطاب، وهو القول الواضح عند العقل والقلب، والحكم : القضاء - حقا كان أو باطلا . قال تعالى:-

(مالكم كيف تحكمون)[٤] وقال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون)[٥].

وقال الراغب : (الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل) وقال النووى فيها اقوال مضطربة وقد صفا لنا منها أن الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالاحكام

---

(١) المصدر السابق نفسه

(٢) المصدر السابق نفسه

(٣) الأدب المفرد

(٤) سورة القلم / ٣٦

(٥) سورة المائدة/ ٥٠ .

المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى بنفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق والعمل به والصد عن الهوى والباطل ، والحكيم من له يد بذلك وقال ابن دريد (كل كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك الى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وحكم) (١).

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه تمثل ببيتين من الرجز أحدهما :-

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثانيهما :-

هل أنت الا اصبع دميت

وفي سبيل الله مالقيت

والذين يزعمون أنه يكسر الشعر ولا يقيم له وزنًا لمّا ثبت عندهم أنه تمثل بهما ذهبوا الى أن الرجز في عرف العرب أهون من الشعر بل أن الفحول من العرب الشعراء لا يعدون الرجز شعرا ولا الرجاز شعراء وأنهم يسمون الرجز حمار الشعر ويعدونه في مرتبة السجع والكلام العادي لا أكثر ولا أقل (٢)

---

(١) الادب المفرد ٢ / ٣٦٨

(٢) انظر اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٤ وأدب الحديث النبوي بكري شيخ امين ص ١٠

وفى ذلك يقول ابن رشيق: وقد رأى قوم أن مشطور الرجز ليس بشعر لقول النبى صلى الله عليه وسلم: هل أنت الا ....

وليس هذا دليلا واضحا الدليل فى قول النبى عدم القصد والنية لأنه لم يقصد به الشعر ولا نواه فلذلك لا يعد شعرا وان كان كلاما متزنا (١).

" وزعم بعضهم أن النبى صلى الله عليه وسلم تعمد إسكان التاء فى (دميت) و (لقيت) ليخرج القسمين من الشعر كالخليل بن أحمد وغيره وهو قول مردود لأنه يصير من ضرب آخر من الشعر وهو ضرب البحر الملقب بالكامل وفى الثانى زحاف جائز "(٢).

والقرآن لما قال (وما علمناه الشعر) نفى عنه صفة الشاعرية؛ لا موافقة لفظه عليه السلام نادرًا لشطر موزون أو بيت موزون لأن هذا أمر اتفاق لا يسمى به شاعرًا ولا يسمى ذلك اللفظ الذى وافق الوزن من غير قصد شعرًا كما علم من حد الشعر لأن الشعر كان امرا معلومًا مشهورًا عند العرب يقولونه بقصد وروية وقد كان زهير يمكث حولا كاملا فى تنقيح قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث قصائد. فموافقة

---

(١) العمدة ١ / ٢٠

(٢) العمدة ١ / ٢٠

الرسول صلى الله عليه وسلم لبيت من بحر الرجز مثلا ليس قادحاً في كونه ليس شاعرا ولا في قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له).

كما أن موافقة بعض آيات القرآن لوزن من أوزان الشعر لا يقدح في كونه ليس شعرا ولا في قوله تعالى :- (وما هو بقول شاعر) [1].

ولنضرب لذلك بعض الامثلة من الآيات القرآنية التي وافقت بعض الاوزان الشعرية : قال تعالى :-

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)[2] وقال تعالى: (وجفان كالجواب وقدور راسيات)[3] فهاتان الآيتان توافقان مايسمى البحر/ الملقب بالرمل ووزنه فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلات[4] فالآية الاولى من مجزوءه وهذا ضربه التسبيغ وهو زيادة حرف ساكن على السبب الخفيف. والثانية من مجزوء الرمل أيضا ولكنه صحيح العروض والضرب.

وقال تعالى (ومن يزكى فانما يتزكى لنفسه)[5]

---

(١) الحاقة / ٤١

(٢) آل عمران / ٩٢

(٣) سبأ / ١٣

(٤) المعيار في أوزان الاشعار تأليف ابي بكر محمد بن عبد الملك بن السراج الشنتريني الاندلسي ـ تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ـ الطبعة الثانية دمشق [illegible] ص ٦٥

(٥) سورة فاطر / ١٨

ومن توافق ضرب البحر المعروف بالخفيف الذي هو فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن (١) والآية من مجزوئه .

وقوله تعالى (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) (٢) يوازنه بحر الرجز الذي هو مستفعلن ست مرات (٣).

أما قوله تعالى (وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عليهم وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مؤمنين)(٤) فانه يوافق البحر الوافر الذي هو مفاعلتن مفاعلتن فعولن
والى فعولن أى باسقاط السبب الخفيف
× ٢، والآية منه مقطوف العروض والضرب ، القطف صيرورة مفاعلتن/ واسكان الحرف الخامس (٥).

ونعود مرة أخرى لزعم من قال أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بأنصاف الأبيات حتى لا يتحقق كونها شعرا كما تمثل • في بيت لبيد حين قال :- أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :-

(ألا كل شيء ما خلا الله باطل) .

---

(١) المعيار / ٧٨

(٢) الانسان ١٤

(٣) المعيار / ٤٢

(٤) التوبة / ١٤

(٥) المعيار / ٤٨

وأنه لم يكمل البيت ، وقد علمنا مكانة الشعر عنده صلى الله عليه وسلم - ومن رأينا أنه - إن صحّ ذلك - أراد الاستشهاد بصدر البيت ولا حاجة له بعجزه ، فهو لم يقصد الانشاد فالمقام مقام استشهاد وليس مقام انشاد ، كما أن ايجازه واختصاره للكلام معروف مشهور وقد أشرنا له من قبل .

وان زعموا أنه أنشد بيت طرفة وبيت العباس بن مرداس بالوجه الذى أوردوه وأنه أبدل كلمة مكان الأخرى ، فهذا لا يعنى أنه كان لا يهتدى الى اقامة الوزن ، وهو العالم بالشعر وأحواله ولكنه أراد المعنى ولم يرد الوزن فان صحّ زعمهم فان انشاده لتلك الأبيات بتلك الصورة أكد غرضه ان المراد الاستشهاد بالمعنى لا بالوزن .

وان احتج قوم بقول الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) زاعمين أن القرآن قلل من قيمة الشعر والشعراء ، فانهم نسوا أن القرآن نسخ من ذلك واستثنى فقال (الا الذين آمنوا .... الى قوله تعالى ينقلبون) وذم القرآن للشعراء انما هو للشعر المشتمل على وزر

أو مناهضة للحق وما سواه تمادون في انشاده . والمعنى :-

الشعراء غاوون و لا يتبعهم إلاّ الغاوون والمراد من قوله (من كل واد)

من أودية القول الفاسد ووجه الاستعارة مظان الهلاك فكما أن الوادى

مظنة الهلاك الحسى كذلك الأقوال الفاسدة مظنة الهلاك المعنوى

والهائم مائق مظنة الهلاك والكل في مثل هذا بمعنى الأكثر ويهيمون

أى يخوضون في كل لغو وأصل الهيام أن يذهب الرجل على وجهه

من عشق أو غيره حاملة التحير .

وفى ذلك يقول الزمخشرى [1] :-

" ذكر الوادى والهيوم فيه تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق ومجاوزة حد القصد فيه حين يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأبخلهم على حاتم وأن يبهتوا البرىء ويفسقوا التقى "

وفى قوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات يقول (استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعرا قالوه فى توحيد

---

(1) الكشاف ج ٣/ ١٢١ طبعة اولى مطبعة مصطفى محمد القاهرة ١٣٥٤هـ .

الفصـــل الثـــانى

موقفـــه صلى الله عليـه وسلـم

مـن السجـــع

عرّف ابن الأثـير السجع بقوله (هو تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد) (١)

وجاء فى أساس البـلاغة (٢) (رجل سجاع وسجاعه وكلام مسجوع وسجع وسجعه صاحبه وسجّعه وسجّع فيه وهـو أن يأتى بالقرينتين فصاعداً على نهج واحد وفلان ساجع فى سيرة مستقيم لا يميل عن القصد . قال ذو الرّمة :-

إذا ما علو أرضـا ترى وجه ركبهـا

إذا علوهـا مكفـا غير ســاجـع

ونجد فى دائرة المعارف الاسلامية (٣) السجع اسم يطلق على طراز بلاغى خاص تستخدم فيه فقرات قصيرة ذات كلمات مقفـاه الا أنّـه مع هذا متميز عن الشـعر بأنه غير خاضع لقافيـه واحدة ولا لوزن عام ، ولعل السجع أول أسلوب مختار ارتضاه العرب قبل أن يصطنعوا البحور المقيسـة)

١- المثل السـائر ١ / ٢٧١
٢- أساس البلاغة - الزمخشرى ، ١٩٢٢ القاهرة المجلد الاول ص ٤٢٤
٣- دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١١ / ٢٦٥

و فيه يقول يحيى بن حمزة العلوى (١) وهو فى مقابلة التصريع فى الكلام المنظوم الموزون فى الشعر و معناه فى السنة علماء البيان ،اتفاق الفواصل فى الكلام المنثور فى الحرف أو فى الوزن أو فى مجموعهما و اشتقاقه من قولهم سجعت الناقة اذا مدت حنينها على جهة واحدة و منه سجعت الحمامة اذا هدرت ، و السجع استعمله العرب كثيرا فى نثرهم ، و فضلوه على المنثور لما و جدوه فيه من الايقاعات والموسيقى التى تجذب الاسماع و تساعد على الحفظ . قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرياشى " لم تؤثر السجع على المنثور و تلزم نفسك القوافى و إقامة الوزن ؟ قال : ان كلامى لو كنت آمل فيه إلاّسماع الشاهد لقلّ خلافى عليك ، و لكننى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ اليه أسرع والآذان لسماعه أنشط وهو أحق بالتقييد و بقله التفلت . و ما تكلمت به العرب من جيد منثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة و لا ضاع من الموزون عشرة . (٢)

والسجع أقسام : فان اتفقت الاعجاز فى الفواصل مع اتفاق الوزن سمى المتوازى (٣) كقوله تعالى (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة) و إن اتفقا ففى الأعجاز من غير وزن سمى المطرّف كقوله تعالى (ما لكم لا ترجون لله

١ـ الطراز ـ مطبعة المقتطف ـ مصر جـ ٢ / ١٨

٢ـ البيان والتبيين ١ / ٢٨٧

٣ـ الطراز ٣ / ١٨

وتارا و قد خلقكم أطوارا) وإن اتفقا فى الوزن دون الحرف سمى المتوازن كقوله تعالى (و نمارق مصفوفة و زرابى مبثوثة)

ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من هذا النمط بل نجد السورة تجىء كلها مسجوعة كما هو الحال فى سورة الرحمن و سورة القمر و غيرها و مثال ذلك قوله تعالى فى سورة طه (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات و ما فى الارض و ما بينهما و ما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر و أخفى . الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى)(١)

و قد ورد على هذا الاسلوب من كلام المصطفى صلى الله عليه و سلم شيء كثير أيضا ،فمن ذلك مارواه المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الله تعالى حرّم عليكم عقوق الامهات ووأد البنات ،ومنع و هات و كره لكم قيل و قال و كثرة السؤال و إضاعة المال)

١- سورة طه الايات ١-٨

٢- زاد المسلم ١/٥٨

و يروى عنه الشيخان عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من جهد البلاء و درك الشقاء و سوء القضاء و شماتة الاعداء (١)

و في حديث لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان رسول الله اذا قفل من غزو أوحج أو عمرة يكبّر على كل شرف من الارض ثلاث تكبيرات ثم يقول (لا اله الا الله وحدة لا شريك له له الملك و له الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده و نصر عبده وهزم الاحزاب وحده)(٢) و السجع ظاهر في سائر الاحاديث التي ذكرناها وأمثالها كثير في أحاديثه و انما أوردنا هذا القدر على سبيل المثال لا الحصر.

و ذهب قوم الى استكراه السجع و لعل الشبهة لهم في استكراهه ما ورد عن الرسول صلى الله عليه و سلم أنه قال لبعضهم (أسجعا كسجع الكهان) أو قال انما هذا من أخوان الكهان. والحديث يرويه

١- زاد المسلم ٥/٧١
٢- زاد المسلم ٤/٨١

الصحابي الجليل ابو هريرة و سبب هذا الحديث أنّ امرأتين من هذيل تهاجرتا فرمت احداهما الاخرى بحجر فقتلتها و ما في باطنها فأمر النبي صلى الله عليه و سلم في الجنين بغرة و هي عبد أو أمة و في الاثر بديّة فقضى بكلتيهما على عاقلة القاتله : فقال و احد منهم وهو حمل ابن مالك بن النابغة الهذلي (كيف أغرم من لا شرب و لا أكل و لا نطق و لا استهل فمثل ذلك يطل) (١)

و اعتماداً على هذا الحديث ذهبوا إلى أنّ الرسول صلى الله عليه و سلم أنكر السجع و نفّر عنه و كرهه و هجره من بعده أصحابه (٢)

فالرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال لحمل (أسجعا كسجع الكهان) لم ينكر السجع مطلقا . فلو كان كذلك لقال : أسجعا ثم سكت . وكان المعنى يدلّ على إنكار هذا الفعل لمّ كان ؛ فلما قال أسجعًا كسجع الكهان صار المعنى معلقا على أمر وهو إنكار الفعل لمّ كان على هذا الوجه ؛

و في ذلك يقول العلوي(٣) :- " انه لم ينكر السجع مطلقاً وإنما أنكر سجعا مخصوصًا وهو سجع الكهان ، لأن أكثر أخبارهم عن الامور الكونية والاوهام الظنيّة على جهة السجع و تطابق أعجاز الألفاظ "

١- زاد المسلم ج ١/ ٩٩
٢- انظر الادب العربي في تاريخه لمحمود مصطفى ١٣٧ ، مصر ط ١
٣- الطراز ٣/ ١٦ .

و يقول العقاد (١)" و كان عليه السلام يكره سجع الكهان الذى يتدعون به السامعين ليوهمون أنه يستمع الى طلاسم السحرة والشياطين و لكنه لم يكن يأبى السجع بتة و لا يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية و يغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالاذان وما هو فى حكمة أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة"

و الكهان هم طائفة كانت تعرف عند الجاهليين تدّعى التنبوء و معرفة الغيبيات و أنها تنطق عن آلهتهم بما سخّر لها من الجنّ الذى تسترق له السمع فتكشف لها الحجب و ما تأتى به ألواح الغد.
و كان الجاهليون يفزعون إليهم لاستشارتهم فى الأمور الجلّى كإعلان حرب أو قصود عن نصرة أحلاف أو كشف قتل انسان أو ناقة أو حلال بنذور من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداءه و قد يلجأون إليهم للحكم بينهم أو للمنافرة ممتثلين لأحكامهم فهى لا تنقض ولا ترد و قد يطلبون اليهم تعبير رؤاهم وأحلامهم و هم قد يتنبأون لأقوامهم بوقوع كارثة أو حدث عزو(٢)

و أقوال هؤلاء الكهان و خطابتهم و أحكامهم التزمت السجع

١- عبقرية محمد - ٧٦ دار الهلال

٢- أنظر الفن و مذاهبه فى النثر الفنى ، شوقى ضيف ص ٢٨

التزاما لما فيه من تأثير في السامعين كما أنها اتسمت بالغموض في بعض الأحيان . فمن ذلك ما نقله صاحب الأمالي من أحاديث الكاهنة زبراء (١) من بني رئام تحذرهم من الاعداء (يا ثمر الاكباد ، وأنداد الاولاد و شجا الحساد هذه زبراء ، تخبركم من أنباء ، قبل انحسار الظلماء بالمؤيد الشنعاء (٢) فاسمعوا ما تقول ، قالوا و ما تقولين يا زبراء ؟ قالت واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق آن شجر الوادي ليأدو ختلا و يحرق أنيابا عصلا (٣) و إن صخر الطود لينذر ثكلا لا تجدون عنه معلا ... الخ)

ومن ذلك أيضا ما يعزى الى سعدى بنت كريز خالة عثمان ابن عفان - وكانت قد تكهنت - فقد رووا لها قولها في النبي صلى الله عليه وسلم وذلك على ما يظهر في بدء دعوته و قد طلب الناس رأيها فيه : (ان محمدا بن عبد الله رسول من عند الله ، جاء بتنزيل الله ، يدعو الى الله . مصباحه مصباح ، وقوله صلاح ، و قرنه نطاح ، ذلت له البطاح ما ينفع الصياح ، لو وقع الذباح وسلت الصفاح) (٤)

١- الامالي - القالي ، ابو علي اسماعيل بن القاسم طبعة بولاق مصر ١/ ١٢٦
٢- المؤيد : الداهية
٣- العصل : العوجاء
٤- تطور الاساليب النثرية - انيس المقدسي دار العلم ١٩٦٥ بيروت ص ١٥

ومنه أيضا قولهم بعضهم الذى نقله الجاحظ (١) :- " والارض والسماء ، والعقاب الصقعاء (٢) واقعة ببقعاء ، لقد نفّر المجد بنى العشراء (٣) للمجد والسناء "

ولعل هذا السجع فى كلامهم هو الذى دفع بعض المشركين من قريش الى الظن بأن ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن إنما هو كلام الكهان فقال تعالى ينقض دعواهم الباطلة (فذكّر فما أنت بنعمة ربّك بكاهن) (٤) وقال تعالى أيضا (انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) (٥) "

فالقرآن كما نرى نفى عن نفسه وعن رسوله صفة الكهانة ولكنه لم ينف السجع ولا عنه ولا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أن الرسول أنكر سجع الكهان ولم ينه عن السجع جملة ولو أراد حمل ابن مالك فى كلامه اقامة الوزن لما كان عليه بأس ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق.

١- البيان والتبيين ١/٢٦٠

٢- الصقعاء : التى فى وسط رأسها بياض

٣- نفرهم : حكم لهم بالغلبة على غيرهم ، وهو العشراء من بنى مازن ابن فزارة بن ذبيان

٤- سورة الطور آية / ٢٩

٥- سورة الحاقة آية / ٤٠

ولو كان السجع مذموما لما نطق به القرآن و لا فاه به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم و لا نطق به أصحابه بعده و لو كان ينكره لما أنكره على حمل و أقره فى مواضع أخرى ، من تلك المواضع :
كتب إليه أبو سفيان كتابا يقول فى آخره : نريد منك نصف نخل المدينه فان أجبتنا إلى ذلك و إلا أبشر بخراب الدّيار و قلع الآثار" (١)

تجاوبت القبائل من نزار ... لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش ... على خيل مسوّمة ضرام

فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب جاء فيه :-
" وصل كتاب أهل الشّرك والنّفاق والكفر والشقاق وفهمت مقالتكم فوالله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح فأرجعوا ويلكم عن عبادة الاصنام وأبشروا بضرب الحسام وبفلق الهام وخراب الديّار و قلع الآثار والسلام على من اتبع الهدى)

١- مجموعة الوثائق السياسية - محمد حميد الله ١٩٤١ القاهرة ص

. فالرسول صلى الله عليه وسلّم لم ينكر سجع أبي سفيان ، ولكنه لمّا رأى السجع في هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين لانهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين كما يعرفون منه معنى المنابزة والتخويف ، ردّ عليه السلام بكلام مسجوع أيضا .

وكذلك أقرّ النبي صلى الله عليه وسلم نص الحلف الذي كان بين جدة عبد المطلب بن هاشم وخزاعة (١) عندما جاءته خزاعة بنص الوثيقة يوم الحديبيه في العام السادس الهجرة ، على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونه موثقا تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات وهذا نصه :-

(باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة ، حلفا جامعا غير مفرق . الاشياخ على الاشياخ والاصاغر على الاصاغر والشاهد على الغائب . قد تعاهدوا و تعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد ، لا ينقض و لا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير و حنّ بفلاة بعير و ما أقام الاخشبان واعتمر بمكة انسان . حلف أبد لطول أمد ، يزيده طلوع الشمس شدّا وظلام الليل مدّا . وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متناصرون متعاونون ، على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه

١- السيرة الحلبية ٢/ ٨

على طالبها ، على موازعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل وجعلوا الله على ذلك كفيلا وكفى به كفيلا .

وفي حديث عن أنس(١) وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له : نحن الذين بايعنا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا . فخاطبهم صلى الله عليه وسلم بكلام مسجوع وردوا عليه بكلام مسجوع كذلك فلم ينكر عليهم ذلك بل أقرّه .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يتحل بالسجع ويقرّه من كلام غيره فحسب ، بل كان يغيّر الكلمة عن وجهها اتباعا لها بأخواتها من أجل السجع فقال لابن ابنته عليهما السلام (أعيذه من الهامة والسامة ومن كل عين لامّة) وفي قوله (لامة) انما أراد ملمة لان الاصل من ألمّ فهو ملمّ فلما أراد اتباعها من أجل السجع غيرها عن موضعها وأتى بها (لامة)

ومن ذلك قوله (أرجعن مأزورات غير مأجورات) وانما أراد موزورات من

١- صحيح البخاري - كتاب الجهاد باب التحريض على القتال

الوزر فقال مأزورات لمكان مأجورات طلبا للتوازن والسجع .

ولما أتاه وفد ربيعة ، قال من الوفد ؟ قالوا : ربيعة فقال مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى) (١) أى غير مذلين ولا مهانين ولا مفضوحين بوطء البلاء وقتل الأنفس وسبى النساء فخزايا جمع خزيان على القياس أن غير أذلاء لقدومكم مبادرين دون حرب يوجب استحياء كم الآن (ندامى) جمع نادم على غير قياس وإنما جمع كذلك اتباعا لخزايا للمشاكلة والتحسين . وجمعه على القياس (غير نادمين)

وتبديل الألفاظ لتجىء موافقة لغيرها فى الوزن معروف عند العرب وسماه السيوطى المحاذاة وسمى أيضا الازدواج ففى المزهر يقول السيوطى (٢) (ومن سنن العرب المحاذاة وذلك أن تجعل كلاما ما ، بحذاء كلام فيؤتى به على وزنه لفظاً وإن كانا مختلفين فيقولون الغدايا والعشايا ومن نظائر ذلك تقول العرب للرجل اذا قدم من سفر أوبه وطوبه ، أى : أبت الى عيش طيب وثاب طيب والأصل طيبة فقالوه بالواو لمحاذاة أوبة)

وفى الصحاح قال الفراء يقال هنأنى الطعام ومرأنى اذا أتبعوها

١- زاد المسلم ٢/ ١١٢

٢- المزهر جـ ١ / ٣٣٩

مثأنى قالوها بغير ألف ،فاذا أفردوها قالوا أمرانى و فيه يقال (له عندى ماساءه وناءه قال بعضهم أراد ساءه وأناءه وانما قال ناءه ـ وهو لا يتعدى ـ لأجل ساءه ليزدوج الكلام و فيه جمعوا الباب على أبوبة للازدواج . (١) و قال الشاعر :ـ

هتّاك أخبية و لاّج أبوبة

يخلط بالبرمنه الجد واللينا

نخلص من ذلك الى أن الرسول لم يتحرج من قول السجع و لم يخرج عن السنن العربى من استحسان للسجع بل ورد كثير منه فى حديثه وهو ان نهى أو نفّر فقد نهى عن سجع الكهان لما فيه من تكلّف وتشادق وابطال حق وهو صلى الله عليه وسلم لم يتكلف السجع و لم ينصرف له بل جاءت أسجاعه على السجيّة حلوة حارّة طنّانة رنانة لاغثة و لا باردة . وفى ذلك يقول العقاد (٢) :ـ

" ومذهبه فى الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل فحولة فى القول وفحوله فى الزينة فسجعه عليه/السلام كحلية الذهب التى تليق بالرّجل أن يتحلّى بها و لا يزيد "

١ـ المزهر ١/ ٣٤١
٢ـ عبقرية محمد ـ ٧٦

الفصـــل الثـــالـــث

الاستشــهاد بالحديث النبـــوى

اتفق أهل اللغة والنحو على بعض الأصول من شعر وغـيره يرجعون اليها فى تحقيق الالفاظ وتقرير القواعد .

وقد اتفق النحاة على الاستشهاد بالشعر الجاهلى كشعـــر امرىء القيس والاعشى وشعر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام كلبيـــد وحسّـــان ، أما الاســـلاميون وهم الذين كانوا فى صـــــدر الاسلام كجرير والفرزدق فقد اختلف النحاة فى الاستشهاد بشـــعرهم فأجازه فريق ومنعه آخر ، فقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد اللــــه ابن أبى اسحق والحسن البصرى وعبد الله بن شـــبرمة يلحّنـــون الفرزدق والكميت وذا الرمّة وأضرابهـــم . (١)

أما طبقة المولدين ويقال لهم المحدثون وهم الذين أتـــوا بعد طبقة الاسلاميين الى زماننا هذا فقد أجمع النحاة وعلماء اللغـــة على أنّـــه لا يحتج بكلامهم فى العربيّـــة .

ومما أجمع على الاستشهاد به القرآن الكريم ، وفيه يقـــول البغدادى " أفصح كلام وأبلغه ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه "(٢)

١- خزانة الادب - البغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٧ ، القاهرة جـ ١
٢- خزانة الادب ١/ ٦ .

أما الاستدلال والاحتجاج بالحديث فقد أجازه فريق ومنعه آخر جوّزه أبو الحسن على بن محمد الأندلسى المعروف بابن خروف المتوفى سنة ٦٠٩هـ (١) وأبو عبد الله محمد جمال الدين المعروف بابن مالك المتوفى ٦٧٢ هـ وتبعه الاستراباذى المتوفى ٦٨٢ هـ وزاد عليه بالاحتجاج بكلام آل البيت رضى الله عنهم (١) ومن عرف بهذا المذهب عبد الله ابن يوسف المعروف بابن هشام ، وانتصر لهذا المذهب البدر الدماميني فى شرحه لكفاية المحتفظ السمى بتحرير الرواية وعدّ من أصحاب هذا المذهب الجوهرى وابن سيدة وابن فارس وابن جنّى وابن برى ، والسهيلى .

وذهب جماعة من النحاة الى أن الحديث لا يستشهد به فى اللغة أى لا يستند اليه فى اثبات ألفاظ اللغة ولا فى وضع قواعدها ، ولذلك منعوا الاستشهاد به ومن هذه الجماعة أبو الحسن على بن محمد الاشبيلى المعروف بابن الضائع المتوفى ٦٨٠ هـ (٢) وأثير الدين محمد بن يوسف المعروف بأبى حيّان المتوفى ٧٤٥ هـ سنة

وتوسط الشاطبى فجوّز الاحتجاج بالأحاديث التى أعتنى بنقل

١- بغية الوعاة م السعادة ١٣٢٦ هـ ص ٣٥٤

٢- خزانة الادب ١/١٠

٣- " " "

ألفاظها فجعل الحديث على قسمين قسم يعتني ناقله بمعناه دون لفظه فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان ، وقسم عرف اعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلم ككتابة لهمذان وكتابة لوائل بن حجر والأمثال النبوية ، فهذا يصح الاستشهاد به في العربيّة . (١)

وتبعه السيوطي المتوفى ٩١١هـ في كتابة الاقتراح (٢) فقال " وأما كلامه صلى الله عليه وسلم فيستدل فيه بما أثبت أنه قاله على اللفظ المروي ، وذلك نادر جدّاً إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضا ، فانّ غالب الاحاديث مرويّ بالمعنى وقد تداولتها الاعاجم والمولدون قبل تدوينها وقدّموا وأخّروا وأبدلوا ألفاظا بألفاظ ولهذا ترى الحديث الواحد مرويّا على أوجه شتى بعبارات مختلفة ومن ثمّ أنكر على ابن مالك اثباته القواعد النحوية بالالفاظ الواردة في الحديث .

والمانعون للاستشهاد بحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم استندوا إلى أمرين :-

الأول :- أن الاحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وانما رويت بالمعنى .

١- خزانة الادب ١/ ١١ - ١٢

٢- الاقتراح - السيوطي طبعة حيدر آباد ص ١٦

وثانيهما : أن أئمة النحو المتقدمين من المصرين لم يحتجوا بشيء منه .

والسيوطي ينقل لنا حجتهم عن أبي حيّان قائلا (١)

ان الواضعين الاولين لعلم النحو المستقرئين للاحكام من لسان العرب كابي عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر والخليل ابن أحمد وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائي والفرّاء وعلي بن مبارك وهشام الضرير من أئمة الكوفيين - لم يفعلوا ذلك وتبعهم على ذلك المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الاقاليم كنحاة بغداد وأهل الاندلس وقد جرى الكلام في ذلك مع بعض المتأخرين الاذكياء فقال انما ترك هؤلاء العلماء الاحتجاج بالحديث لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ولو وثقوا به لجرى مجرى القرآن في اثبات القواعد وإنما كان ذلك لامرين :-

أحدهما : أن الرّواة جوّزوا النقل بالمعنى فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم فتنقل بألفاظ مختلفة نحو ما روي من قوله (زوجتكها بما معك من القرآن) و (ملكتكها بما معك من القرآن) و (خذها بما معك من القرآن) وغير ذلك من الألفاظ الواردة .

١- الاقتراح - ١٧

فتعلم يقينا انه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الالفاظ
بل لا نجزم بأنّه قال بعضها ، اذ يحتمل أنّه قال لفظاً مرادفاً
لهذه الألفاظ فأتى الرواة بالمرادف ولم يأتوا بلفظه اذ المعنى هو
المطلوب لا سيما مع تقادم السّماع وعدم ضبطها بالكتابة ، والاتكال على الحفظ
والضابط منهم من ضبط المعنى وأما ضبط اللفظ فبعيد جدّاً لا سيما في
الاحاديث الطّوال .

وثانيهما : أن اللحن قد وقع كثير فيما روى من الحديث لأنّ كثيراً من رواه
الحديث كانوا غير عرب لسانهم الا بالتعلّم وصناعة النّحو فوقع اللحن في
كلامهم من حيث لا يعلمون ووقوع اللحن دليل على أنه لم يكن لفظ الرسول
صلى الله عليه وسلم لأنه أفصح الناس "(١)

مناقشة أدلة المانعين :-

الدليل الاول : عدم احتجاج الاوائل بالحديث .

جاء في خزانة الادب أن السيوطي حكى قول ابن الضائع قائلا :
وابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا فان كان على وجه الاستظهار
والتبرك بالمروى فحسن وإن كان يرى أنّ من قبله أغفل شيئا وجب عليه

١- الاقتراح - ١٧

فنعلم يقينا انه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الالفاظ بل لا نجزم بأنه قال بعضها ، اذ يحتمل أنه قال لفظا مرادفا لهذه الألفاظ فأتى الرواة بالمرادف ولم يأتوا بلفظه اذ المعنى هو المطلوب لا سيما تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة ، والاتكال على الحفظ والضابط منهم من ضبط المعنى وأما ضبط اللفظ فبعيد جدا لا سيما في الاحاديث الطوال .

وثانيهما : أن اللحن قد وقع كثير فيما روى من الحديث لأن كثيرا من رواه الحديث كانوا غير عرب لسانهم الآ بالتعلم وصناعة النحو فوقع اللحن في كلامهم من حيث لا يعلمون ووقوع اللحن دليل على أنه لم يكن لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أفصح الناس "(١)

مناقشة أدلة المانعين :-

الدليل الاول : عدم احتجاج الاوائل بالحديث .

جاء في خزانة الادب أن السيوطي حكى قول ابن الضائع قائلا :

" ابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا فان كان على وجه الاستظهار والتبرك بالمروى فحسن وإن كان يرى أن من قبله أغفل شيئا وجب عليه

١- الاقتراح - ١٧

استدراكه فايبر كما أرى.(١) أى أنهم جعلوا ابن خروف أوّل من استشهد بالحديث .

الا أن الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبى يعتمد الحديث باعتباره حجة إلى أن أبا على الفارسى المتوفى ٣٧٧ استشهد به فى بعض المسائل ويقرر أنه سبق ابن خروف فى الاحتجاج بالحديث والاستشهاد به فى مسائل اللغة والنحو والصرف .(٢) والدكتور عثمان الفكى (٣) يذكر أنّ كتاب سيبويه اشتمل على ثلاثة أحاديث لم يسقها مساق الاحاديث ولكن وجودها فى كتابة ينقض دعوى أنه لم يحتج به اذ لو لم يعتبره مما صحّ لما أورد تلك الأحاديث فى كتابة .

ومن خلال بحثنا فى كتاب سيبويه عثرنا على ثلاثة أحاديث استشهد بها سيبويه وهى كافية لنقض الدعوى الا أنه كما ذكر الدكتور عثمان لم يسقها مساق الاحاديث .

الاول : هو قوله صلى الله عليه وسلم (٤) (ما من أيام أحبّ الى الله فيها الصوم من عشر ذى الحجة)

١- خزانة الادب ١/٣ (المطبعة)
٢- انظر كتابه : أبو/الفارسى طبعة نهضة مصر
٣- الاستشهاد فى النحو العربى - رسالة ماجستير - ١٩٦٦ - دار العلوم مصر ٢١٨
٤- رياض الصالحين / ٤٦٧

استشهد به سيبويه فى باب ما يكون من الاسماء صفة مفرداً ليس بفاعل ولا صفة تشبه بالفاعل كالحسن وأشباهه) الا أنه لم يسقه مساق الحديث بل قال : (ومن ذلك ما من أيام أحب ..... الخ "(١)

الشانى : قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود/ يولد على الفطرة حتى يكون أبواه اللذان يهودانه وينصّرانه) استشهد به فى باب (٢) (ما يكون فيه هو وأنت وأنا ونحن وأخواتهن فصلا) وذلك بقوله (وأما قولهم كل مولود ......الخ) ففيه ثلاثة أوجه فالرفع من وجهين والنصب من وجه واحد فأحد وجهى الرفع أن يكون المولود مضمرا فى يكون والوالدان مبتدآن وما بعدهما مبنى عليهما كأنه قال حتى يكون أبواه اللذان يهودانه وينصرانه

أما الحديث الثالث فقد ذكره فى باب (الفاعلين والمفعولين اللذين كلّ واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذى يفعل به وما كان نحو ذلك)(٣) واستشهد به على جواز حذف المفعول به ما دام معلوماً للمخاطب فقال (ومما يقوى ترك نحو هذا لعلم المخاطب قوله عز وجل

١- الكتاب طبعة بولاق ١٣١٦ هـ ١ / ١٣٦

٢- الكتـــاب ١/ ٣٩٦

٣- الكتاب ١ / ٣٧

(والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات(١) فلم يعمل الآخر بينما اعمل فيه الأول استغناء عنه ومثل ذلك (ونخلع ونترك من يفجرك) فاستشهد بجزء من حديث القنوت المشهور .

في ذلك يقول الدكتور أحمد مكي الانصاري :ـ(٢)

" وفي هذا النص ملحظ لطيف لا يفوتنا أن نقتنصه ونعقب عليه وهو استشهاد سيبويه بالحديث الشريف في قوله (ونخلع ونترك من يفجرك وهذا جزء من حديث القنوت المشهور غير أن سيبويه لم يذكر صراحة أنّه حديث نبوىّ ولم يشر الى ذلك بسابقة و لا لاحقة تشعرنا بأنه من الاحاديث ولا غضاضة في ذلك فقد اعتاد سيبويه ان يذكر من الايات القرآنية دون أن يشير اليها بما يدلّ على أنها من القرآن اعتمادا على أنها معروفة مشهورة.

وربما كان من هذا القبيل ذكره لحديث القنوت دون أن يشير الى أنّه حديث نبوىّ شريف اذ أنّ القنوت مشهور ومعروف للعامة "

واضح أن صاحب الكتاب لم يعتمد على الاحاديث كثيرا وأن المنزلة الاولى كانت للشعر من حيث الكثرة وهو واضح أسس الاستشهاد وموجّة النحاة من بعده ولعل تلك الآقلة محموله من الحديث لانّه قد انحصر

١ـ سورة الاحزاب آية ٣٥

٢ـ سيبويه والقراءات دار المعارف ١٩٧٢ ص ١٨٢ - ١٨٤

كما سيأتي به البيان من ذلك :-

(أ) احتجاجه بالحديث الشريف في تأنيث (معى) واحد الامعاء قال والمعى أكثر الكلام تذكيره يقال هذا (معى) وثلاثة أمعاء وربما ذهبوا به الى التأنيث كأنه واحد دل على الجمع جاء في الحديث (المؤمن يأكل في معى واحد) (١)

(ب) كذلك فعل في احتجاجه على تأنيث الضلع قال والضلع انثى يقولون ثلاث أضلاع وأضلع واذا كثرت فهي الضلوع والاضالع ، جاء في الحديث (خلقت المرأة من ضلع عوجاء)

(ج) وفي موطن ثالث احتج بالحديث على تأنيث الذود قال الذود من الابل مؤنث جاء في الحديث (ليس في أقل من خمس ذود صدقة) وبيان ذلك أن العدد جاء مذكرا خاليا من التاء وهذا دليل على تأنيث المعدود طبقا للقاعدة المعروفة في هذه وأشباهها من أن العدد يأتي عكس المعدود تأنيثا وتذكيرا .

ومن هذه المواطن وأشباهها أبلغ رد على البغدادي ومن لف لفه من الباحثين الذين زعموا أن ابن خروف الاندلسي كان أول من احتج

١- الفراء ومذهبه في اللغة والنحو . أحمد مكي الانصاري طبعة المجلس الاعلى لرعاية الفنون والادب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٤ ص ٨٨

من النحويين بالحديث النبوى كما فيه ردّ ضمنى على الدكتور شلبى حين جعل السبق فى هذا الميدان لصاحبه أبى على الفارسى .

ومن هنا يتضح لنا أن الاوائل من البصريين والكوفيين لم يمتنعوا عن الاحتجاج بالحديث بل أنهم قللوا من الاستشهاد بالحديث. فما هى الدوافع التى دفعتهم الى هذا المسلك ؟

يرجع الدكتور عثمان الفكى ذلك الى البيئة العراقية - وهى التى نشأ فيها النحو - لم تكن فى الاصل بيئة حديث فالحديث نشأ فى الحجاز وانفرد به فى أول نشأته وذلك طبيعى لان مكة منشأ النبى صلى الله عليه وسلم والمدينة مهاجره وكلاهما منبت الصحابة من مهاجرين وأنصار - عاشروا النبى وحدّثوا عنه وحكوا ما رأوا من أقوال وأفعال ولعل أهم مظهر لهذا أن الفقه فى المدينة اتسم بطابع الحديث على يد مالك فى حين اتسم فقه العراق بالرأى على يد أبى حنيفه .

وليس معنى هذا أن العراق قد خلا من الصحابة لأنّ بالكوفة وحدها نحوا من سبعين صحابيا منهم عبد الله بن مسعود ونحوا من هذا العدد بالبصرة ، ولكن هذا لا ينفى أن منبع الحديث ونشأته إنما كانت بالحجاز .

١- رسالة الاستشهاد - ٣١٤

شيء آخر هو أن الثقافة الغالبة في العراق وخاصة البصرة والكوفة هي الثقافة اللغوية والادبية فاهتمت كل من البصرة والكوفة بجمع الشعر وأكثر الرّواة منها كما اهتموا بجمع اللغة من أفواه العرب والبصرة والمربد كانا ملتقى الشعراء والاعراب وميدان المنافسة الفسيح في هذا المجال .

فاللغويون والنحويون الاوائل يغلب عليهم هذا اللون الثقافي من رواية الاشعار وأخبار العرب وكانت البيئة ترى في الشعر الجاهلي مستودع لغة العرب وأن لغة البدو هي النموذج الرفيع الذي يجب أن يحتذى فتجمع لديهم من هذه المادة ما أغناهم عن غيرها وكانت هذه المادة موضوع الدراسة والاستنباط .

ويقول سعيد الأفغاني مفسرا انصراف النحويين واللغويين الاوائل عن الاحتجاج بالحديث . (١)

وقد كان المنهج الحق بالبداهة أن يتقدم الحديث سائر كلام العرب من نثر وشعر في باب الاحتجاج في اللغة وقواعد الاعراب ولكن ذلك لم يقع كما ينبغي لانصراف اللغويين والنحويين المتقدمين الى ثقافة

١- في أصول النحو - ١٩٥١م الجامعة السورية ص٣٥ - ٣٦

ما يزودهم به رواة الاشعار خاصة انصرافا استغرق جهودهم فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودراسته بقية فتعللوا بعدم احتجاجهم بالحديث بعلل كلها واردة بصورة أقوى على ما احتجوا به هم أنفسهم من شعر ونثر .

أضف الى ذلك أن بعضهم كان يؤثر السلامة وينصرف عن الحديث تورعًا وذلك واضح عند الاصمعي مثلا فقد كان لا يفسر شيئا من اللغة له نظير أواشتقاق في القرآن والحديث تحرّجا ولم يرفع من الاحاديث الا احاديث يسيرة (١). روى أنه سئل عن معنى حديث (الجار أحق بسقبه) فقال : أنا لا أفسر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن العرب تزعم أن السقب: " اللزيق" (٢)

الدليل الثاني :- رواية الحديث بالمعنى ووقوع اللحن .

الحجة الثانية التي استند عليها المانعون هي أن الرواة جوّزوا الرواية بالمعنى وبدّلوا في ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعلوم أن المسلمين اشتدت عنايتهم بحفظ أسانيد شريعتهم من الكتاب والسّنّة من عهد الصدر الاول بما لم تعن به أمة مثلهم ، فحفظوا القرآن

١- مراتب النحويين - ، أبو الطيب الكوفي ص ٤٨

٢- مجلة المورد -المجلد التاسع العدد الرابع ١٩٨٠ ص ٦٠

ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترا آية آية وكلمة كلمة وحرفا حرفا ، حفظا في الصدور واثباتا بالكتابة في المصاحف ، حتى رووا أوجه نطقه بلهجات القبائل ورووا طرق رسمه في الصحف وألفوا في ذلك كتبا مطولة وافية وحفظوا أيضا عن نبيهم صلى الله عليه وسلم وكل أقواله وأفعاله وأحواله وهو المبلغ عن ربه والمبين لشرعه والمأمور باقامة دينه . وكل أقواله وأفعاله وأحواله بيان للقرآن . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل شيء يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنهته قريش فذكر ذلك للرسول فقال :- " كتب فو الذى نفسى بيده ما خرج منى الا حق "(١)

فحفظ المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء ورووا الأحاديث عنه واجتهد علماء الحديث في رواية كل ما رواه عنه الرواة وإن لم يكن صحيحا عندهم ثم اجتهدوا في التوثيق من صحة كل حديث وكل حرف رواه الرواة وتفقدوا أحوالهم ورواياتهم واحتاطوا أشد الاحتياط في النقل فكانوا يحكمون بضعف الحديث لأقل شبهة في سيرة الناقل الشخصية مما يؤثر في العدالة عند أهل العلم . كذلك توثقوا من حفظ كل راو وقارنوا رواياته بعضها ببعض وبروايات غيره

١- رواه أحمد في المسند برقم ٦٥١٠

فان وجدوا منه خطأ كثيرا وحفظا غير جيد ضعفوا روايته وان كان لا مطعن عليه فى شخصيته ولا فى صدقه ، خشية أن تكون روايته مما خانه فيها الحفظ وقسموا الحديث الى أنواع متعددة منها الصحيح والحسن والضعيف والمسند والمتصل والموقوف والمرسل والمنقطع والمعضل والمدلس والشاذ والمنكر وماله شاهد والمعلل والمضطرب والمدرج والموضوع والمقلوب .... الخ (١)

ومن المؤكد أن بعض الصحابة كتبوا طائفة من الأحاديث فى حياته صلى الله عليه وسلم ومنهم من كتبها بإذن خاص من الرسول صلى الله عليه وسلم كما أن أكثرهم قيدوا ما جمعوه فى السنوات الأخيرة من حياته عليه السلام بعد أن أذن بالكتابة لكل راغب (٢) . أى أن التدوين للسنة بدأ قبل فساد اللغة ووقوع اللحن واختلاط العرب بالأعاجم .

ومن أشهر الصحف المكتوبة فى العصر النبوى الصحيفة الصادقة التى كتبها جامعها عبد الله بن عمرو بن العاص من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت على ألف حديث كما يقول ابن الأثير (٣)

١- انظر الباعث الحثيث لابن كثير ١٩٥١ بيروت
٢- علوم الحديث - صبحى الصالح ١٩٥٩ بيروت ص ٢٣
٣- أسد الغابة - ترجمة عبد الله بن عمر ٣/ ٢٣٣

ولقد شاعت فى عصر الصحابة صحيفة خطيرة الشأن أمر صلى الله عليه وسلم نفسه بكتابتها فى السنة الاولى للهجرة فكانت أشبه شىء بدستور للدولة الفتيّة الناشئة آنذاك فى المدينة وهى الصحيفة التى دوّن فيها كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق المهاجرين والانصار واليهود وعرب المدينة .

وعبد الله بن عبّاس عنى بكتابة الكثير من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته فى ألواح كان يحملها معه فى مجالس العلم ولقد تواتر أنه ترك حين وفاته حمل بعير من كتبه وكان تلميذه سعيد بن جبير يكتب عنه ما يملى عليه فاذا نفد القرطاس كتب على لباسه ونعله وربما على كفّه ثم نسخه فى الصحف بعد عودته الى بيته . (١)

ورواية الحديث بالمعنى قيّدها العلماء وجعلوها قاصرة على الصحابة دون غيرهم ، ولا بدّ للرّاوى أن يكون عالمًا بصيرًا

١- علوم الحديث - ٢

بالالفاظ ومدلولاتها وبالمترادف من الالفاظ ونحو ذلك فإن كان الراوى

غير عالم ولا عارف بما يحيل المعنى فلا خلاف أنّه لا يجوز له رواية

الحديث بالمعنى وقصر هذا الامر على الصحابة دون سواهم وان استوفى

المعنى بخلاف الصحابة فانهم قد اجتمع فيهم أمران :-

أحدهما الفصاحة والبلاغة اذ جبلتهم عربية ولغتهم سليقة والثانى ،

أنهم شاهدوا قول النبى صلى الله عليه وسلم وفعله فأفادتهم المشاهدة

عقل المعنى جملة واستيفاء المقصد كله . (١)

وقيّد بعض العلماء منع رواية الحديث بالمعنى فى الاحاديث

المرفوعة وأجازها فيما سواها وهو قول ابن مالك وبه قال الخليل واستدل

بحديث (ربّ مبلغ أوعى من سامع) فاذا رواه بالمعنى فقد أزاله عن

موضعه ومعرفة ما فيه وذهب بعضهم الى جواز تغيير كلمة بمرادفها

فقط (٢)

والصحابة رضوان الله عليهم حرصوا على اللفظ النبوى خصوصا

فيما يتعبد بلفظه كالتشهد والصلاة وجوامع الكلم الرائعة وكذلك نجد

١- انظر احكام القرآن - ابن العربى - تحقيق على محمد البجاوى ط
أولى ١٩٥٧ مصر القسم الاول ص ٢٦

٢- الباعث الحثيث - ١٤١

التابعين حرصوا على اللفظ وان اختلفت ألفاظهم فانما يرجع ذلك الى قوة الحفظ و ضعفه ولكنهم أهل فصاحة وبلاغة و قد سمعوا ممن شهد أحوال النبى صلى الله عليه وسلم و سمع الفاظه .

فمن هذا العرض يتضح لنا أنّ الصّحابة و هم أهل الثقة والفصاحة والبيان أدّوا الامانة على وجهها الأكمل فى نقل ما سمعوه من رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه ،كما يتضح لنا أيضا أنهم دوّنوا بعض أحاديثه فى حياته صلى الله عليه وسلم كما أن القيود التى وضعت لرواية الحديث بالمعنى تمنع رفض الاحتجاج لمجرد تبديل للفظ،والقواعد التى وضعها علماء الحديث لقبول الحديث والتى حققوها بأقصى ما فى وسع الانسان،احتياطا لدينهم فكانت قواعدهم التى ساروا عليها أصحّ القواعد للاثبات التاريخى وأعلاها وأدقّها . و قلّدهم فيها علماء اللغة والادب والتاريخ وغيرهم وطبّقوا قواعدهم عند ارادة التوثيق من صحّة النّقل فى أىّ شىء يرجع فيه الى النّقل فعلم الرواية بلا شك أساس لكلّ العلوم النقليّة الاخرى .

والذين منعوا الاحتجاج بالحديث بحجة روايته بالمعنى وتبديل الالفاظ و قبلوا الاستدلال بالشعر فات عليهم أن الشعر لحقه ما لحقه

من التبديل، والنحل، والتحريف، وهو أمر فاش بين رواه الشعر منتشر في كتب الادب والامثلة كثيرة مستفيضه منها ما رواه ابن جنى بسنده عن أحمد بن يحيى قال : كان يحضر ابن الاعرابى شيخ من أهل مجلسه فسمعه ينشد :-

و موضوع زبن لا أريد براحه
كانس به من شدة الروع آنس (١)

فقال له الشيخ ليس هكذا أنشدتنا يا أبا عبيد الله فقال كيف أنشدتك ؟ فقال له (وموضع ضيق) . فقال سبحان الله تصحبنا منذ كذا وكذا سنة و لا تعلم أن الزبن و الضيق شيء واحد . ثم يقول ابن جنى معلقا فهذا لعمرى شائع في الشعر وتحريفه جائز لانه ليس دينا و لا عملا مسنونا "

والبيت للمرقش الاكبر ذكره المفضل الضبى (٢) فى قصيدة له مطلعها :-

أمن آل أسماء الطلول الدوارس
يخطط فيها الطير قفر بسابس

١- المحتسب - ابن جنى ، تحقيق على النجدى ناصف وآخرين المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١/٢٩٧ - ٢٩٨

٢- المفضليات - تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط ثالثه ١٩٦٤ دار المعارف - مصر ص ٢٥٥

و فيها ورد البيت على هذا النحو :-

و منزل ضنك لا أريد مبيته

كأني به من شدة الروع آنس

و من المحدثين الذين توسطوا توسط الشاطبى الاستاذ / محمد الخضر حسين الذى يرى أن ستة أنواع من الاحاديث لا ينبغى الاختلاف فى الاحتجاج بها فى اللغة و من عنده .(١)

أحدها :- ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته عليه الصلاة والسلام كقوله : حمى الوطيس وقوله مات حتف أنفه و قوله (الظلم ظلمات يوم القيامه) الى نحو هذا من الاحاديث القصار المشتملة على شىء من محاسن البيان كقوله (مأزورات غير مأجورات) و قوله (انّ الله لا يملّ حتى تملوا)

ثانيها :- ما يروى من الاقوال التى كان يتعبد بها أو أمر بالتعبد بها كألفاظ القنوت والتحيات وكثير من الاذكار والادعية التى كان يدعو بها فى أوقات خاصة .

ثالثها :- ما يروى شاهدا على أنه كان يخاطب كل قوم بلغتهم ومما

١- دراسات فى العربية و تاريخها - ط ثانية ١٩٦٠ دمشق ص ١٧٧

فهو ظاهر أن الرواة يتعمدون في هذه الانواع الثلاثة لرواية الحديث بلفظه .

رابعا :ـ الاحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها فان اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها والمراد أن تتعدد طرقها إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الصحابة أو التابعين الذين ينطقون الكلام العربي فصيحًا .

خامسها :ـ الأحاديث التي دوّنها من نشأ في بيئة عربيّة لم ينتشر فيها فساد اللغة كما لك ابن أنس وعبد الملك بن جريج والامام الشافعي .

سادسا :ـ ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل ابن سيرين والقاسم بن محمّد ورجاء بن حيوة وعلى ابن المديني .

وخلاصة القول عندنا : أن الاوائل قللوا من الاستدلال بالحديث ولم يمتنعوا عنه وذلك لا نشغالهم برواية الشعر وعلوم اللغة والادب وذلك تأثرًا بالبيئة الثقافية التي عاشوا فيها . كما أن من احتج بالشعر ومنع الحديث لأنه روى بالمعنى ولحقه شيء من التبديل ، كان

الاجدر به أن يمنع الاحتجاج بالشعر أولاً، لأنه لم يأمن بمنجاة من التبديل . وما وضعه الاوائل من تشدد و قيود لقبول الرواية في الحديث لم يضعه رواة الشعر و لا القائمون بأمر روايته و أن الصحابة الذين احتجوا بالحديث النبوي هم أهل فصاحة و بلاغة و بيان - كما أن النقل بالمعنى انما كان في الصدر الاول قبل فساد اللغة وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به وهذا مما لاحظه بعض العلماء كالبدر الدماميني (١) فيما يحكيه عنه صاحب خزانة الادب . فان صحت الرواية صح الاستشهاد .

١- خزانة الادب ١/٦

الفصل الرابع

الاسلوب القصصي في الحديث النبوي

الاسلوب القصصي من الأساليب المحببة للنفس البشرية وحبه شيء غريزي اذ أنه يقوم على حب الاستطلاع وترقب النهايات واستعظام المفاجآت

وحين لمس القرآن حاجة النفس الى القصص جاء بأخبار الأولين من أمثال فرعون وعاد وثمود وشعيب وقصة مريم وامرأة العزيز وبلقيس وأهل الكهف ، وقد تناولت القصة القرآنية جميع الاغراض الدينية تقريبا . فاثبات الوحي والرسالة واثبات وحدانية الله وتوحيد الأديان في أساسها والانذار والتبشير ومظاهر القدرة الالهية وعاقبة الخير والشر والعجلة والتريث والصبر والجزع والشكر والبطر وكثير غيرها من الاغراض الدينية والمرامي الخلقية قد تناولته القصة وكانت أداة له وسبيلا اليه (١)

ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وهو تلميذ القرآن الكريم - استخدم القصة في الهداية والارشاد بعد أن أدرك أثرها في النفوس فجعلها وسيلة

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب/ ١٢٠ .

من وسائل الدعوة الشريفة الى الاسلام ، تقرر العقيدة وتبسط الفكرة وتشرح المبادئ وتوضح الطريق وتفسر القرآن وتحذر من الخطأ وتذكر بالخير وتبين ما غمض وأبهم فهي مادة تنفع العقل وتمتع الوجدان .

والقصة النبوية وان كانت ذات غرض ديني الا أنها اتسمت ببعض الخصائص الفنية التى بها يتحقق الغرض الديني للقصة عن طريق الجمال الفنى اذ أن هذا الجمال يجعل ورودها الى النفس أيسر ووقعها فى الوجدان أعمق . فالمتتبع للأحاديث النبوية يجد فيها كثيرا من كلام النبوة قد صب فى قالب قصصى يتناول كل منها جانبا من جوانب الحياة . وهى مع قصرها وايجازها - فى أغلب الأحوال - نجد فيها أبرز سمات القصص الفنى وعناصره . نجد فيها عنصر التشويق واستثارة فضول الناس وبعث حب الاستطلاع فيهم والتصوير الفنى للمواقف ، فهو صلى الله عليه وسلم يصل الى مناط الحركة النفسية والفكرية والسلوكية والعاطفية فى متلقية ، فيقتدر بها على توجيهه فى الوجهة التى يريدها نفسيًّا أو فكريًّا أو سلوكيًّا أو عاطفيًّا .

والقصة النبوية تأخذ سمات البيان النبوى ذاته فمضمونها هو مضمون البيان النبوى وأسلوبها لا يكاد يختلف عن باقى فنونه اذ الكل يفيض من نبع واحد وينطلق متشعب الطرق الى غاية واحدة .

فان أراد صلى الله عليه وسلم غرس معانى الرحمة الواجبة حتى للحيوان فى نفوس أصحابه ،لم يكتف بإلقاء العظة جافة جافية وانما وضعها فى أسلوب قصصى جذاب فهو يقول :-

(بينما رجل يمشى فى الطريق ، اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فشرب ثم خرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل :- لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منّى فنزل البئر فملأ خفّه فسقى الكلب فشكر الله فغفر له)(١) رواه البخارى ومسلم .

قصة موجزة كاد الايجاز أن يبلغ بها مبلغ الخبر الا أن هذا الايجاز المعجب لم يمنع بروز العناصر الفنية فى عرضها ، فيها التصوير النفسى للرجل الذى اشتدّ به العطش وما من أحد منا لم يمر بهذه التجربة

---

(١) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول - تأليف الشيخ منصور على ناصف ط ٣ ، ١ مصر ٢ / ٢٦٤ .

ولكننا ندرك المعاناة التي يعيشها من يحرم من الماء أو يظمأ ، ولنا أن نتخيل حال الرجل النفسية وهو يجد البئر ولكن هل انتهى الأمر الى هذا الحد وهو العثور على ما هو مطلوب وهو الماء ؟ كلا ، بل تقابل هذه الحالة النفسية حالة أخرى وهي حالة الكلب الذي يلهث من شدة العطش والتصوير البليغ الذي رسمه الحديث اذ أنه بلغ به الحال حتى أكل الثرى، ورقة قلب الرجل الذي أثارته حال الكلب حتى نزل وسقاه ، ففي ذلك من الاثارة والتشويق ما تعجز عنه طوال القصص . وبعد ذلك لا تخفى عليك العبارة الهادفة التي وضعت في ذلك الاسلوب الممتع فكانت بالنفس ألصق وبالفؤاد أعلق .

وهو ان أراد صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أن الله يفرح بتوبة العبد وإنابته ، لم يكتف بإلقاء الخبر صلداً مجرداً وإنما يضعه في اسلوب قصصي شيق، يقول عليه الصلاة والسلام (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك اذ هو بها قائمة فأخذ

بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح)(١).

فالغرض الديني واضح وهو فتح باب التوبة للجميع ، إلا أن الاسلوب الفني الأخاذ يجعل منها درسا فنيا لا يكاد يفارق صداه كل من تلقاه فالرجل الذي ذهبت عنه راحلته وأخلها بغير قصد وعليها طعامه وشرابه . ومسرح الأحداث في هذا كله أرض فلاة أي مفازة مهلكة ليس فيها ما يؤكل أو يشرب ، فلك أن تتصور حال ذلك الرجل في تلك المفازة وحالة اليأس التي أصابته حين فقد راحلته التي عليها زاده ومتاعه ، ألا يثير كل ذلك في النفوس أثرا بليغا ؟ وبعد سوء حالة تجئ المفاجأة السارة اذ هو بها قائمة ، لا شك أنه تحول مفاجئ ومن مفاجئ ، صوره أبلغ تصوير إذ أنه في حال دهشة وذهول يخطئ فيقول : اللهم أنت عبدي وأنا ربك وبذلك ، يتحقق الغرض الديني وهو قبول الله للتائب الآيب المقلع عن المعاصي والذنوب ، النادم على ما فات .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب التوبة .

سادت المجتمع العربي معتقدات خاطئة ظلّت تقودهم قروناً طويلة منها عقيدة خضوعهم لسلطان الكهنة والعرّافين والاحجار والانصاب . يتوهمون فيها القدرة على الشفاعة عند الله لتخليصهم من ذنوب وآثام اقترفوها أو حمايتهم من نوائب الزمان حتى قالوا :- (ما نعبدهم الّا ليقربونا الى الله زلفى)(١) فلمّا جاء الاسلام وجد هذه المعتقدات قد سادت حتى المجتمعات الكتابية ، فرجال الدين تحوّلوا الى وسائط يتوسل بها الى الله ويستشفع بها المخلص من كلّ ما يصيب من ثم كان تخليص البشرية من ذلك المعتقد من القضايا التي اهتم بها القرآن الكريم فتناولها في سور مختلفة وفي مواطن متعددة من ذلك قوله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (٢) وقوله (ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع لعلهم يتقون)(٣) وقوله (لا يملكون الشفاعة الّا من اتخذ عند الرحمن عهدا)(٤) وقوله (إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا)(٥)

---

(١) سورة الزمر / ٣

(٢) سورة المدثر / ٤٨

(٣) سورة الأنعام / ٥١

(٤) سورة مريم / ٨٧

(٥) سورة يس / ٢٣

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم علاج تلك القضية تبيانا للقرآن فتناولها فى عمل قصصى يبين قيمة العمل الصالح وأثره فى كشف ما يصيب الانسان من كوارث وامكان الاستشفاع به الى الله ، وبيان أنه الشفيع الحق الذى يقبله الله تعالى ، ويبين أبعاده وحدوده ويقرر أن العمل الذى يقصد به طاعة الله ورضاه أيّا كان هو خير شفيع عند الله فجاءت القصة عن أبى هريرة رضى الله عنه (بينما ثلاثة نفر يمشون فآووا الى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا بها لعلّ الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ولى صبية صغار أرعى عليهم فاذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدىّ فسقيتهما قبل بنىّ وأنه نأى بى ذات يوم الشّجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمىّ فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ففرج الله منها

فرجة فرأوا السماء . وقال الآخر : اللهم انه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبت اليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها فلما وقعت بين رجليها ، قالت : اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحقه فقمت عنها . فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة . ففرج لهم . وقال الآخر : اللهم اني كنت استأجرت أجيرا بفرق ارز فلما قضى عمله ، قال : أعطني حقي فعرضت عليه فرقه ، فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فجاءني فقال : اتق الله ولا تظلمني حقي ، قلت اذهب الى تلك البقر ورعائها فخذها ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بي فقلت : اني لا استهزئ بك . خذ ذلك البقر ورعاءها فأخذها فذهب به فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي ففرج الله ما بقي](1)

أراد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه توضيح أهمية العمل الصالح في الحياة الذي ينقذ من الضيق ويقي من الكرب ، فكانت هذه فكرته

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاجارة في باب اذا اشترى شيئا لغيره بغير اذنه فرضي

الاساسية في القصة . الا أن هنالك بعض الافكار الخلقية الدينية تساند هذه الفكرة وتتصل بها بخيوط حريرية رفيعة ولكنها متينة تحكم الربط ، تلك هي فكرة حب الوالدين والقيام بخدمتهما وحسن رعايتهما والاحسان اليهما عند المتحدث الأول . وفكرة ثانية هي الرجوع عن المعصية بعد الاقدام عليها وذلك ما حكاه المتحدث الثاني ، وثالثة الافكار كانت التخلص من سلطان المال وسطوته وتسليطه لصاحبه وما كان لأحد أن يمنعه من استحواذه لولا ما وجد بداخله من قوى تدفعه عن ذلك عند ثالث الرجال . ثلاث أفكار قوية تؤدى الى الفكرة الاساسية وهى تقرير العمل الصالح بل انها تدلك عليها بأحداثها الواضحة

والمتأمل فى بداية القصة يجد أنها بداية مثيرة للفضول فى كلمات موجزة قليلة أغنت عن وصف مسهب يقوم به منشئ ليرسم الأحداث (بينما ثلاثة نفر يمشون فأووا الى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم) فانطباق الصخرة فيه من المفاجأة والاثارة مايشد المستمع ويشوقه الى تتمة ما كان .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين جعل الاسلوب القصصي من عمده التي يغزو بها المشاعر ويحيى النفوس انما اعتمد على سلاح قوى نفاذ وقد أجاد استعماله بما أبدع فى قصصه من تصوير وتلوين فهذه القصة وان اعتمدت على عنصر المناجاة وكان اقوى العناصر فيها حيث رفع كل سجين يده ليناجى ربه بما اسلف من الخير فى حياته طلبا للنجاة ، لكنها ايضا اعتمدت على التصوير الدقيق ففى مناجاة الأول صورة الوالدين يغطان فى النوم والابن قائم على رأسيهما والصبية يتضاغون فالمقابلة النفسية بين بكاء الاطفال وتصبر الوالد وتماسكه حتى يستيقظ والداه لهى من أكبر المقابلات وهنا أيضا فهم الهدف الخلقى من مراعاة حقوق الوالدين فهما تأثيريا لم ينبع من الوعظ ولكن من رسم المشهد فى أدق صورة وهنا جاءت النتيجة السارة المرتقبة اذ تزحزحت الصخرة فرأوا لون السماء ، وترك المستمع لتخيل الحال النفسية التى صحبت ذلك التزحزح .

والموقف الثاني الذى يصور لنا حالا من حالات الضعف البشرى والخضوع لسلطان الشهوة والدعوة الخالصة المقنعة الى العفة وصيانة المحارم فى صورة دقيقة تجذب بتأثيرها الرائع نفس السامع فتقوم مقام عشرات من الخطب المنبرية فى التصون والعفاف ثم يأتى الفرج .

مفاجأة ثالثة ترسم مفاجأة غريبة ، أجير كان يطمح فى أجر زهيد فقط يسارع الى طالبه فيقول له صاحبه اذهب الى تلك البقرة فخذها جميعا بلا يسدد اطلاقا ويصيح : اتستهزئ بى ؟ ثم يجد جدا لا هزل فيه فيخرج صاحب البقر والرعاة . أى دعوة الى المحافظة على حق الأجير أقوى ممارسته القصة فى فعلها الأخير ؟ وأخيرا جاءت النتيجة النهائية سارة مطمئنة اذ كشف الله الصخرة فخرجوا يمشون .

قضية أخرى هى قضية الانسان بين حاضره وماضيه واختلاف النّاس فى ذلك وتباينهم فمنهم من ينكر ماضيه تماما ويحاول الغاء هذه الفترة من حياته ومنهم من يطل على ذكرها متّخذاً منها دافعاً للخير . هذه القضية تعالج بأسلوب قصصى نبوىّ شريف أعتمد فيه على تصوير الاشخاص وهى قصة الأبرص والأقرع والأعمى التى رواها الشيخان[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :- سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان ثلاثة فى بنى اسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن

---

(١) التاج ٥ / ٢٢٠ .

بيتليهم فبعث اليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شئ أحب اليك ؟
قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس . فمسحه
فذهب عنه قذره وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال
أحب اليك ؟ قال الابل فأعطى ناقة عشراء . فقال : بارك الله
لك فيها . قال : فأتى الأقرع ، فقال : أى شئ أحب اليك ؟
قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس قال : فمسحه
فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب اليك ؟
قال : البقر فأعطى بقرة حاملاً . فقال بارك الله لك فيها . قال
فأتى الأعمى فقال : أى شئ أحب اليك ؟ قال أن يردّ الله الى بصرى
فأبصر به الناس قال : فمسحه فردّ الله اليه بصره . قال : فأى المال
أحب اليك . قال : الغنم فأعطى شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا
فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم
قال : ثم انه أتى الأبرص فى صورته وهيئته . فقال : رجل مسكين
قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك .
أسالك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيرا اتبلغ
عليه فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة . فقال له كأنى أعرفك ، ألم تكن

أبرص يقذرك الناس ، فقيرا ، فأعطاك الله ؟ فقال : انما ورثت
هذا المال كابرًا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبًا فصيّرك الله الى
ما كنت . قال : وأتى الاقرع فى صورته فقال له : مثل ما قال لهذا
ورد عليه مثل مارد عليه هذا . فقال : ان كنت كاذبًا فصيّرك الله الى
ما كنت . قال : وأتى الأعمى فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين
وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فقال : قد كنت أعمى فردّ الله
الىّ بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت . فوالله لا أجهدك اليوم
شيئا أخذته لله . فقال : أمسك مالك فانما ابتليتم . فقد رضى عنك
وسخط على صاحبيك) رواه مسلم فى كتاب الزهد والرقاق والبخارى فى
بدء الخلق .

قصد الرسول صلى الله عليه وسلم الى الاسلوب القصصى قصدا ،
متوسلا به للوصول الى أغوار النفس البشرية والتأثير ، فقدم حالات
بشرية مماثلة تفضح عما قد يخفى على الانسان ، وتكشف الستر عن
أسرار النفس وتبرز النتيجة اللازمة لهذا من واقع الانسان ذاته فالقصة
ترسم لكل شخصية من هؤلاء الثلاثة صورتين متقابلتين بينهما من الفرق
ما بين السماء والأرض من أبعاد وبتأمل الصورتين المختلفتين ينجلى

[illegible] النعمة وحلول النقمة . ويحسن التصوير حين يقف المتنازعان ليقول أحدهما فى تحدّ هازئ : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فيرد عليه ساخرًا به . متشامخًا : إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر فيصفعه الردّ المفحم مجابها : إن كنت كاذبًا ، فصيّرك الله الى ما كنت . أما الأعمى فيحسن بمأساته القديمة وتكاد تتجسم بهولها الفاجع لعينيه ، فيقول فى عاطفة مشفق : أجل كنت أعمى فردّ الله بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت . فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله .
كلمات صادقة معبّرة يقرؤها القارئ لا ليلمّ بمعناها الاجمالى ، كما يتابع كثيرا من الآثار ، ولكنه يقرؤها لترتسم أمام عينيه فكأنه يستعرض شريطًا سينمائيا يمثل له الأبرص والأقرع والأعمى فى الخفض والشدّة والهناء والشقاء حتى اذا انتهت مشاهد الشريط لم ينقطع تيارها الدافق بل تفسح مجال التأمل للمعتبر وهى بذلك تدفع الايدى الشحيحة الى البسط بعد أن عرفت بها معاقل الشحّ والامساك .

والمتأمل فى هذه الصورة لابدّ أن يسبح سبحًا طويلًا فى عوالم البشر ويذهب بخياله الى أناس يعرفهم فى مدى حياته ورزقوا الصحّة

بعد العسر والغنى بعد الفقر والجاه بعد المذلة ، فكفروا بأنعم الله وانطبق عليهم قوله الكريم (كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى)[1] وقوله عز وجل (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض)[2] ومالنا نبعد وأمامنا نموذج القرآن فى ثعلبة بن حاطب[3] الذى قال :- يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لايسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض فقال ماهذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية وقال ارجعا

---

(1) سورة العلق / ٦

(2) سورة الشورى / ٢٧

(3) الكشاف ٢ / [illegible]

حتى أرى رأى فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه يا ويح ثعلبة مرتين فنزل قوله تعالى (فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون)[١] .

والاسلوب القصصى كما أسلفنا يأخذ سمات البيان النبوى ووسائله فى الابلاغ شأنه فى ذلك شأن السبل الأخرى فى الايجاز والتصوير واختيار الألفاظ والدّقة فى التعبير وذلك بجانب الاشارة والتشويق فالايجاز صفة غالبة على اسلوب النبى صلى الله عليه وسلّم بصفة عامة واسلوبه القصصى بصفة خاصة ، وهو واضح فى قصة الرّجل الذى اشتد به العطش وغيرها من القصص التى تعالج جانبا من جوانب الحياة. والايجاز والدقة ايضا ملاحظ فى الكناية البديعة البليغة فى قول البنت لابن عمها (اتق الله ولا تفتح الخاتم الاّ بحقّه) وفى غيرها من الالفاظ القليلة التى تحمل كثير المعانى كقول الملك فى قصة الأعمى والأقرع (رجل مسكين قد تقطعت بى الحبال) والدقة فى قوله صلى الله عليه وسلم (فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش) ولم يقل يلهث من العطش أو اشتد به العطش . لكن فى عبارة موجزة موحية عبّر عن شدّة العطش وما بلغه من شدة .

---

(١) سورة التوبة / ٧٦ .

وعبارة دقيقة أخرى في قصة الرجل الذى انفلتت منه راحلته اذ يقول (كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه) فلما أراد أن يوضح حاله بدقة جعله في أرض فلاة وجعل الراحلة تذهب كذلك بالطعام والشراب ، فكان فقدان الراحلة وفقدان الطعام والشراب ، دقة في تصوير سوء حاله في تلك الفلاة المهلكة .

أما الشخصيات التى يقوم عليها الاسلوب القصصي في البيان النبوى فلا تجد اهتماما منه صلى الله عليه وسلم - اكثر من التعرف على ماصدر منها في الحالات الخاصة ، فنجده في أغلب قصصه لا يعرف القارئ بها اسما أو موطنا أو زمانا أو مكانا ويكتفي بتقديمهم تقديما عاما فنجده يقول مثلا (بينما رجل - أو بينما امرأة أو ثلاثة نفر وهكذا) كما أنه لا يعمد الى توضيح العلاقة التى تربط الاشخاص ولا تهتم بابراز شئ من بينهم الا بالقدر الذى يكشف عن الأحداث .

وكذلك الأحداث لا تجد اهتماما متزايدا الا بالقدر الذى يبرز المواقف كما أن المواقف نفسها منتقاة بالقدر الذى يوصل

المتلقى الى الغاية والهدف .

وهذا الاغفال للأشخاص والأحداث اغفال مقصود منه صلى الله عليه وسلم اذ أن غاية الأحداث ليست مقصودة فى ذاتها بل يقدم منها الجانب الذى يكشف عن الغرض دون سواه .

فالقصة فى البيان النبوى تقوم على أحداث متفرقة مختلفة لا يناظمها رابط الزمان ولا رابط المكان ولا رابط الاشخاص وهكذا يتحقق للقصة غرض من أدق الأغراض الاسلامية بما تقوم عليه من أحداث لامراء فى توافقها مع كل عصر وجيل فهى ليست أحداثا خاصة بقوم معيّنين ولا مقصورة على بيئة معينة وانّما هى نماذج انسانية خالدة متكررة على مدار التاريخ الانسانى كلّه ، وهذه غاية الرسالة المحمدية التى تصلح لكل زمان ومكان

الفصل الخامس

الخطابة النبوية

الخطابة فن معروف عند العرب في الجاهلية ، ولما كانت الحياة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حياة حروب وغارات وخصومات ، مع الحرية التامة ، كان لا بد أن تفيض الالسنة الفصيحة بما تجيش به الصدور فاتخذ العرب من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الامراء ووفادتهم عليهم ، ميادين لاظهار براعتهم وتفننهم في المقال معتمدين في ذلك على ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من ذلاقة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة .

والاغراض التي استخدمت فيها الخطابة الجاهلية لم تكن سوى المنافرات والمفاخرات[1] بالاحساب والانساب والمآثر والمناقب والحض على القتال وبعث الموجدة في نفوس قبائلهم ودفعها الى نيران الحرب، وفي بعض الاحيان في الدعوة الى السلم واصلاح ذات البين ، وخطابتهم في الوفادة على الامراء ذائعة مشهورة .

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١ .

وواضح من هذه الاغراض أن الخطابة الجاهلية لم تخاطب العقل مخاطبة واعية بصيرة ولكنها كانت صورة تتحمس يصيح بها فى ملأ أى أنها لم تكن خطابة منطقية مقنعة كما أنها فى كثير من أحوالها تفتقر الى الصدق ، اذ أن الخطيب لا يلتزم باتباع المنطق فى القول والحجة والمناقشة ، وجعلوها مجالا للخلابة والمباهاة وموضوعا للافتخار بالفصاحة والاغراب ومصدر تيه واعجاب . فجاءت الخطابة الجاهلية لا تعنى بالترتيب والتسلسل ولا تركز على أساس من وحدة الموضوع وصحة المنطق وكان اسلوبها يعتمد على الاسجاع والتزين كأسجاع الكهان التى كانت تعتمد كثيرا على الابهام والغموض والاغراب .

وكانت العرب تخطب بالمخاصر وتعتمد على الارض بالقسى وتشير بالعصى والقنا وقال الشاعر :-

مجالسهم خفض الحديث وقولهم اذا ما قضوا فى الامر وحى المخاصر[1]

كما أنهم كانوا يلزمون العمائم فى أيام الجموع .

وقد مدحوا فى الخطيب جهارة الصوت وسعة الفم كما مدحوا فيه اللسن والفصاحة وشدة العارضة وظهور الحجة . وذموا فيه العى والارتعاش والعرق والحصر والتشادق والتكلف والاغراب .

---

(١) المرجع السابق ١ / ٣٧٠ .

ولما جاء الاسلام وكلف الرسول بالدعوة اليه سرًا وجهرًا وامره بتفصيل ما أجمل القرآن وتفسير ما أُبهم فيه توسّل صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بكل الوسائل التي يرى أنها محققة ما كلّف به من ربّه وكان من بين تلك الوسائل مخاطبة الجموع ومحاورتها ،قصدًا الى الاقناع وإزالة اللبس والشبهات استجابة لقوله تعالى (ادع الى سبيل ربك ، بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (١) .

جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والخطابة الجاهلية ، كما أسلفنا لا ترتكز على أساس من وحدة الموضوع وصحة المنطق فأحدث فيها إنقلابًا كبيرًا ،شمل الشكل والمضمون والاسلوب والاغراض . ومن ثمّ أخذ فن الخطابة مكانة بين فنون البيان عند الرسول صلى الله عليه وسلم واقبل عليه يوظفه في تلك الوظيفة الدينية الجديدة . ويخاطب به كل جمع وينهج فيه الاسلوب الامثل ،الذى يصله بقلوب الناس وعقولهم .

ورسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الاعلى للخطيب الممتاز شكلا وموضوعًا ،أما من ناحية الشكل فقد كان المظهر المرئي لشخص الخطيب من بواعث توفيقه كما كانت جهارة الصوت وقوته من بوادر النجاح .

---

(١) سورة النحل / ١٢٥ .

ولنستمع معا الى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم فى سيرة ابن هشام (١) فيما ذكر عمر مولى غفرة عن ابراهيم بن محمد بن على بن ابى طالب " قال : كان على بن ابى طالب عليه السلام اذا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لم يكن بالطويل الممغط (٢) ولا القصير المتردد كان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط وكان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم (٣) ولا المكلثم (٤) وكان أبيض مشربا ادعج العينين أهدب الاشفار جليل المشاش (٥) والكتد (٦) دقيق المسربة (٧) أجرد شثن الكفين والقدمين ، اذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب واذا

---

(١) سيرة ابن هشام مراجعة محمد محى الدين عبد الحميد ١/ ٧

(٢) الممغط : الممتد

(٣) المطهم : العظيم الجسم ، أى أنه لم يكن بدينا شديد البدانة ٠

(٤) المكلثم : المستدير الوجه فى صغر ٠

(٥) الكتد : مابين الكتفين ٠

(٧) المسربة : الشعر الذى يمتد من الصدر الى السرة ٠

التفت التفت معـا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفى الناس ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته ، لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم).

ومن كانت هذه أوصافه وهذا مظهره لابدّ أن يحوز بوادر النجاح لمجرد رؤيته ، اذ القلوب اليه أجذب وعلى سماعه أحرص .

أما صوته فقد كان سلسا مفصلا حتّى ليحفظه السامع اذا سمعه لا يميل الى صخب مرتفع ولا تحرقه حبسه ، ولا تقف به ثأثأة أو لثغة "وكان اذا خطب علا صوته واحمرت عيناه واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسّاكم" (١)

وجهارة الصوت مدحها العرب في الخطيب وذموا الضئيل الصوت قال الجاحظ :- (٢) حدثني محمد بن يسير الشاعر قال : قيل لاعرابي

---

(١) زاد المعاد ١ / ٤٤

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٢١ .

ما الجمال قال : طول القامة وضخم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت .

مما مدح به العمانى هارون الرشيد (١) :-

جهير العطاس شديد النياط ... جهير الرواء جهير النغم

ويخطو على الأين خطو الظليم ... ويعلو الرجال بجسم عمم

وقد كان العباس بن عبد المطلب جهير الصوت وقد مدح بذلك وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين حين ذهب الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى العباس : يا أصحاب السمرة هذا رسول الله فتراجع القوم وانزل الله عز وجل النصر وأتى الفتح .

وقال بشار بن برد يهجو بعض الخطباء (٢) :-

ومن عجب الايام أن قمت ناطقاً

وأنت ضئيل الصوت منتفخ السحر

---

(١) المرجع السابق / [illegible]

(٢) البيان والتبيين / [illegible] .

أما الاهتمام النبوى بالموضوع فى الخطب فقد صار عليه أقطار نفسه ، فقد تناول فيها كل ما يتعلق بالدعوة الاسلامية من عقائد وعبادات وقيم أخلاقية وآداب سلوكية سامية وغير ذلك مما جاء به الاسلام فروعا وأصولا . ولم يترك صلى الله عليه وسلم مناسبة أو فرصة يجتمع فيها الناس الا انتهزها فرصة لبيان أمر من أمور الاسلام ولقد حرص صلى الله عليه وسلم على مراعاة الموقف والقضية التى يعالجها فى خطبه والناس الذين يخاطبهم فجاءت خطابة متباينة فى الطول والاسلوب .

سمات الخطابة النبوية :-

(أ) الايجاز :-

الايجاز هو تأدية المعانى الكثيرة بالالفاظ القليلة وهو غالب على أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الايجاز قوة فى التعبير وامتلاء فى اللفظ وشدة فى التماسك وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وهذه القوة كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ومن هنا شاعت جوامع الكلم على خطابه .

فقد جاءت معظم خطبه عليه السلام موجزة تحمل المعانى الكبيرة وقد ينذر عليه الصلاة والسلام الخطاب الطوال بالكلام القصير ، اذ أن الايجاز

العربي فى بلاغته المعجزة وليد ذهن ثاقب يستعرض حشوداً من المعانى ليبرزها فى عبارة موزونة تكون جوامع الكلم وشوارد المثل ، فى عبارة مركزة لمادة دسمة تضم من أسباب القوة ما يتيح لها التغلب والنفاذ ، ومن هنا كان الأديب الموجز أعرق فى البلاغة من الأديب المطنب اذ أن الثانى يدوّن خواطره كما تجئ أما الأول فيقف وراء هذه المعانى المنثالة يطالع وجوهها ويتأمل منازعها ثم يأتى بفحواها الشامل فى جملة تصيب المحز وتطبق المفصل .

قال عليه الصلاة والسلام فى احدى خطبه :-

(أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب ، وكأن الذى نشيع من الاموات سفر ، عما قليل راجعون نبوّئهم أجداثهم ، ونأكل من تراثهم ، كأنا مخلّدون بعدهم ، نسينا كل واعظة ، وأمنا كلّ جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة وخالط أهل الذلّ والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة)(١)

---

(١) صبح الأعشى - القلقشندى طبعة بولاق ١٩٠٣ مصر ١ / ٢٣٠ .

المتأمل لهذه الخطبة القصيرة الموجزة يحس بأن الخطيب قسم أفكاره وحدد معانيه فى براعة تبعده من الحلل اللفظية والعبارات المكرورة ومع ذلك لا تجد فيها غموضاً ولا لبساً ولا نقصاً ، بل ما أراد أن يوضحه وضحه دون إخلال مما يقرر أنه صلى الله عليه وسلم يقول عن وعى تام بما يريد أن يقول وتصور كامل لخطواته التى توصله الى مراده وتمكن فطرى من لغته التى يستخدمها فهى طوع لسانه يأخذ منها مايريد لما يريد فى الوقت الذى يريد .

فذكر الناس بالموت من غير تهويل ولا تهديد ولا وعيد ، وحثهم لانفاق الاموال فى طاعة الله ، وحبب إليهم التعلم والتفقه والتواضع وحسن الخلق فى كلمات موجزه يكاد يحفظها من يسمعها .

وهذا لا ينفى انه صلى الله عليه وسلم ، لم يطنب فى خطبه ، فقد يقتضى الامر لمناسبة عارضة أن يفيض الرسول فى القول فلايتأخر لأن الاطناب والتكرار فى موضعه كالايجاز والاختصار فى موضعه وانما العبرة بالتصرف فى وجوه القول ، والقرآن والحديث يراوحان بين هذين الاسلوبين وإن كانا فى الايجاز أرغب وعليه أحرص .

(روى أبو سعيد الخدري (١) أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد خطب ذات يوم بعد العصر ، ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حمرة على فوق أطراف السعف) ، ولم يذكر موضوع خطبته تلك حتى نقف على الدوافع التي حدت به الى تجنب الايجاز . ومن يدري لعل الله قد شاء له أن يطيل لتحطيم الحسد في أعدائه ، أنه يملك أزمة البيان الطويل وأن ايثاره للايجاز ترجيح صائب للجادة المثلى من طرق الحديث . واذا كان لكل مقام مقال فإن مقام الايجاز يستدعي من الخبرة النفسية والثقافية الطبيعية ذخيرة وافية . وفي بعض الاحيان تتهيأ النفوس للاطناب وتحين المناسبة لذلك فيوجز الرسول صلى الله عليه وسلم ايجازا لا مجال بعده لاطناب وتطويل ، ويترك النفوس ذاهلة لا تدري كيف استطاعت الجمل المحدودة أن تفعل مالا يفعله حديث اليوم الطويل ، فيخلق جوًّا من التأمل والعبرة والحيرة يمتد أياما طويلة دون أن ينقطع فيضه أو يغيب صداه . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع الى مكة يوم الفتح الاعظم فيقتحم عرينًا طالما جمع أعداءه وذوي الضغائن من مناوئيه . وتخفق راية النصر على جبين الاسلام سابقا ظافرا

---

(١) اعجاز القرآن - الباقلاني - ١٦٣ .

وإذ ذاك تتطلع العيون الكافرة دامعة مغيظة ترتقب أن يفاجئها الجزاء الرادع من المنتصر دون إبطاء . ثم يقف الخطيب القائد ، فلا يشك مستمع فى أنه سيتعرض الى تاريخه الطويل مع أعدائه ، متشفيا ، شامتا وسيعدد ما منّ الله عليه به من فوز سابق ثم يميل بالتهديد والوعيد الى قوم أخرجوه من وطنه وآذوه فى دعوته وناصبوه الحرب فى مغتربه بالله كم ينتظر السامع من محمد صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا اليوم الأغر أنه ليقف والأبصار خاشعة والرقاب منحنية فيقول :-

(لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كلّ مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدمىّ هاتين ، الا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، الا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا ، فيهما الدية مغلظة ، منها أربعون خلفة فى بطونها أولادها ، يامعشر قريش ، إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم خلق من تراب ، ثم تلا (يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا ، أن أكرمكم عند الله أتقاكم) . يامعشر قريش (أو يا اهل مكة) ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء)(١)

---

(١) جمهرة خطب العرب - أحمد زكى صفوت طبعة اولى ١٩٣٣ مصر ج ١ / [illegible]

انغام بليغ تنبعث به حروف معدودة ، فتترك النفوس ذاهلة مأخوذة . ألم يستشعر الطليق من ذات نفسه بذم الخجل فيرى ندى وجهه عرق الخزى ويحس فى حلقه مرارة الأسف ، وثم من الساعات سيظل مرددا لقول محمد صلى الله عليه وسلم : اذهبوا فأنتم الطلقاء مستحييا أن تعود به الذكرى إلى باطل سلف واثم أدبر . أرأيت الايجاز يبلغ مبلغه من النفوس حتى يصبح فى كلماته مثلا شرودا مبلجا الاصداء تاركا فى النفس أعنف ضروب التأثير ؟ انه لاشك وليد عبقرية بالمنازع الهاجسة بحدودها بما يضمن لها الهدوء والتثبيت.

(٢) قوة الاقناع :-

السمة الثانية فى الخطابة النبوية ، يتمثل فى قوة الاقناع . فكانت خطابة صلى الله عليه وسلم راوئع فى اقناعها الملجم الذى لايدع مجالا لمتشكك أو متربص . واذا سألت عن مصدر هذا الاقناع ، وجدته الصدق الحار الذى تنفعل به نفسه نحو رسالته العالية ، فكثير من الخطباء من يغترون بمواهبهم الكلامية فيخطبون فى الدّعوة إلى أمور لا يعتقدون صوابها ، بل سيقوا الى ذلك سوقا ، وراء نفع مادىّ أو منصب حكومى أو تأييد حزبى ، ومهما اتقنوا التمثيل والمداراة فلن تجد لدى حديثهم

هذا بعد الاهتمام فى نفسك أنهم لا يزيدون عن محترفين يمثلون أدوارهم دون أن تشتعل فى صدورهم جذوات الصدق وهى تهيج هائج الانفعال فيوحى بالنفاق أو التأثير ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان صدقه الحار وإخلاصه القوى وإيمانه الاكيد برسالته مما يدفعه الى قوة الاقناع . إنه ليس خطيب قبيلة يتحدث عن مفاخرتها بالباطل والحقّ ولكنه نبيّ مؤمن بضرورة الاصلاح الذى اقتنع به وعليه تبعا لذلك أن يقنع الناس . هذا الصدق الحار يدفعه أن يخلو الى نفسه فيتلمس وسائل الاقناع من مشهد حاضر أو دليل ملموس أو سؤال واضح الاجابة ليمهد بذلك الطريق الى العقول والقلوب . لنا أن ننظر فى أول خطبة رويت عنه وهى التى قالها حين صدع بالدعوة تنفيذا لأمر ربّه :-

كان من المظنون والمقام مقام دعوة جديدة لنبيّ جديد ، أن يمهد نفسه - لو لم يكن محمد بن عبد الله - لموقف طويل يشغل الساعة أو الساعتين أن يتحدث عن تاريخ حياته بافاضة يمهد بها لهذا الطارئ الجديد وأن يستغيث بروائع الاخيلة ذات التهويل والعبارات ذات الجرس يقرع بها الاسماع ، ولكنه ليس محترفًا للقول يصول به مباهيا بالاطناب

والمغالبة والمغالطة . بل هو نبي يعتمد على الصدق والطمع والاقناع المفحم ، فيصعد الصفا بمكة ثم يلتفت يمينا وشمالا لينادى بصوته المدوى النافذ : يامعشر قريش ، يامعشر قريش، فيتواثب الجالسون ويتداعى النازحون يستمعون الى هذا الذى عرفوه بالصادق الامين لم يشكوا لحظة فى صدقه أو يماروا ساعة فى امانته ، يستمعون اليه وهو يسألهم فى هدوء : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ فيصيح الملأ فى صوت واحد : نعم ما جربنا عليك كذبا . فيتفرس فى وجوههم وقد أخذهم بتصديقه حين وجّه إليهم سؤاله ، فأجابوه عنه بما أرضاه ثم يقول متابعا (إنّ الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت النّاس جميعًا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا اله الاّ هو انى لرسول الله اليكم خاصّة والى الناس كافّة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا)(١).

أرأيت الى الاقناع الملزم يأخذ به محمد صلى الله عليه وسلم العقول ؟ لقد سألهم عن صدقه فاعترفوا به ثم أقسم لهم بما يثبت هذا الصدق

(١) جمهرة خطب العرب ١/ ٥١ .

ويؤكده حتى إذا أعلن رسالته إليهم خاصة وإلى الناس كافة ، لم يترك الأمر دون تدليل ، فهناك حساب وبعث وجزاء . لئن كانوا ينامون فالموت كالنوم حقيقة واقعة ولئن كانوا يستيقظون فالبعث كاليقظة حقيقة أخرى . ووراء البعث جزاء وحساب وأنها لجنة وأنها لنار .

وخطبته صلى الله عليه وسلم في أول جمعة صلاها بالمدينة(١) تعد النموذج الذي أرسى فيه قواعد الخطابة الدينية بما أضافه الى الخطابة إذ جعل افتتاحها بالحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم من حيث توشيحها بآي القرآن الكريم ، ثم من حيث ما تعالجه من الدعوة إلى تقوى الله وخشيته وطاعته وطاعة رسوله وما جاء به من أوامر ونواه وقد امتازت هذه الخطابة بالتكرار في ألفاظها ومعانيها والتكرار أيضا هو سمة من سمات الاسلوب الخطابي .

(الحمد لله أحمده وأستعينه واستغفره واستهديه وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره وأشهد ألا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٥٥ .

وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الاجل من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فقد غوى وفرّط وضلّ ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرا ، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربّه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية ولا ينوى بذلك الا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء الى ماتقدم وما كان من سوى ذلك يودّ لو أنّ بينه وبينه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ، والذى صدق قوله وأنجز وعده ، لا خلف لذلك فانّه يقول عز وجل : (وما يبدّل القول لدىّ وما أنا بظلّام للعبيد) فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية فانه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما وأن تقوى الله يوقى مقته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه وأن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدّرجة ، خذوا بحظكم

ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين . فأحسنوا ، كما أحسن الله اليكم . وعادوا أعداءه وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بيّنة ولا قوة الا بالله فأكثروا ذكر الله وأعملوا لما بعد اليوم فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله مابينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه . الله أكبر ولا قوة الا بالله العظيم) .

بعد هذه النماذج التى توضح لنا أسلوبه صلى الله عليه وسلم فى خطابته واعتماده عليه بوصفها لونا من ألوان البيان ، يتضح لنا جليا أنه صلى الله عليه وسلم وضع أسسا لخطابة الدينية وبذلك عرف العرب ضربا منها من الخطابة لم يكونوا يعرفونه فى الجاهلية اذ كانت خطابتهم اجتماعية تدور غالبا على المنافرات والمفاخرات وقد دعا الاسلام الى نبذ التفاخر والتكاثر بالاحساب والانساب ومن ثم اختفى من حياتهم هذا اللون من الخطابة .

وتقاليد الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى خطابته تحتفظ بها كتب الحديث الصحيحة (١) فقد كان صلى الله عليه وسلم يخطب فى صلاة الجمعة أو العيدين خطبتين يجلس بينهما وكانتا تدوران على تبيين ما شرع الله لعباده فى شئون دينهم ودنياهم وما ينبغى أن يسود مجتمعهم من مثالية خلقية رفيعة ومن روابط اجتماعية وثيقة .

وجملة القول أن خطابته صلى الله عليه وسلّم كانت موعظة وتشريعا وتنظيما لحياة الأمة الاسلاميّة .

ولمّا كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يبلّغ رسالة ربّه أتى بها القرآن الكريم فقد كان يوشح خطابه كما أسلفنا بالقرآن الكريم مستشهدا ومذكرا بل كان فى بعض الأحيان يخطب بسورة كاملة .

فقد روى عنه أبى كعب أنّه صلى الله عليه وسلّم قرأ يوم براءة وهو قائم يذكر بأيام الله (٢).

---

(١) انظر كتاب الجمعة فى صحيحى البخارى ومسلم .

(٢) رواه ابن ماجة .

وأبوسعيد الخدري قال :- خطبنا رسول الله صلى الله وسلم يوما فقرأ (ص).[1]

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة (ق) وهو يخطب على المنبر يوم الجمعة وأنها لم تحفظها إلا من النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر لكثرة ما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأها يوم الجمعة على المنبر[2] .

وبذلك وضع الرسول الكريم أسسا للخطابة الدينية حتى أن خلفاء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين باحسان مازالوا يسمون الخطبة التى لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد : (البتراء) ويسمون التى لم توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :- (الشوهاء)[3].

وقال عمران بن حطان : خطبت عند زياد خطبة ظننت أنى لم أقصّر فيها عن غاية ولم أدع لطاعن ، علة فمررت ببعض المجالس

---

(١) الدار قطني / [illegible]

(٢) مسند الشافعي / ٣٣

(٣) البيان والتبيين ٢ / [illegible]

فسمعت شيئا يقول هذا الفتى أخاطب العرب لوكان في خطبته شئ من القرآن (١).

ولعل خير خطبة تشريعية تصور كيف كان صلى الله عليه وسلم ينظم هذا المجتمع الروحي ويرسي قواعده ، خطبته في حجة الوداع (٢) وهي :- " الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير ، أما بعد ، أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا في موقفى هذا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها ، وإنّ ربا

---

(١) المرجع السابق نفسه

(٢) تاريخ الأمم ٢ / ٢٠٦ .

الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وأن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب ، وأن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس (إنما النسيئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا فيحلوا ما حرم الله) .

إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والارض ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

أيها الناس ان لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

أيها الناس : انما المؤمنون أخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه الا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب ، فانى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير . وليس لعربى على

عجمى فضل الا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد . قالوا : نعم قال فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس : ان الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر . من ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة اللّه والملائكة والنّاس أجمعين ، لايقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

فى هذه الخطابة التى كانت فى أكبر جمع أتيح لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يخطب فيه ، فقد كان الحاضرون فى ذلك اليوم نحو أربعين ألفاً من حجاج القبائل ، ويمكن أن نقف فيها على كل سمات الخطابة النبويّة وقواعدها ، ونلمس فيها لوناً من الفن الخطابى والأدبى الرّفيع .

ختّم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام - هذه الخطبة بعبارة فصل بها بين المقدمة والموضوع ووجه فيها الخطاب الى الناس ، طالبا منهم أن يسمعوا قوله ، خشية ألا يلقاهم بعد هذا العام ، فنبّه

الأذهان الى إخلاص أسماعهم لما يقول وإقبالهم بكل وعيهم عليه .

ثم بعد أن شدّ انتباههم ، انتقل الى التصريح المباشر ، لا لابلاغ أمر واحد وانما لمعالجة قضايا عامة متعددة ترسى حقوق الانسان على وضع وطيد ، فتحدّث عن حرمة الدماء والاموال ومن أداء الأمانات الى أصحابها ومن تحريم ربا الجاهلية ومن ديّات القتل عمدا ومن غير عمد ، ومن النسئ وضلالته ، ومن النساء ، ومالهن وما عليهن ، ومن حقوق الاخوة الانسانية التى ترجع الى أصل واحد هو آدم ومن الميراث والوصية مسائل هامة مختلفة لو تزاحمت فى صدر خطيب غير محمد صلى الله عليه وسلم - فى مثل موقفه هذا ، لطار سداده وارتج عليه فى مقامه ، ولكنه يقدّر عبء التبليغ ويستشهد بالله على أدائه

فجاءت خطبته شاملة ومتضمنة لأكثر من قضية ، حرص فيها على وسائل التنبيه التى تساعد فى الوصول الى مناط الاستجابة من نفوس السامعين مثل النداء المتكرر : أيها الناس . كما ختم بعض الفقرات بما يعلن المسئولية بالسامعين :- ألا هل بلغت ؟

وفى تناوله للقضايا ، نجد الايجاز بالقدر الذى يتيسر معه على السامعين استيعاب ما قرر فلم يجانب الاطناب الممل ولم يوجز الايجاز المخل ، بل جعل العبارات أشبه بالعبارات العلمية المحددة الدقيقة التى لا تطير بالسامع وراء الخيال ليشرد ذهنه عن متابعة الخطاب، وتحاشى التفصيلات والتفريعات التى ينسى آخرها أولها .

كما أنه قصد الى التقسيم فى عرض القضايا ، فصدر كل قضية بما ينبئ عنها ويفصلها عن سابقتها وذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (أما بعد) نجدها بين القضية الاولى والثانية وبين الثانية والثالثة فهى هنا ذات وظيفة بيانية .

وجاءت عباراته قريبة المأخذ سهلة سلسة ، وألفاظها مع فصاحتها وجزالتها ، لا حوشى فيها ولا غريب . لا استعمال بغرابة ولا تزوين اختار ألفاظه اختيارا وانتقاها انتقاء ترتاح له الاسماع والافئدة ، فتجتمع لها النفوس المتباينة الاهواء وتساق اليها بأزمتها اذ تلتحم بمعانيها وما تدعو اليه من سبيل الرشاد . فهى بلا ريب مثل أعلى فى البراعة ودقة الحس ولطف الشعور .

وبيّن أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - افتتحها بحمد الله واستغفاره والتوبة إليه والاستعاذة من شرور النفس وسيئات الأعمال، وأنه وشّحها بما تحتاجه من آيات القرآن الكريم تقريرًا لمبدأ أو توضيحا لفكرة ، أو تعليلاً لحكم وليس قصدا إلى التزيين والتحسين .

وليس في خطبته هذه وغيرها من خطبه من السجع المصنوع وفي عموم خطابته كان صلى الله عليه وسلم يرسل الأسلوب إرسالا دون التزام بلون أسلوبي معيّن يطغى عليه من خارج فكرته والذين يخاطبهم ، فهو يتردد ما بين الطول والقصر وفقا لدواعي الموقف .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله في الأفق الأعلى من روعة البيان والخطابة أخذوا عنه وتأثروا به ونسجوا على منواله واقتدوا به . فهم يفتتحونها بحمد الله وتمجيده والصلاة على رسوله يوشحونها بآيات من القرآن الكريم وبعض أحاديث نبيه العظيم مستمدين من هذين الينبوعين الغزيرين في وعظهم وفيما يسوقونه من وصايا وتعاليم (١) . فكان الصديق في الذروة من

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي - شوقي ضيف / ٥١ .

لم يخل بعض من صاحبيه أن تأولوا في خطابته . وقد أثرت عنه خطب كثيرة غير تلك التي حواها كتاب (نهج البلاغة) والتي شك فيها كثير من العلماء ووصفوها بالمنحولة وأنها مدسوسة عليه ، كرم الله وجهه ومنهم من نسبها إلى الشريف الرضي كابن خلكان في كتاب وفيات الأعيان (١) وابن العماد في شذرات الذهب (٢) وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (٣) وغيرهم . إلا أن كتب الأدب مثل البيان والتبيين للجاحظ والعقد الفريد والكامل للمبرد وعيون الأخبار للطبري تروي له طرفًا من خطبه وكلامه ومواعظه إلا أننا نجد فيها بعض الإطناب الذي دفعته إليه ظروف عصره ، إطناب يشير به هؤلاء القاعدين عن نصرته ويناوئ به هؤلاء الذين نازعوه حتى فتحوا باب الشر على المسلمين .

أما في العصر الأموي فنجد من رجاله من عاد إلى اللجاجة الجاهلية في المجادلة بالتهويل والمغالبة والتمويه والتزيد في اللجاج طمعًا في الغلبة كالحجاج (٤) ومنهم من نهج النهج المحمدي في الدعوة إلى الله بالإقناع والمنطق والتأثير كالحسن البصري .

---

(١) انظر ترجمة الشريف الرضي

(٢) شذرات الذهب ـ ابن العماد ـ [illegible]

(٣) انظر لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) [illegible]

(٤) البيان والتبيين ـ [illegible]

الفصل السادس

رسائله ومحادثاته صلى الله عليه وسلم

الرسائل :-

من فنون البيان النبوي صلى الله عليه وسلم ، فن الرسالة الذي توسل به في الابانة والابلاغ . أي أنها أسلوب من أساليب الدّعوة يهدف التعريف بالدين الجديد والكشف عن الحقيقة التي كلّف بتبيانها من ربّه . وهي رسائل بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم الى أشخاص مختلفين الجنسيات والمشارب ، يدعوهم فيها الى الاسلام ويحذرهم من مغبّة الانصراف عن الدين الجديد ويحمّلهم مسئولية أنفسهم وقومهم جميعا لما لهم من تأثير قوي فيهم .

والرسائل المكتوبة معروفة عند العرب قبل ظهور الاسلام ، بوجود دواعيها من التجارة والرحلة والزراعة وعقود التحالف . فقد نشأت الكتابة قبل الاسلام في الحجاز لمركزها التجاري وأهميتها للتجارة . كما أن الامور

السياسية كانت من دواعي ظهور الكتابة ونشأتها لكتابة المحالفات والمعاهدات.

وإذا كان الاسلام دين هداية ومعرفة وثقافة، وكتابه القرآن المعجز بلاغة وبيانا، الذي حفلت آياته بالحثّ على العلم والمعرفة، كان بديهيا أن يقوم المسلمون على اغتراف العلم الذي تأتي أول درجاته في تعلم الكتابة.

ونجد في القرآن الكريم اشارة الى أدوات الكتابة تقديسا لها مثل القرطاس والقلم واللوح والصحف، كما نجد بعض الآيات التي تنصّ على الكتابة كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب)[1] انما أمر بذلك لأن الكتابة من الذيوع واليسر بحيث تكون مجالا ميسرا للتعاقد، فدعا اليها الاسلام.

وتحكي لنا كتب السيرة والتاريخ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان رائدا في ازدهار الكتابة، فقد جعل أسرى بدر يعلّمون أبناء الأنصار

---

(١) سورة البقرة / ٢٨٢.

كيف يكتبون ويكون هذا التعليم فداء لأنفسهم من الأســـــر .

ولمّا احتاج الرسول صلى الله عليه وسلم الى تسجيل الوحى ومن يكتب له فى الشئون العامة ومن يكتب له الى الملوك ومن يكتب المعاهدات ، اتخذ كتّاباً من صحابته فاختص علىّ وعثمان بكتابة الوحى ، فإن غابـــا كتبـــه أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت . كما استكتب خالد بن سعيد بـــن العاص ومعاوية ابن أبى سفيان فى حوائجه الخاصّـة ، ومنهم من كان يكتـــب للملوك كعبد الله ابن الارقم وزيد بن ثابت . وأما الذى كان يكتب أمـــوال الصدقات فقد كان الزبير بن العوام وجهيم بن الصّلـت (١) .

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى رسائله - كما هو فى سائر وسائل بيانه - لم يكن سوى رسول مبلغ يبتغى فى فنون بيانه ما يحقق به غايته ويؤدى به واجبه ، وليس أديبا يقصد التفوق على غيره ، ممن ينافسهم أو ينافسونه فى مجال القول والتعبير . لقد سيطر عليه تحقيق الابانة يتوسل اليها بكل وسيلة تمكنه من ذلك ، فهو دائما على ذكـــر من مسئوليته تجاه من يخاطبهم ويتلقون عنه ، فكل ما يصدر عنه من كلمـــة

---

(١) مكاتيب الرسول / ٢٦ .

أو اشارة أو مسلك انمّا يرمى وراءه الى الابانة عن دعوته والافصاح ممّا قد يغمض عليهم وتقريرما أقروا به وتعرفوا عليه ، وتفنيد حجج المعاندين .

ومن ثم توسل بالكتابة فيما توسل به لتبليغ ما أرسل به من ربّه الى من يتيسر لقاؤه المباشر فبعث اليهم فى مقارهم المبعوث برسائله يدعوهم فيها الى الاسلام وينبئهم أنّه رسول من اللّه الى الناس كافة وانه لا تعارض بينه وبين ما جاء به سابقوه من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم فجاءت رسائله بمثابة مواد قانونية أرسلت للفصل فى أمر يجب الاتفاق عليه ، فليس مجالها مجال أدب تسيطر عليه العاطفة ويوشيه الخيال ، ولكنها شروط محددة تلتزم الدقة البالغة فى التعبير ولا تسمح للفظ أن يتجاوز موضعه الحقيقى الى صورة خيالية تكون فيما بعد مثارا للخلاف والجدل . وكم من رجال للقانون أو السياسة اجتمعوا الايام ذوات العدد لكتابة نص واحد فى معاهدة أو مادة فى قانون وهم فيما يكتبون حينئذ يحترزون من كل لفظ يشم منه غير المقصود ويتوهمون كل دلالة قريبة أو بعيدة لا يقصدونها وما يمكن أن يستنبط من بعض الالفاظ فيسارعون الى استبدال غيرها بما ليأتى الكلام دقيقا لا تساهل

معه ، صريحا لا شئ وراءه . فتبرق نصوصهم ومعاهداتهم في أسلوب دقيق ، تحمل الحقائق في العبارات والالفاظ التي لا تضيق بها ولا تتسع عليها . وهكذا كان الرّائد الأول في مجال الأدب السياسي والقانوني الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في معاهداته ورسائله الى الملوك وشيوخ القبائل . فهي ان اختلفت عن الخطب والاحاديث في اسلوبها الفنّي الآ أنها تتفق معها في كثير من السمات العامة .

ولتحقيق الغاية من الرسالة ، حرص صلى الله عليه وسلم أن تتلاءم الرسالة مع المرسل إليه ايجاز واطنابا ، سهولة وصعوبة ، ودقة وتعليلا وحتى نقف على هذا اللون من ألوان البيان النبوي ، نسوق له الأمثلة ونوليها بعضا من المناقشة والمقارنة . فقد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم كتبه الى الملوك من العرب والعجم ورؤساء القبائل والاساقفة والمرازبة والعمال وغيرهم يدعوهم الى الله تعالى والى الاسلام .

وتتفق المصادر في الاخبار عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار ستة من أصحابه وأوكل الى كل مهمة تسليم رسالة الى أحد الحكام

وأسماء هؤلاء الصحابة المعينين :- (١)

(١) دحية بن خليفة الكلبي أرسل الى قيصر عن طريق حاكم بصرى

(٢) عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى

(٣) عمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة

(٤) حاطب بن أبي بلتعة اللخمي الى المقوقس حاكم الاسكندرية

(٥) شجاع بن وهب الاسدي الى الحارث بن شمر الغساني

(٦) سليط بن عمرو العامري الى هوذة بن علي الحنفي شيخ اليمامة

كتابه الى كسرى ملك الفرس :- (٢)

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فان أبيت فان اثم المجوس عليك)

---

(١) بلوماسية محمد - عون الشريف قاسم - قسم التأليف والنشر جامعة الخرطوم ص ٧ ٥

(٢) جمهرة رسائل العرب ١ / ٥ ٣ .

رسالة موجزة دقيقة محددة لامجال فيها للتفسير والتأويل ، عباراتها قاطعة حاسمة وكلماتها واضحة المضمون ، هجم فيها صلى الله عليه وسلم على غرضه مباشرة بعد مقدمة قصد منها التمهيد الذى يهيئ النفس لذلك الهجوم لتحقيق ما قصد اليه بذلك الهجوم ومع اعادة النظر فى تلك المقدمة يتبين أنها فى ذاتها توحى لذلك الهجوم ، هجوم هادئ بعض الشيء ، يفتح لمتلقى الرسالة باب المتابعة اشباعا لغريزة حب الاستطلاع ، فمتلقى الرسالة الذى لا يعرف شيئا عن الله الرحمن الرحيم يفجؤه هذا المطلع ، فلابد أن يحرص على استيعاب الرسالة كلها حتى يعرف ما يحصل ولكنه ينتقل من ذلك الى شيء أشد (من محمد رسول الله) فيزداد شوقا الى كشف غموض الرسالة . والرسول صلى الله عليه وسلم حرص على أن يملك زمام المرسل اليه فوصفه بما يرضى نفسه ، دون أن يكون متعارضا فى ذلك مع قيم الاسلام ، وهو فى ذلك لا يتملقه ولكنه يضعه فى مكانه الذى وضعه فيه قومه ليشعره بمسئوليته عنهم ، قبل أن يتخذ فى شأن هذه الرسالة قرارا؟ وذلك قوله (الى كسرى عظيم الفرس) فوصفه بعظيم فارس ليست من إضافات النبى صلى الله عليه وسلم ولكنها الحقيقة القائمة التى تكشف عن مكانته

منهم وترضى نفسه فتدينها لمتابعة ما جاء فى الرسالة بعد ذلك لاحساسها بأن مرسل الرسالة لا ينافسه على مركز سياسى ولا يفكر فى ازاحته عن زعامة قومه وسيادتهم فذكر الصفة هنا تورية تومئ الى غير ما يظهر منها

وفى الرسالة إيماءات الى أن الشذوذ عن طريق الدعوة واعتراض سبيل الدين الجديد ، والتمسك بالشرك والكفر وعدم الاعتراف بالنبى الجديد كل هذه أمور كفيلة بأن تسلب السلام والامان وتثبت الخوف والفزع فى داخل الفرد والجماعة وكلمة (سلام) فيها إيماء الى أنه سلام متنوع ، فهو سلام ذاتى ، وسلام اجتماعى ، وهو سلام نفسى ، وعقلى وسلام عاطفى وسلام اقتصادى وعسكرى

بعد ذلك حتى اذا ضمن أن نفس المتلقى قد تعلقت بالرسالة واصبحت حريصة على استيعابها وجاء ذكر مقابل هذا السلام ، اتباع الهدى والايمان بالله ورسوله والشهادة بوحدانية الله وتجرده من الشريك والاقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم والشهادة بأنه عبد الله ورسوله .

ونلاحظ أنه يجمل مضمون الرسالة بعد ذلك في جملة واحدة :-

(أدعوك بدعاية الله عز وجل) حرصا منه على أن يطلعه على جوهر هذا الدين في أقصر عبارة ممكنة دون أن يستغني بذلك عن طلب مزيد من التفصيل حتى يظل معلق النفس والعقل بالرسالة طالبا لما يوضح .

مع ذلك يومئ إليه بأنه لا يهدف من وراء ذلك الى كسب شخصي ولا الى توسع اقليمي ولا الى تنافس سياسي فهو يدعو بدعاية الله عز وجل .

ثم يأتي بعد ذلك تعريفه بنفسه ، تعريفا وظيفيا لا تعريفا ذاتيا :- (اني رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) .

فأخبره عن نفسه بأنه ليس رسولا الى أمة دون أمة كما كان معهودا وأن ارساله الى الناس كلهم لينذر من فيه حياة واستعداد لتفهم الانذار وتبوؤ التفكير والتمحيص، وليقطع الحجة عن منكري وجود الله ويحق القول عليهم .

عمومية الاسلام وعالمية رسالته ، أمر تناوله المحدثون فمنهم من أيد فكرة عمومية العقيدة الاسلامية وأنها للناس كافة وتمسك بعضهم بوجهة نظر مغايرة ومخالفة وشرع في اقامة الحجة على أن الفكرة التي تقول أن هدف الاسلام هو العالم رأى تدبرى فعالم محمد هو شبه جزيرة العرب ، ومن أجلها أنزل الاسلام . ومنهم من اعتبر أن كل الحديث الخاص بهذه البحوث للملوك يرجع أصله الى تأثير المسيحيين الذين دخلوا في الاسلام في مرحلة متأخرة والذين كانوا يعرفون عن رسالة عيسى للناس كافة ، ويرى أن هذا المفهوم قد بدأ تطوره أولا بنسج القصة حول شخصية هرقل (١) .

(والامر واضح أن هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تسند مفهوم هذه الرسالة العالمية من وجهة نظرية (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)(٢) (وما هو الا ذكر للعالمين)(٣) (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون)(٤) وغيرها من الآيات)(٥) .

---

(١) انظر دبلوماسية محمد ص ٨٩
(٢) سورة الانبياء / ١٠٧
(٣) سورة القلم / ٥٢
(٤) سورة سبأ / ٢٨
(٥) دبلوماسية محمد / ٩٠

وفى رسالته صلى الله عليه وسلم الى كسرى ، لما أراد أن ينبه المخاطب الى تأمل ماهو عليه من معتقدات وارشاده الى ما فى هذا من ضلال وزيغ وشذوذ عن الطريق المستقيم أوحى اليه بايحاءات فى مطلع الرسالة ، فالسلام على من اتبع الهدى ، فالهدى المقصود هو الايمان . فالسلام لا ينال الا من هدى واهتدى . كما أن هذا الايمان بالله مجرد عن الشريك ومنزه عنه كما أن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لابد أن يكون شاملا باعتباره عبد الله ورسوله .

وبما أن المرسل اليه ليس بعربى تحاشى الرسول أن يخاطبه بوسائل البيان العربى لعدم ادراك المرسل اليه بأسرار التعبير العربى وتراكيبه .

وعندما أراد أن يختم رسالته بتحديد المطلوب من المرسل اليه تحديدا دقيقا ، مهد لذلك الختام بقوله :- (أسلم) وبنى على هذا الطلب أمرين لا ثالث لهما ، فهو اما مستجيب لما طلب منه واما متهرب منه رافض له . ان استجاب وأسلم ، ضمن لنفسه ولقومه السلام والامان وان تولى ورفض فهو المسئول عما يصيبه ويصيب قومه .

وتحرر رسالته صلى الله عليه وسلم ، برواية أخرى بشهادة سعيد بن المسيب وهي :- (١)

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد (تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون)

وواضح أن هذه الرواية تشمل الآية الرابعة والستين من سورة آل عمران التي اختلف الرواة في توقيت نزولها ، اذ يذهب البعض الى انها أنزلت في العام التاسع من الهجرة ، وتتواتر الروايات على كتابة هذه الرسالة في السادس أو أول السابع ومن هنا ينشأ الشك في صحة مادة هذه الرسالة .

وفي ذلك يقول البروفسير / عون الشريف (ويؤكد ابن هشام أن القسم الاول من سورة آل عمران حتى الآية ٨٠ ، قد أنزل في أمر وفد نجران الذي زار الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة . وعلى

---

(١) دبلوماسية محمد / ٢٥٨

الرغم من أن ابن هشام لا يحدد تاريخًا لهذه المناسبة ، وينسخ خبره عنها قبل بدر في السيرة ، الا أن رواية ابن سعد ، التي تورد نفس التفاصيل تقريبًا التي جاءت في نفس السيرة ، لا تدع مجالا للشك في أن تاريخ الحادثة كان العام التاسع من الهجرة ، حين عقد نصارى نجران صلحا مع النبي وقبلوا أن يدفعوا الجزية . وعندما تعرض الطبرى لتفسير الآية المذكورة ، ذكر وصول وفد نجران كمناسبة محتملة لنزولها ، فوجود هذه الآية في وثيقة تواترت الروايات على كتابتها في العام السادس أو أول السابع ، جابهت العلماء والباحثين بمشكلة حيرتهم ، وقد حثت في خيالهم كافة المسالك للبحث عن مخرج من هذا الاشكال الظاهر الذي يرقى الى درجة التناقض . فالقسطلاني - ليزيل أى شبهة أو شك محتمل . أكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كتب الآية في السنة السادسة من الهجرة قبل نزولها المرتقب في العام التاسع . ثم ذكر كحل ثان - أنه يجوز أن تكون الآية المذكورة قد أنزلت مرتين ، وأن كان هذا في رأيه احتمالا بعيدا . وهكذا ورغم جهود العلماء لاقامة حجج صحيحة لقبول مادة هذه الوثيقة ، فان الشك ما يزال عالقا بالنفوس)(١) .

---

(١) دبلوماسية محمد / ٦١ - ٦٢

ولما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم الكتابة للنجاشي الكتابي الذي يؤمن بالمسيح ومريم العذراء ، وهو صاحب ثقافة دينية عن آدم وبدء الخليقة مما يقره الاسلام كتب اليه قائلا :-

(من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة ، انى أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله ، وانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى . وقد بعثت اليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى)[1].

فدعوته لملك الحبشة كانت الى الالتقاء حول المبدأ المشترك وهو التجرد من كل اضافات عقيديه وتخصيص الله وحده بالعبادة دون شريك فرسالته الى كسرى خصّها بمزيد من التحليل فى التعريف بالاله ووحدانيته

---

(١) صبح الأعشى ٦ / ٢٧٣ .

ورسوله الا أن وعيه الصادق بما يريد أن يصل اليه ، ودقته البيانية جعلته يسلك مسلكا آخر فى مخاطبته لأهل الكتاب، فخاطبهم غير خطاب أهل الوثنية . فأهل الكتاب ليس غريبا عليهم الايمان برسول والاعتقاد فى اله واحد . ومن ثمّ فدعوة أهل الكتاب الى الايمان بالله ورسوله لا تحتاج الى براهين وحجج الا أننا نلاحظ الدقة فى التعبير والتحديد، والصراحة فى المطلوب، هى نفس النسق البيانى الموجز الذى اتفقت حوله كتاباته ورسائله .

مثال آخر كتابه صلى الله عليه وسلم الى وائل بن حجر وأهل حضرموت :-

(من محمد رسول الله الى الاقيال العباهلة من أهل حضرموت باقامة الصلاة وايتاء الزّكاة . على التيعة الشاة ، والتيمة لصاحبها وفى السيوب الخمس لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ، ومن أجبى فقد أربى ، وكل مسكر حرام)[1] .

---

(1) صبح الأعشى ٦ / ٣٧٦ .

خطاب موجز مختصر جامع شامل ، انتقى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الالفاظ ما يلائم المتلقي العربي القرشي فجاءت ألفاظه وتراكيبه عربية غير التي خاطب بها غير العربي ، وذلك دليل على احاطته بفروق تلك اللغات واستيعابه لها ، يكلم كل فئة بما تفهم . وقد سبق لنا أن تحدثنا عن ذلك في معرض حديثنا عن غريب الحديث وشرحنا ألفاظ هذا الكتاب وكذلك أوردنا رواية أخرى يمكن الرجوع اليها (١) .

ورسائل الرسول صلى الله عليه وسلم وان اختلفت أساليبها الّا انها تشترك في سمات عامة هي الايجاز والهجوم على الغرض من أول وهلة وتوضيح المطلوب بكل دقة وتحديد وصراحة .

المعاهدات :-

هـ) نمط بياني مشهور عند العرب في الجاهلية . فقد كانوا يكتبون معاهداتهم واتفاقياتهم . وللحفاظ على المهم منها ، كانوا يودعونه جوف الكعبة . فلما واجهت قريش بني هاشم قاصدين

---

(١) انظر هذا البحث ص ٩٧

الضغط عليهم لتسليم محمد اليهم . اتفقوا على مقاطعتهم ، ودوّنوا
هذا الاتفاق فى صحيفة وأودعوها الكعبة توثيقا لها وحفاظا عليها .

ولما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ هذه المعاهدات سبيلا
لتحقيق أغراضه وأدخل عليها كثيرًا من التحفظات والاشتراطات والتوضيحات
ما نظمها فى سلك العمل الفنى حتى أصبح النّاظر فيها ، يجد نفسه
أمام لون بيانى يكشف فيه صلى الله عليه وسلم عن كثير من الجوانب
السياسية والاجتماعية القائمة والمتوقعة فاتسمت بالدقة القانونية
لتكون نصوصها مكتوبة يبين فيها ما بين الطرفين من اتفاقيات وشروط
دقيقة ومثال ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار
واليهود بالمدينة . وهو الكتاب الذى وادع فيه اليهود وعاهدهم
وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم واشترط لهم وهو :-

بسم الله الرحمن الرحيم .

١) هذا كتاب من محمد النّبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب
ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢) انهم امة واحدة من دون النّاس .

٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف[1] والقسط بين المؤمنين .

٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفه تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥) وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفه تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٦) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون ومعاقلهم الاولى ، وكل طائفه تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧) وبنوجشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفه تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠) وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) المعروف فى الأصل تعنى العرف الذى تعارف الناس عليه

(١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٢) وان المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

(١٣) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

(١٤) وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة(١) ظلم أو اثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

(١٥) ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن .

(١٦) وان ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

(١٧) وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

(١٨) وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

---

(١) العطية الجزيلة

١٩) وان كل غازية غزت منا يعقب بعضها بعضا .

٢٠) وان المؤمنين يبئ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

٢١) وأن المؤمنين على أحسن هدى وأقومه .

---

٢٢) وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

٢٣) وانه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به الا أن يرضى ولى المقتول (بالعقل) وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

٢٤) وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وان من نصره أو آواه ، فأن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

٢٥) وانكم مهما اختلفتم فيه من شئ ، فان مرده الى الله والى محمد .

---

٢٦) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

٢٧) وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته .

(٢٨) وان ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف .

(٢٩) وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

(٣٠) وان ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف .

(٣١) وان ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف .

(٣٢) وان ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

(٣٣) وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته .

(٣٤) وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

(٣٥) وان لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وان البر دون الاثم .

---

(٣٦) وان موالي ثعلبة كأنفسهم .

(٣٧) وان بطانة يهود كأنفسهم .

(٣٨) وانه لايخرج منهم أحد الا باذن محمد .

(٣٩) وانه لا ينحجز على ثأر جرح ، وانه من فتك فبنفسه وأهل بيته الا من ظلم ، وان الله على أبر هذا .

(٤٠) وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر

على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النّصح والنصيحة والبّر دون الاثم .

---

٤١) وانّه لا يأثم أمرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم .

٤٢) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٤٣) وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٤) وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤٥) وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

٤٦) وانه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مردّة الى الله والى محمد رسول الله ، وان اللّه على أتقى مافي هذه الصحيفة وأبره .

٤٧) وانه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٨) وان بينهم النصر على من دهم يثرب

٤٩) واذا دعوا (أى اليهود) إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الّا من حارب في الدين .

٤) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

٥) وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة وان البّر دون الاثم لا يكسب كاسب الّا على نفسه وان اللّه على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبّره .

٦) وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ، أو آثم ، وانه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، الّا من ظلم وأثم ، وان الله جار لمن بّر واتقى ، ومحمد رسول الله[1] .

نجده هذه السلسة من الوثائق فى كتب السيرة والتاريخ كمقد متكامل بين المهاجرين والأنصار من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى .

ويرى البروفسير/عون الشريف[2] أن القراءة المتأنيه للنص واخضاع فقراته المختلفة للتمحيص الدقيق تبيّن أنه لا يشتمل على معاهدة واحده بل بعكس ذلك ، تبرز فى ثناياه سلسلة من المعاهدات المنفصلة .

---

(١) جمهرة رسائل العرب / ٢٥ - دبلوماسية محمد / ٢٤١- ٢٤٤ .

(٢) دبلوماسية محمد / ١١ .

ويسوق البروفسير/ عون أدلة من النصّ ومن خارج النصّ :-

فأدلة النص منها " تكرار فقرات بأكملها لنص على التزامات وشروط واحده كما هو الحال فى الفقرة ٢٠ والفقرة ٤٦ اللتين تنصّان على ردّ أى خلاف ينجم بين المتعاهدين الى الله ورسوله وكما هو الحال فى الفقرة ٣٦ والفقرة ٤٢ ، اللتين تنصان على أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . ومثل ذلك يقال على بعض المادة ٤٠ والمادة ٤٨ اللتين تنصان على مناصرة الاطراف لبعضهم بعضا على من دهم يثرب) [١]

ويقول البروفسير/ عون "ومن الصعوبة بمكان أن تقبل بالتسليم الذى يذهب الى أن تكرار مثل هذه الالتزامات والشروط المحددة قد قصد منه واضع النصّ تأكيد أهمية هذه الاحكام . فقد كانت العقود والمعاهدات تتسم بالايجاز والتحديد ، والتعليل الأرجح لهذه الظاهرة التى يبرزها لنا هذا النص ، هو أنه كانت هناك مجموعة من المعاهدات ، عقدت فى فترات مختلفة بين الأطراف المذكورة تشمل أحيانا فقرات متشابهة ، ثم ضمّت الى بعضها فى فترة متأخرة وجمعت كوثيقة واحده تقوم الفقرات المكررة فيها شاهدا على تعدد النصوص الأصلى)[٢] .

---

(١) دبلوماسية محمد / ١٦

(٢) دبلوماسية محمد / ١٧ .

وهناك دليل آخر على طبيعة التعدد في هذا النص ، يتمثل في تكرار من نوع آخر فعبارات مثل :- (الله أبر هذا) و (البر دون الاثم) و (على أحسن هدى وأقومه) تجئ عادة في نهاية المعاهدات لتؤكد التزام الاطراف المتعاقدة بنصوص الاتفاق ، وذكر الله والوفاء وما الى ذلك من عبارات تستقيم مع هذه الروح . وورود هذه العبارات في مواضع متعددة من هذه الوثيقة ، مختلفة من الوثيقة ، له مدلول أكبر من مجرد التأكد فظهورها في سبعة أجزاء مختلفة من الوثيقة يدل على أن هناك اكثر من نص واحد في وثيقة الأمة . ولكنه من العسير أن يحدد الباحث بدقة ،أين ينتهي النص الواحد ، واين يبدأ الآخر لأننا اذا قبلنا فكرة اشتمال وثيقة الأمة على سلسلة من المعاهدات المنفصلة ، فان احتمال الاحتفاظ بكل فقرة في مكانها الأصلي من النص المدني يكون ضئيلا جدا .

ودليل آخر من خارج النص هو ادخال العنصر التاريخي : فالاتفاق مع المهاجرين والانصار تم في المرحلة الاولى ، ثم جاء الاتفاق مع اليهود في مرحلة متأخرة ولم تكن الاتفاقيات في كلتا المرحلتين قد حدثت في لحظة واحده لكنه كانت هناك أطوار مختلفة في المرحلتين من المحتمل

أن تكون بحصر فقرات الوثيقة وموادها أضيفت فيها حسب مقتضيات الظروف والأحوال . فلم تكن هناك في البداية أسس محددة يسترشد بها ، وكلما جدّت أحداث وفرضت المشاكل وجودها استلزم ذلك تحديد الالتزامات وفرض الشروط لمواجهتها ، فتكتب المواد وتضاف الفقرات التي تحمل على ذلك بأمريتمة تطورية .(١)

ومن يقرأ هذا النصّ يجد نفسه أمام وثيقة سياسيّة شاملة تحدّد المبادئ الأساسية التي تكفل للمسلمين المهاجرين أن يعيشوا بين أهل البلاد الأصليين على أختلاف المذاهب وتباين المشارب . وثيقة تحدد أسس المعايشة الحاضرة وتضع ألف حساب لما قد يطرأ من مشكلات وقضايا في المستقبل . وثيقة شافية تعمم وتوضح دون أن تحتاج الى مذكرة تفسرها أو شرح يوضحها فالمبادئ التي قررها الرسول في هذه الوثيقة هي :-

١) وحدة الأمة المسلمة ، وعلاقة المهاجرين والأنصار ، وواجب كل فرد نحو نفسه وغيره ونحو الدّولة .

---

(١) دبلوماسية محمد / ١٨

٢) الحريّة التامة وتشمل حريّة الملكية وحريّة العقيدة وحريّة الرّأي والتّفكير .

٣) حرمة الدّم والحياة والتزام المتعاهدين بالمحافظة على ذلك لقيام الوحدة السياسية بين اليهود والمسلمين . وحرمة مدينة يثرب ، ووقوفهم جميعا في وجه من يعتدي على أي جزء منها . فهي وثيقة تحمل المقررات السياسية التي تستدعيها نظم الحكم واستقرار الحياة الجديدة . وفي ذات الوقت تبرز مزايا الدّين الجديد بما يشدّ الناس اليه ويجتذبهم نحوه . فنجده يجعل الايمان والاسلام ركيزة الطرفين الأصليين في الاتفاق وألحق بهما غيرهم ممن يلتزم بمتابعتهم واللحاق بهم والمجاهدة معهم ، وبهذا قيّد المسلمين والمؤمنين برابطة الدّين وقيّد الطرف الثالث بقيود توثق ارتباطه بهذين الطرفين ، دون أن يترك له فرصة للتفلت ، أو الخروج ، ورابط آخر يربط الأطراف الثلاثة ببعضها ، ألا هو اذعانهم لزعامة محمد صلى الله عليه وسلم ، واقرار ضمني من غير المسلمين بنبوّته وهو قوله (هذا كتاب محمد النّبي) .

وبعد الترابط المنطقى بين المتعاقدين جعلهم (أمة واحدة من دون الناس) ، ثم فصّل مظاهر هذه الوحدة وبين التزام كل جماعة وتحملها الأعباء ذلك الالتزام وبذلك يقرر مبدأ التكافل الاجتماعى فى أرقى صوره ، ومبادئ هذا التكافل يوردها فى عبارات موجزة ، ثم يطنب فى تصوير مظاهره .

ومن مبادئ هذا التكافل ، التعاون من مساهمة فى دفع ديّة وفداء للأسير ، كلّ حسب استطاعته بالمعروف والقسط (بين المؤمنين) وكذلك معاونة من أثقل بالديون والعيال . وعبارته (بين المؤمنين) تضفى على هذه الفقرة كثيرا من الظلال ، اذ أن من يقوم بذلك فى مجتمعه ، ليس أى فرد ، وانما هو المؤمن ، لأن ايمانه يدله على قيمة المال ووظيفته .

وفى الفقرة التى تتحدث عن تقرير حرمة المال ، والملك الخاص والعام نجد المؤمنين موصوفين بالتقوى (وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ... ..) وفى ذلك الوصف ايحاء بأن الايمان وحده قد لا يكفى فى توجيه الانسان الى أن يقف فى وجه المعتدى المتجاوز حدّه ، مهما

كانت صلته به ، اذ الانسان فى ذلك قد يجد من دوافع الفطرة ما يجعله يغمض العين عن تجاوزات الظالم . فالمؤمن الواثق ، لا يجامل فى الحق ولو كان الظالم والده .

والحرية كذلك ليست مطلقة فحرية العقيدة مقيدة بالايمان ، (وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأن من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة) نبذ للعنصرية والعصبية يقرر مبدأ المساواة رغم اختلاف الدين ، فلليهودى النصر والمساواة ، لكن حتى هذا المبدأ لم يترك مطلقا . فقوله (وأن من تبعنا من اليهود) يحدد ذلك الاطلاق فلفظ (من تبعنا) أى من سار مسارنا ولم يخرج عنا ، فان هو خرج ، فلا نصر ولا مساواة .

ثم تقرر الوثيقة وحدة القيادة السياسية . القيادة التى تخضع للمبادئ لا للاشخاص ، فالسياسة ثابتة لا تتغير ولا تختلف باختلاف القائم عليها .

ومن أبرز مظاهر توحد عناصر الامة ، المشاركة بالمال عند الحاجة اليه على وجه الالتزام ، لا فرق فى ذلك بين مسلم ويهودى (وأن اليهود

ينافقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

والمتأمل في عبارات هذه الوثيقة ، يلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل كتابه سياسيًا علميًا يقوم على العبارات والكلمات الجافة الجامدة ولم يجعله كتابا فنيا يقوم على العبارات الفضفاضة التي تعني أكثر من مدلول ، بل جعله مزيجا من هذا وذاك .

فأخرجه لوحة فنيّة تقدم صورة الوحدة الجديدة الملامة الجديدة محددة المعالم ، بارزة الأبعاد من خلال ايحاءات وظلال من نوع آخر ، تمنح العبارة سحر الفنّ وتمنع المتلقي من اضطراب الفكر . فكل فقرة تجمع بين الكلمات والعبارات المحددة بمدلولاتها المادية والكلمات والعبارات ذات الظلال والايحاءات بحيث لا يضيق المتأمل بالجمود المادي للعبارة ، ولا يجهد بالكلال من ملاحقة المحتوى المتعدد لها .

أضف الى هذا انه صلى الله عليه وسلم حرص على أن يربط المتعاهدين بالقوة الاسمى (الله عز وجل) لينشئ الوازع القويّ ، والرّقيب الذي لا يغيب ولا يغفل ، والمركز الذي يلمّ الشتات ويضمّ الممزق

ويجمع المفرق ، فلم تغفل جملة من ذكر الله تعالى أو ما يتصل بالله من ايمان وتقوى .

بل أنه صلى الله عليه وسلم أعلن ذلك فأتم المعاهدة من مبتدئها الى منتهاها على رقابة الله ومراقبته ، فقرر مرة أن الله ابر هذا ومرة ثانية (أن الله على أتقى مافي هذه الصحيفة وأبره) وفي خاتمة الكتاب ذكر أن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

وبذلك جعل المعاهدة مزيجا من حاجات المادة وحاجات الروح ضمانا لتلاقي الأطراف جميعا عند حدودها ، مهما كانت التضحيات والمغارم .

الخاتمـــــــــة

حاولنا فى هذا البحث تناول الاسلوب النبوى ودراسته دراســـــة تحليلية أدبية فنية ، رغبة فى الوقوف على أوضح دعائمه وأهم وأبــــــرز خصائصه .

والقدماء من الادباء أهتموا ببحث هذا الجانب من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، الا أنهم لم يفردوا له فصولا خاصة بل نجدة متناثرا بـــين كتبهم ومؤلفاتهم ولنأخذ الجاحظ والشريف الرضى كمثال للمتقدمين الذين تحدثوا عن روعة الأسلوب النبوى مما يكشف كثيرا من خصائصه .

فالجاحظ فى كتابه البيان والتبيين يتعرض للاسلوب النبوى فى أماكن متفرقة ويتحدث عن سماته ويستشهد من بيان النبوة بالحديث والخطبـــــة ويكرر الاستشهـــــاد فى مواضع متعددة فتحدث عن خصيصة الايجاز فى كـــلام المصطفى صلى الله عليه وسلم قائلا :-

(هو الكلام الذى قلّ حروفه وكثر عدد معانيه يفق الخطب الطوال بالكلام القصير ووصف لفظه الشريف بأنه سهل قريب المأخذ بعيد عن التكلف والصنعة فقـــال (جل عن الصنعة ونزه عن التكلف وطب التشديق وجانب أصحاب التقعير وهجر الغريب والوحشى ورغب عن الهجين السوقى" (١)

كما أن الجاحظ لم يقتصر على عرض الانماط البليغة من ادب رســـــول

١- البيان والتبيين / ٣/ ١٦

الله صلى الله عليه وسلم بل تعرض الى أكثر ما يدور ببيانه من أقوال وتتبعها بالنقد معارضا أو مؤيدا[1]

اما الشريف الرضى فقد خص المجازات النبوية بكتابة خاص فسد مسدا لم يسده احد قبله أو قبله أو بعده ، الا أن المجازات ليست الا بابا واحدا من أبواب البيان النبوى ، فقد تتبع الشريف ألوان المجازات فى كلامه صلى الله عليه وسلم فجمع ثلثمائة وستين حديثا نبويا ليشرح ما فيها من ألوان المجاز . وقد سبق أن نحا هذا المنحى فى مؤلف عقده عن مجاز القرآن ، سماه تلخيص البيان عن مجازات القرآن مما ينبئ عن ولعه بتتبع هذا الضرب من الاسلوب .

ومع ميله للايجاز فى شرحه فقد دل الشريف الرضى على أسرار ذكية فى دنيا البيان النبوى وهو يعلل ذلك الايجاز بقوله فى مقدمة كتابه المجازات النبوية (وعملت بتوفيق الله على تتبع ما فى كلامه صلى الله عليه وسلم وعلى آله من ذلك المجاز والاشارة منه الى مواضع النكت ومواضع الغرض بالاختيارات الوجيزة والايماءات الخفيفة على طريقتى فى الكتاب " مجازات

١ـ انظر البيان والتبين ٣٣٨/٢

القرآن " لئلا يطاول الكتاب فيخفى على الناظر ويشق على الناقل ، فان الطالب فى هذا الزمان ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة لانه لم يبق من الفضل الا الذماء ، ومن الفضلاء إلا الاسماء (1)

وطلبا للايجاز والاقتصار نجده يبتر الأحاديث مقتصرًا على موضع الشاهد البلاغى ، وقد تنبه الاستاذ محمود مصطفى ناشر الكتاب الى ذلك حين ألزم نفسه أن يذكر فى هوامش الكتاب بعض ما يقع عليه من النصوص التامة كما جاءت فى الصحاح مقدرا قيمتها فى جلاء المرمى البلاغى وهو ما فات الشريف الرضى ولم يعن به .

أما المحدثون فقد اهتم بعضهم بدراسة الاسلوب النبوى وبيان خصائصه وجعلوه موضع دراسة لنيل درجات علمية .

فالدكتور محمد رجب بيومى تقدم الى كلية اللغة العربية بجامعة الازهر ، برسالة لنيل درجة الدكتوراه بعنوان (البيان النبوى) ، بذل فيها جهدا طيبًا ، حيث بدأ رسالته بفصل يبدد ما حيك حول السنة

---

١ = المجازات النبوية / ٦

النبوية من شبهات دفع اليها الجهل عند قوم والغرض عند آخرين . كما تحدث عن الطابع الادبى للبيان النبوى ليجعل من تحقيق هذا الطابع دليلاً على صحة النص المحمدى . وأفرد فصلا للحديث عن العامل الرئيسى فى تكوين محمد صلى الله عليه وسلم جازما بأن ما يذكر كثيرا بصدد ذلك من نشأته فى قريش ورضاعة فى بنى سعد ، انما كان اقل العوامل فى بيانه النبوى ، انما العامل الاول هو فطرته النقية التى طبعه الله عليها منذ اختاره للدعوة والله اعلم حيث يجعل رسالته . (١)

كما تحدث عن محمد الخطيب ، ومحمد الداعية ، فحدد المقصود من الداعى فارقًا بينه وبين الخطيب . وقد أفاض فى تشريح ما اعتمد عليه الداعية الأعظم فى الاسلوب الارشادى من التكرار المقصود ومن لباقة العرض للموضوع الواحد فى صور مختلفة من استثارة الوجدان الانسانى بتقديم ما يمتعه ويقنعه ويرضيه .

أما محمد رائد الابتهال فقد تحدث عنه المؤلف فى فصل خاص استعرض فيه نماذج مختلفة للأدعية النبوية مفصلا أهدافها وشارحا خصائصها ،

١ـ البيان النبوى / ٢٧

مشيرا الى ضرورة الاعتناء بها لدى مؤرخى الادب العربى باعتبارها فنـــا جديدا قد احتذاه أساطين البلغاء من أمثال على زين العابـــدين وجعفر الصادق والحسن البصرى إلى أساطين الصوفيــة وائمة الوعظ .

أما الدكتور بكرى شيخ أمين فقد ألف كتابا ســماه "أدب الحديث النبوى" الا أن كتابه غلب عليه علم مصطلح الحديث أكثر من دراسة الاســلوب الادبى النبوى . اذ أن الكاتب بدأ حديثه عن المصطلحات الرئيســية فى علم مصطلح الحديث ثم تحدث عن تدوين الحديث واشهر كتبه ، ووضــع الحديث وأسبابه . وفى فصل خاص تناول علوم الحديث . كعلم تاريخ الرواة و الجرح والتعديل وعلل الحديث . كما أفرد المؤلف فصلا كاملا للحديث عن سماع الحديث وتحمله وآخر تناول فيه أقسام الحديث ودرجاته من صحيح وحسن وضعيف .

وفى رأينــا أن هذه الفصول لا علاقة لها بأدب الحديث وهى تتعلق بعلم مصطلح الحديث ولو أن الكاتب تجاوزها والتزم بما اختاره من عنوان لكتابه لكان ذلك أنفــع .

١ـ

وفى الباب الثانى تناول المؤلف شخصية رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فتحدث عن صفاته الخلقية والخلقية ، وثقافته ، ثم تناول فصاحته صلى الله عليه وسلم الموروثة والفطرية والمكتسبة ، ثم أتى ببعض الأحاديث التى ذهبت مذهب الامثال وتناقلتها الاجيال وصحت معانيها على مرور الازمان ، مستشهدا بها على فصاحته وجوامع كلمه . (١)

وجاء الباب الثالث من كتاب الدكتور بكرى بعنوان " تحليل أدبى من الحديث " اختار فيه المؤلف ثمانية وعشرين حديثا ، وضع لكل حديث عنوانا ، ثم تحدث عن معنى الحديث وما فيه من صور بيانية بلاغية مثال ذلك

" عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بامرأة تبكى عند قبر ابنها . فقال لها : اتقى الله واصبرى . فقالت له ولم تعرفه - اليك عنى ، لم تصب بمصيبتى . ثم عرفته فذهبت اليه . فقالت معتذرة : لم أعرفك . فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم - (الصبر عند الصدمة الاولى)

ومن البلاغة واللغة فيه يقول المؤلف :-

(الصدمة فى اللغة : من اللطمة والضربة بجسم على آخر والصدمة الاولى كناية عن أول حدوث المصيبة . وفى الصدمة وحدها استعارة تصريحية شبه فيها حلول المصيبة بصدمة مادية على جسم المصاب فآذته . (٢)

---

١ - انظر أدب الحديث النبوى / ١٠٤
٢ - انظر أدب الحديث النبوى / ٢٠٧

وفي الصريحة وحدها استعارة تصريحية شبه فيها حلول المصيبة
الاولى — كناية عن أمل عجمة المصيبة/ بعدها طلعة على جسم المطالب فلا تعالته "(١)

ثم يتكلم بعد ذلك عن المعنى ويتناول الحديث بالتحليل وسار على نفس النهج فى معالجته بقية الاحاديث ، فجاء الباب الثالث من كتابه أشبه بالكتب المنهجية التى توضع لتعليم تلاميذ المدارس مبادئ البلاغة .

وحرصا منى على إضافة شئ يسير لخدمة السنة النبوية ، جاء اختيارنا لهذا البحث ونحن نعلم تعدد مناهجه وصعوبة مرتقاه . فعكفت على دراسة كتب الحديث ، فواجهتنى بعض الصعوبات ، منها تناثر الدراسات الادبية عن الحديث فى كتب الاقدمين وقلتها عند المحدثين ، فشددت الرحال الى مصر متنقلاً بين مكتباتها العامة منها والمتخصصة ، فاستغرق ذلك منى جهدا ووقتاً كانت ثمرته هذا البحث المتواضع .

جاءت الرسالة فى أبواب ثلاثة ، خصصنا الاول منها للحديث عن هديه صلى الله عليه وسلم فى الكلام ، فمن خصائصه الهامة اختياره للالفاظ اذ

١ـ انظر ادب الحديث النبوى ٢٠٧/

أنه كان يختار لامته أحسن الالفاظ وأجملها وألطفها وأبعدها عن ألفاظ الجفاء والغلظة ، وهو القائل عليه أفضل الصلاة والسلام (المسلم من سلم المسلمون لسانه ويده)(١)

ومن السمات الغالبة على الاسلوب التى تميزه عن بيان غيره من بلغاء العرب وتسمو به الى قمة البيان العربى اعلانا بانه بيان انسان اصطفاه ربه ليكون مبينا للكتابة ، وداعيا الى دينه ونذيرا وبشيرا وهاديا الى سراط مستقيم ، الايجاز فى مواطن الايجاز والاطناب فى مواطن الاطناب ، وان كان شديد الميل فى ايجاز الحديث وخطم الكلام وهو المطب شديد العزوف عن الثرثرة فى غير ما طائل والتفيهق فى غير ما حاجة والاسترسال من غير سبب تدعى داع للاسترسال وبسط الكلام وهو القائل (ان أحبكم الىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، وان ابغضكم الىّ وابعدكم منى مجلسا يوم القيامة ، الثرثارون المتشدقون)(٢)

وهذا لا يعنى انه لم يطنب فى حديثه ، فقد يقتضى الامر لمناسبة عارضة أن يفيض الرسول صلى الله عليه وسلم فى القول فلا يتأخر

١- انظر هذا البحث ص ١١

٢- انظر هذا البحث ص ٢٦

لان الاطنـاب والبسط فى موضعـه كالايجاز والخطم فى موضعـه واحق ما يوصف بـه اسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، الاتزان فاسلوبه يتمـــاوى فيـه لفظه مع ما يقصده من المعنى فطلاقه الا انه يبين عن فطرة خالصة مبرأة من شوائب الصنعـــة تدرك المدلول اللغوى للكلمة وتحيط بامتدادها وبسطها واحتمالاتها وبتضح امامها ما يقصد اليه لبين عنه وحدوده المناسبة للمقام الذى يتكلم فيه صلى الله عليه وسلم حين يتكلم .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم بصيرا بما يقصده متمكنا من اللغة يقول ما يقول دون ان يسير على وتيرة واحدة لا يتخلف ، ونسق واحد لا يتبدل فى جميع فنونه فى مختلف أحواله ، مهما تغيرت المواقف والدواعى ومهما كان الفن الذى يتوسل به وعلى اى هيئة كان ، وهذا لا يستقيم لكاتن مخلوق سواه ، اذا كان الكائن خاضعا لحالات وطوارئ تحد من استعداده فيتحول من النشاط الى الكسل ومن الاقبال الى الادبار ومن الانشراح الى الضيـــق ، وما كان صلى الله عليه وسلم بالذى يمر باى من هذه الادوار البشرية فما نجده فى احاديثه الصغار من دقة التعبير ووضوح العبارة وحسن الديباجة واحكام النسج ، نجده فى اسلوبه الخطابى والقصصى وفى رسائله ومعاهداته وما نجده فى البيان الموجز ، نجده فى البيان المطول ، مهما بلغ من الطـــول .

ولما كانت من مهمات الرسول صلى الله عليه وسلم التربية والتعليم اتخذ اساليب عدة وسلك طرقا شتى اجاد استعمالها فكان اسلوب التحاور والتشاور والمراجعة والسؤال والجواب والأخذ والرد ، وكان من عديه اعادة الحديث وتكراره أحيانا ليفهم عنه وذلك لاختلاف القرائح وتباين المدارك . ومما استعان به الرسول صلى الله عليه وسلم فى تثبيت المعانى وتوضيح الحديث الحركة والفعل او الاشارة فجعلهما اساليب بيانية عون للفظه فكان يؤكد المعانى ويقويها بالحركة والفعل فيقول مثلا (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا — ثم يشبك بين أصابعه) (١)

ولقد امتاز اسلوبه صلى الله عليه وسلم بالبساطة واليسر وعدم التكلف فى كل حالاته اذ كان يعتصم من صبين لنوى لا يخضع ضمائه له فطرته المتميزه ، وان كان فى تعبيره لا يخضع لما يخضع له غيره من الحرص على التفوق واحراز السبق على من عداه اذ ان الحرص على التفوق يضطر صاحبه الى اقامة بيانه على اسباب الصنعة التكلف ، حيث يعمد الى تهذيب كلامه ومراجعته قبل ان يتفوه به وتكرار النظر فيه طالبا لتجويده واحكامه فيحذف ويضيف ويستبدل الكلمة بالأخرى ويقدم ويؤخر وما كان صلى الله عليه وسلم فى بيانه يصطر

١ـ انظر هذا البحث / ٥٣

الى صنيع شيء من هذا لانه من يكن يجاوز بكلامه مقدار الابلاغ في المعنى الذي يريده ، وان اخرجه في ازهى صورة واروع مظهر وهو لم ينزل الى هذا المضمار القائم على التنافس ، ومن ثم لم يكن مضطرا الى ذلك الذي اضطر اليه الاخرون ، انما كانت معانيه وحيا والهامــًا ونفثا في الروع وكانت حكمة ظاهرة ، اعدادا ربانيــا ، حيث انه الفهم للقران الكريم ياخذ عنه ويسير في اطاره ولقد حرص القران الكريم على تقرير هذا ، فقال في تزكية منطقه صلى الله عليه وسلم وتنزيهه عن الهوى (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى)[1]

وما ورد من الفاظ غريبــة في الفاظه صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن ضروب ثلاثة . — اولها الفاظ عربية كانت مأنوسة في عصره فلما خالط العرب وغير جنسهم ، تداخلت اللغات وتقادم عهدنا بها غمض ما كان مانوسـًا وضرب ثان من الغريب ورد في حديثه صلى الله عليه وسلم يضطر الى استعماله وجاء به ليسد مسدًا لا تغني عنه الكلمة المأنوسة ، وهنا تكون الغرابة على ندرتها القليلة مما يجوز .

١ـ سورة النجم / ٣ـ٦

والضرب الثالث من ضروب الدراسة هو ما يحدث به صلى الله عليه وسلم او كتب به رسائله وعهوده الى القبائل النائية ممن لا ينطقون بلغة قريش فكان يخاطب كل امة بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من الصحابة يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله [1] وكل ذلك نادر يسير اذا قيس بما نتداوله من ادب محمد صلى الله عليه وسلم ، وحلة مشهورة انيس.

وجاء الباب الثاني ليتحدث عن الصورة البيانية في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكان لون من الوان الاداء النبوي جاء على أكمل تمامه وابهى أصباغه وارف ظلاله ، وبه ارتفع اسلوبه الى منزلة لم يبلغها أديب في العربية فالرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغه لرسالة ربه كان لاصحابه يضرب لهم كثيراً من الامثال وجاءهم بكثير من التشبيهات القرآنية المحكمة وكان من عادته أن يضرب لهم الامثال بما كان لاصقا بحياتهم موصولا بمعيشتهم ليكون أبعد تأثيرا وأبلغ نفاذا وأكثر جدوى . فلما أراد أن يوصيهم بمعاهدة القرآن وتلاوته قال (انما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعلقة ان عاهد عليها أمسكها وان اطلقها ذهبت [2]

---

١ = انظر هذا البحث ص ١٤

٢ ـ " " " ص ١٠٨

واستعان صلى الله عليه وسلم بالاستعارات فى كثير من احاديثه تقوية للمعانى وتاثيرا فى السامع وتصويرا للمعانى الذهنية والنفسية والعاطفيــــــة لتقريب المعانى . واول ما يسترعى الانتباه والنظر فى خصائص الاستعارة النبوية ، أنها تستمد عناصرها من الطبيعة والبيئة وفى ذلك اثر كبير لان الصحابة رضوان الله عليهم يدركون هذه العناصر ويشاهدونها ويرونها قريبة منهم وبين ايديهم ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (نعم الصدقة اللقحـــــة الصفى منحة والشاة الصفى منحة تغدو باناء وتروح بآخر)(١)

والكناية والتعريض فى البيان النبوى يقومان بدورهما كاملا غير منقوص فى اداء المعانى وتصويرها أدق تصوير بتهذيب الالفاظ وابدال ما يفحش ذكره ويستهجن نطقا تقبله الطباع وتلذ له الاسماع .

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (٢) (عليكم بسنتى وسنة المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ فجاء الارشـــاد الى التمسك بسنته مصـــورا تصويرا دقيقا فى تركيب مجازى هو العض بالنواجذ ، فجاءت الصورة الذهنيـــة شاخصة ماثلة لها فى النفس نصيب وفى القلب أثر بالغ .

١- انظر هذا البحث ص ١٣٩

اما أثر الحديث النبوى فى فنون الادب فكان مجال الحديث فى الباب الثالث من الرسالة يتناول موقفه صلى الله عليه وسلم من الشعر ، يبسط هذه القضية موضحا ما أحيط بها من لغط كثير ويكشف قدر الطاقة ما تحمله من غير تفكير يتراكم على الاجيال اذ ينقل اللاحق عن السابق دون تمحيص .

اذ أجمع بعض الادباء على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقيم للشعر وزنا ولا يكمل انشاد بيت واحد بعتمام لفظه ، الا انى تناولت هذه الاراء بالمناقشة وانتهى بى الرأى الى مخالفتهم اذ ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتحرج من تمثل الشعر فقد استنشد غيره واستمع اليه ، كما كان الشعر من اسلحته التى استعان بها لنشر دعوته وكان طالما به ، فلو كان الشعر مذموما لما استثنى القرآن الشعراء المؤمنين العاملين ولما اتخذ صلى الله عليه وسلم شعراء يشجعهم على الشعر ويأمرهم بمحلة ويحمده منهم ، فهو لا يتحرج منه ولا يذمه ولا يكسره ولا يهشمه صلى الله عليه وسلم (١)

وقضية اخرى شبيهة بتلك وهى موقفه صلى الله عليه وسلم من السجع ، ذهب بعض اخر الى أنه صلى الله عليه وسلم امتنع عنه ونهى

١ـ انظر هذا البحث ١٧٩

ونفر منه غيره و نخالفهم من ذلك بما سقناه من ادلة تكشف أنه لم

يتحرج من قوله ولم يخرج عن السنن العربي من استحسان له بل ورد كثير

منه في حديثه صلى الله عليه وسلم وهو ان نهى أو نفر فقد نهى عن سجع

الكهان لما فيه من تكلف وتشادق وابطال حق وهو صلى الله عليه وسلم لم يتكلف

السجع ولم ينصرف له ،بل جاءت اسجاعه على السجية حلوة حارة طنانة

رنانة الا غثة ولا باردة .

والرسول صلى الله عليه وسلم استخدم القصة في الهداية والارشاد

بعد ان ادرك اثرها في النفوس فجعلها وسيلة من وسائل الدعوة الشريفة

والقصة النبوية وان كانت ذات غرض ديني الا انها اتسمت بمعظم الخصائص

الفنية الادبية من الاعتماد على الوحدة الفنية . انتقاء اللفظ الموحي مع

الاستثارة الآخذة والتشويق الحاذب دون اهتمام متزايد بالاشخاص والاحداث

وهذا الاغفال للاشخاص والاحداث اغفال مقصود منه صلى الله عليه وسلم

لان حكاية الاحداث ليست مقصودة في ذاتها بل يقدم منها الجانب الذي

يكشف عن الغرض دون سواه .(١)

١- انظر هذا البحث ص ٢٣٠

أما أثر الحديث فى الخطابة كفن من فنون الادب ، فقد جـاء الرسول صلى الله عليه وسلم والخطابة الجاهلية لا ترتكز على أساس من وحدة الموضوع ووحدة المنهاج فاحدث فيها انتقالا كبيرا شمل الشكل والمضمون والاسلوب والاغراض ووظفها تلك الوظيفة الدينية الجديدة (١)

اما رسائله ومعاهداته فكانت من سماتها الدقة الموجزة ومراعـاة مقتضى الحال فى التزام الواقع والبعد عن المجاز ما امكن حذرا من اختلاف الفهم عند التفسير والتاويل وفى ذات الوقت لم تكن جافة تقوم على العبارات والكلمات الجامدة ولم تكن فنية تقوم على العبارات الفضفاضة التى تعنى اكثر من مدلول ، بل جعلها صلى الله عليه وسلم مزيجا من هذا وذاك .

ولقد تبين لنا بعد اطالة النظر وتردد الفكر ، أن الفنون البيانيـة فيه ليست مقصـودة لذاتها ، وانما هى وسائل بيانية تفرضها ظروف خاصة فى الموقف الذى يبين فيه صلى الله عليه وسلم ، اذ يلمس بحسه الفطرى ما يتطلبه الموقف من الالوان البيانية فتوسل به ، ليصل الى المتلقى من اقرب الطرق وأوضحها دون ان يدور فى دروب متشعبة واودية متناثرة ومن ثـم

١ـ انظـر البحث ص ٢٩٩

لا نستطيع أن نخص بيانه صلى الله عليه وسلم بواحد من تلك الفنون :

فلسانه ليجمع فنون النثر على مستوى واحد و ما ذلك الا لأنه صلى الله عليه وسلم لم يستعبد لفن من فنون البيان بل لم يستعبد للبيان ذاته ، وانما البيان عنده وسيلة مجردة من كل الغايات فهو ينتقي من فنونه ما يستدعيه المقام ويتطلبه الموقف .

كما تبين لنا أن أبرز خطوط الاسلوب النبوى أنه اسلوب عربي خالص التزم فيه صاحبه صلوات الله وسلامه عليه حدود الاساليب العربية في مختلف الاتجاهات .

فهو عربى اللفظ اعتمد صاحبه في مادته الاولى على قاموسه الخاص من لغة قوية الحق كان له فيها الباع الواسع والاطلاع العريض حيث اشتمل قاموسه الخاص صلى الله عليه وسلم على المفردات العربية في بيئته المتحيرة - قريش - التى كانت لغتها باعتراف من جميع القبائل أغزر لهجات العرب مادة وأرقها اسلوبا وأغناها ثروة وأقدرها على التعبير الجميل الراقى والاسلوب الحسن الانيق فى أفانين القول المختلفة حتى أنها اصطفت وحدها فى الكتابة والتاليف . كما اشتمل قاموسه

صلى الله عليه وسلم على المفردات العربية فى مختلف اللهجات العربية الاخرى بما مكنه من مخاطبة أناس لم يكتب له عليه السلام أن يشافههم أو يشافهوه بخطابهم ولهجتهم ولا يعدو ألفاظهم وعباراتهم فيمـا يريد أن يلقيه اليهم ومن الفاظ خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم ويقاربهم وتجوز فى غير أرضهم ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشيـة . كالالفاظ التى استعملها فى كتابة الى همزان وفى كتابة لوائل بـن حجر الذين هم على قدر كبير من البلاغة والفصاحة . (١)

وهنا تبرز المقدرة الكامنة فى بيانه صلى الله عليه وسلم ، تلك المقدرة التى لفتت أنظار أهله فى دهشة وتعجب على نحو ما سمعناه من ابن عمه على بن ابى طالب الذى قال ما سمعت كلمة عربية من العرب الا وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وسمعتـه يقول مات حتف أنفـه وما سمعتها من عربى قبله وهو عربى التركيب اعتمد صاحبه فى صياغته على أدق وأرقى ما عرفه قومه من وسائل الصياغة وألوان التركيب دون أن ينزع فى شىء من ذلك فنزعا خارجا عن عربيتـه ، ولا عجب فى ذلك فقد جمع صلى الله عليه وسلم فى نشأته بين أفصـح القبائل وأصفاها لغة وأخلصها بيانا وأعذبها منطقا ، وارقها تعبيرا ،

حيث ولد في بني هاشم ، ونشأ في مرتضعه بين بني سعد بن بكر ، وتزوج من بني أسد وهاجر الى بني عمرو بن عوف وهم الاوس الخزرج ، فتهيأ له من دافع نشأته ما عزز فطرته العربية وتمكن بتلمذته على القرآن الكريم من صقل هذه الخصيصة بشقيها المكتسب منها والفطري ، ليتحقق له التفوق الذي أعلن عنه صلى الله عليه وسلم بقوله في مواجهة العرب جميعا (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر)(١) ولم يتحرك لسان واحد لينكر عليه هذا الاعلان الصريح في أمر به يفاخرون وعليه يعولون .

وهو عربي في فنيته وأسلوبه ، اعتمد فيه صاحبه على فنون البلاغ العربية منتقيا منها في كل موقف ما يناسبه ويشاكله دون مراعاة لأي عوامل أخرى من حصول لهذا الفن أو شيوع لذلك فالمثال ومنتقيا ما هو الذي يدفعه الى هذا الفن دون غيره حتى ولو لم يكن هو الفن الاصل عند العرب ، ولا يتكئ نفسه على فن بياني

١- انظر هذا البحث ص ٨

بعينه الآن وتستدعيه .

وختاما هذا جهد المقل نقدمه ولا ندعي فيه الكمال ونرجو فيه المثوبة والأجر ونسأله عز وجل يوفقنا لدراسة أوسع وأشمل لبيان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

" ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا واعف عنا واغفر لنا وارحمنا "

صدق الله العظيم

ثبت المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم .

(٢) أبو علي الفارسي - عبد الفتاح شلبي ، مطبعة نهضة مصر "بدون تاريخ"

(٣) أدب الحديث النبوي - بكري شيخ أمين ، دار الشروق ، مصر [illegible]م

(٤) أحكام القرآن - ابن العربي - تحقيق علي محمد البجاوي - [illegible]م .

(٥) أساس البلاغة - الزمخشري ، دار صادر بيروت [illegible]م

(٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ، [illegible] "بدون تاريخ"

(٧) أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة الاستقامة القاهرة [illegible]م .

(٨) أسرار البيان - علي محمد حسن العماري ، دار القومية العربية للطباعة ، مصر [illegible]م .

(٩) إعجاز القرآن - الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر [illegible]م .

(١٠) اعجاز القرآن – الرافعي ، مصطفى صادق ، مصر [illegible] م .

(١١) انباه الرواة على أنباه النحاة : القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية طبعة أولى ، القاهرة [illegible] م .

(١٢) الأدب المفرد : البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المكتبة الاسلامية – حمص [illegible] م .

(١٣) الأدب العربي وتاريخه : محمود مصطفى ، مصر [illegible] م .

(١٤) الأدب في مؤتمر الحضارة الاسلامية : مصطفى الشكعة طبعة ثانية ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٤م .

(١٥) الاحكام في أصول الأحكام : ابن حزم الاندلسي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبعة أولى ، مطبعة السعادة ، مصر [illegible] .

(١٦) الاستشهاد في النحو العربي : رسالة ماجستير اعداد ، عثمان الفكي بابكر ، دار العلوم ، مصر [illegible] م .

(١٧) الاصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني ، طبعة أولى مطبعة السعادة ، مصر [illegible] .

(١٨) الأغـانـي : أبو الفـرج الأصفـهاني دار الثقـافـة بـيروت ١٩٥٥م .

(١٩) الأتقـان : السـيوطي ـ طبعة حيدر آباد ،الهنـد " بـدون تـاريخ " .

(٢٠) الأمـالـي : القالي ،أبو علي اسماعيل بن القاسم طبعة بـولاق مصـر ١٣٢٤ هـ .

(٢١) الايجـاز والاعجـاز : الثعالبي ،أبو منصـور ـ دار صعب بـيروت ،" بـدون تاريخ " .

(٢٢) الباعث الحثيث : أبن كثـير :ـ بـيروت ١٩٥١م .

(٢٣) البيـان والتبـيين ،الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحـر تحقيق عبدالسلام هارون ، طبعة أولـى القاهـرة ١٩٤٨م .

(٢٤) البيـان في ضوء اساليب القرآن : عبدالفتاح لاشـين طبعة أولى دار المعارف مصر ١٩٧٧م .

(٢٥) البيـان النبـوي : محمد رجب بيومي القاهرة ١٩٨٠م .

(٢٦) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول : الشيخ منصور علي ناصف ،مصـر ١٩٢٥م .

(٢٧) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، طبعة تاسعة ، دار المعارف ، "بدون تاريخ" .

(٢٨) الخصائص : ابن جني ، أبو الفتح عثمان ، تحقيق علي محمد النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر لبنان بيروت "بدون تاريخ" .

(٢٩) الرسول صلى الله عليه وسلم : سعيد حوى ، طبعة أولى دار الكتب العربية ، بيروت ١٩٧٤م .

(٣٠) السيرة الحلبية : الحلبي ، علي بن برهان الدين طبعة مصطفى محمد ، القاهرة "بدون تاريخ" .

(٣١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض ، أبو الفضل ، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٧٧م .

(٣٢) الصناعتين : أبو هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد الفضل ابراهيم طبعة أولى القاهرة ١٩٥٢م .

(٣٣) الطراز : العلوي ، طبعة المقتطف ، مصر ١٩١٤م .

(٣٤) العقد الفريد : ابن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق
أحمد أمين ، أحمد الزين وابراهيم الأبياري
طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٥٢م .

(٣٥) العمدة في صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق القيرواني
طبعة أولى ، مطبعة أمين هندية ، مصر ١٩٢٥م .

(٣٦) الغريبين : الهروي ، تحقيق محمود الطناحي -
القاهرة " بدون تاريخ " .

(٣٧) الفائق في غريب الحديث والأثر : الزمخشري طبعة
أولى القاهرة ١٩٤٥م .

(٣٨) القراءات في اللغة والنحو : أحمد مكي الانصاري
طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية ، مصر ١٩٦٤م .

(٣٩) الفن ومذاهبه في النثر العربي : شوقي ضيف دار
المعارف ، مصر ١٩٤٦م .

(٤٠) الكامل في اللغة والأدب : المبرّد ، أبو العباس محمد
ابن يزيد ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٥١م .

(٤١) الكتاب : سيبويه ، طبعة بولاق مصر ١٣١٦ هـ .

(٤٢) الكشاف : الزمخشري ، مطبعة مصطفى محمد ، الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٥٤ هـ .

(٤٣) المثل السائر : ابن الأثير ضياء الدين ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة - مطبعة نهضة مصر ١٩٥٩م .

(٤٤) المجازات النبوية : الشريف الرضي ، تحقيق الزيني ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧م .

(٤٥) المحتسب : ابن جني ، أبو الفتح عثمان ، تحقيق علي النجدي ناصف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مصر ، "بدون تاريخ" .

(٤٦) المزهر : السيوطي ؛ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، الطبعة رابعة مصر ١٩٥٨م .

(٤٧) المسند : أحمد بن حنبل ، شرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٩٤٩م .

(٤٨) المفضليات : المفضل الضبي : شرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، الطبعة ثالثة دار المعارف بمصر ١٩٦٤م .

(٤٩) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، مطابع الشعب ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .

(٥٠) المقدمة : ابن خلدون ، مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة ، "بدون تاريخ" .

(٥١) المعيار في أوزان الأشعار : أبو بكر محمد بن عبد الملك بن السراج الشنتريني الأندلسي ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٧١م .

(٥٢) المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء : الجرجاني القاضي أبو العباس أحمد بن محمد ، طبعة أولى ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٠٨م .

(٥٣) الموطأ : الامام مالك بن أنس ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٣م .

(٥٤) النحو الوافي : عباس حسن ، دار المعارف ، مصر "بدون تاريخ" .

(٥٥) النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الاثير ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزري ، المطبعة الخيرية ، مصر ١٣١٨ هـ .

(٥٦) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : السيوطي
مطبعة السعادة ، مصر ١٣٢٦ هـ .

(٥٧) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : طه أحمد ابراهيم
دار الحكمة ، بيروت ١٩٣٧م .

(٥٨) تأملات في البيان النبوي : ابراهيم عوضين ، الطبعة
أولى ، مطبعة السعادة ، مصر ١٩٨٠م .

(٥٩) تطور الأساليب النثرية : أنيس المقدسي - دار العلم
بيروت ١٩٦٥م .

(٦٠) تفسير الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
طبعة ثانية مؤسسة الحلبي مصر ١٩٥٤م .

(٦١) جمهرة خطب العرب : أحمد زكي صفوت ، الطبعة
أولى ، مصر ١٩٣٣م .

(٦٢) جمهرة رسائل العرب : أحمد زكي صفوت ، الطبعة
أولى ، مطبعة الحلبي ، مصر ١٩٣٧م .

(٦٣) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام :-
أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي
تحقيق علي محمد البجاوي ، الطبعة أولى القاهرة ١٩٦٧م.

(٦٤) جمهرة الامثال : أبو هلال العسكري ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، عبدالمجيد قطامش المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، طبعة أولى القاهرة ١٩٦٤م .

(٦٥) خزانة الأدب : البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٦٧م .

(٦٦) دائرة المعارف الاسلامية : وزارة المعارف العمومية مصر ١٩٣٣م .

(٦٧) دبلوماسية محمد : عون الشريف قاسم ، قسم التأليف والنشر ، جامعة الخرطوم "بدون تاريخ" .

(٦٨) دراسات في العربية وتاريخها ـ محمد الخضر حسين طبعة ثانية ، دمشق ١٩٦٠م .

(٦٩) دلائل الاعجاز ـ الجرجاني ، عبدالقاهر ، صحح أصله محمد عبده ومحمد محمود التركزي ، مطبعة الموسوعات ، مصر "بدون تاريخ" .

(٧٠) ديوان لبيد بن ربيعة العامري : دار صادر بيروت ١٩٦٦م .

(٧١) ديوان حسان بن ثابت : تحقيق سيد حنفي
القاهرة ١٩٧٤م .

(٧٢) ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق ناصر الدين الأسد
طبعة أولى ، القاهرة ١٩٦٢م .

(٧٣) ديوان أبي تمام : شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق
محمد عبده عزام ، دار المعارف مصر
" بدون تاريخ " .

(٧٤) رياض الصالحين : النووي ، مصر ١٩٥٥م .

(٧٥) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم : الإمام
الشنقيطي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٧٦) زاد المعاد في هدي خير العباد : ابن قيّم
الجوزية ، طبعة ثالثة ، مصر ١٩٧٣م .

(٧٧) سيبويه والقراءات : أحمد مكي الأنصاري ، دار
المعارف ، مصر ١٩٧٢م .

(٧٨) سيرة النبيّ : ابن هشام ، أبو محمد عبدالملك
مراجعة : محمد محيي الدين عبدالحميد
القاهرة ١٩٣٧م .

(٧٩) سنن الترمذي : مطبعة مصطفى البابي الحلبي
الطبعة أولى ، القاهرة ١٩٣٧م .

(٨٠) سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث بن اسحاق
الأزدي السجستاني - علّق عليه الأستاذ
الشيخ أحمد سعد علي ، الطبعة أولى مطبعة
مصطفى البابي الحلبي مصر ١٩٥٢م .

(٨١) سنن ابن ماجه : أبو عبدالله محمد بن يزيد
القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي مصر
[illegible]م .

(٨٢) شرح ابن عقيل على ابن مالك : محمد محيي الدين
عبدالحميد ، الطبعة الثانية عشرة ، مطبعة
السعادة ، القاهرة ١٩٦١م .

(٨٣) شمس الدعوة الاسلامية : عبدالله بن أحمد الحامد
الرياض ١٩٦٧م .

(٨٤) صبح الأعشى : القلقشندي ، مطبعة بولاق مصر ١٩٠٣م .

(٨٥) صحيح البخاري : أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن
ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي ،
مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ١٣٤٥هـ .

(٨٦) صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ، الطبعة المصرية "بدون تاريخ".

(٨٧) طبقات النحويين واللغويين : الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن ، تحقيق محمد أبو الفضل ، مصر ١٩٥٥م.

(٨٨) عبقرية محمد : العقاد ، عباس محمود ، مطبعة دار الهلال ، مصر "بدون تاريخ".

(٨٩) علوم الحديث : صبحي الصالح ، بيروت [illegible]م.

(٩٠) عمدة القاري شرح صحيح البخاري : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر "بدون تاريخ".

(٩١) غريب الحديث : ابن قتيبة ، تحقيق عبدالله الجبوري ، طبعة أولى ، بغداد ١٩٧٧م.

(٩٢) غريب الحديث : ابن سلام ، القاسم ، تحقيق محمد عبدالمعيد خان ، حيدر آباد الهند ، [illegible]م.

(٦٣) في أصول النحو : سعيد الافغاني ، الجامعة السورية ١٩٥١م .

(٦٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة ، طبعة أولى ، مطبعة العالم ، مصر ١٣١٠ هـ .

(٦٥) لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ، مطبعة حيدر آباد الهند " بدون تاريخ " .

(٦٦) لسان العرب : ابن منظور : دار صادر بيروت ١٩٥٥م .

(٦٧) مجمع الأمثال : الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ، مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١م

(٦٨) مجموعة الوثائق السياسية : محمد حميد الله القاهرة ١٩٤١م .

(٧٠) مجلة المورد : المجلد التاسع ، العدد الرابع دار الحرية ، بغداد ١٩٨٠م .

(١٠٠) مذكرات مخطوطة : الحبر يوسف نور الدائم .

(١٠١) مراتب النحويين أبو الطيب الكوفي ، مصر "بدون تاريخ" .

(١٠٢) مسند الشافعي : محمد بن ادريس الشافعي "أبو عبدالله" طبعة بولاق المطبعة الاميرية مصر ١٣٢٤ هـ .

(١٠٣) مغني اللبيب : ابن هشام ، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله ابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ .

(١٠٤) مكاتيب الرسول : علي بن حسين علي الأحمدي دار صعب ، بيروت "بدون تاريخ" .

(١٠٥) من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوي مصر ١٩٥٠م .

(١٠٦) وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان : ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين ، أحمد بن محمد ابن أبي بكر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، الطبعة أولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م .

(١٠٧) عناية البارى الى أحاديث البخارى : السيد / عبد الرحيم عنبر المصرى الطهطاوى
طبعة ثانية ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .